8
M
v.

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

892.78
M276nA
v.2

النظرات

بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

الجزء الثاني

N. MAKHOUL
BINDERY
14 OCT 1972
Tel. 260458

892.74
M27nA
V. 2
c. 1
المنفلوطي

النظرات

البيان

قال لى أحدُ الوزراء ذات يوم « إنى لتأتينى أحيانا رِقاعُ الشكوى فأكاد أهملها لما تشتملُ عليه من الأساليب المنفرة ، والكلماتِ الجارحة لولا أن الله تعالى يلهمنى نياتِ كاتبيها وأين يذهبون ، ولولا ذلك لكنتُ من الظالمين »

ذلك ما يراه القارئ فى كثير من المخطوطات التى يخطُّها اليومَ كاتبوها فى الصحف ورِقاع الشكوى والكتب الخاصة ، والمؤلفات العامة

هزلٌ فى موضع الجد ، وجدٌّ فى موضع الهزل ، وإسهابٌ فى مكان الايجاز ، وإيجاز فى مكان الاسهاب ، وجهلٌ يفرِّق ما بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتأديب ، والاستعطاف والاستخفاف ، وقصورٌ عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السُوقة والأمراء ، والعلماء والجهلاء ،

حتى أن الكاتبَ ليُقيمُ فى الشوكة يشاكُها، مَناحةً لا يقيمُها فى الفاجعة يُفجعُ بهـا، ويكتبُ فى الحوادث الصغار، ما يعجزُ عن كتابة مثله فى الحوادث الكبار، ويخاطب صديقَه، بما يخاطب به عدوه، ويناجى أجيرَه، بمثل ما يناجى به أميره

ذهب الناسُ فى معنى البيان مذاهبَ متشعبة، واختلفوا فى شأنه اختلافاً كثيراً، ولا أدرى علامَ يختلفون، وأين يذهبون، وهذا لفظه دال على معناه دلالةً واضحة لا تشتبه وجوهُها، ولا تتشعب مسالكها

ليس البيانُ إلا الابانةَ عن المعنى القائم فى النفس، وتصويرَه فى نظر القارئ أو مَسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزُه، ولا يقصرُ عنه، فان عَلِقَتْ به آفةٌ من تينك الآفتين فهو العىّ والحصَر

جهل البيانَ قومٌ فظنوا أنه الاستكثارُ من غريب اللغة ونادر الأساليب، فأغصُّوا بها صدورَ كتابتهم، وحشوْها

فى حلوقها حشوا يقبض أوداجها ، ويحبس أنفاسها ، فاذا قُدّر لك أن تقرأها وكنتَ ممن وهبهم الله صدراً رحْباً ، وفؤاداً جَلْدًا ، وَجَناناً يحتمل ما حُمل عليه من آفات الدهر وأرزائه ، قرأتَ متناً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتابا مضطربا من كتب المترادفات

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذَر فى القول ، والتبسطُ فى الحديث ، واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاهُ حيث وقع ، فلا يزالون يجترّون بالكلمة اجترار الناقة بجِرّتها ، ويتمطّقون بها تمطق الشفاه بريقها ، حتى تُسفّ وتتبذّل ، وحتى ماتكاد تسيغها الحلوق ، ولا تَطرف عليها العيون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً

يخيّل إلىّ أن الكتاب فى هذا العصر يكتبون لانفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبهُ شىء بالأحاديث النفسية التى تتلجلج فى صدر الانسان حينما يخلو بنفسه ، ويأنس بوحدته ، فانى لا أكاد أرى بينهم من

يحكم وضعَ فمه على أذن السامع ، ويَنفثُ فى رُوعه ما يريد أن يَنفث من خواطر قلبه ، وخوالج نفسه

الكلام صلةٌ بين متكلم يُفهِم ، وسامع يَفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف ، تكون منزلةُ الكاتب من العلوّ والإسفاف ، فان أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدةَ فى البيان قاعدتَك ، واحرص الحرصَ كله على أن لايخدعك عنها خادع فتسقطَ مع الساقطين

ما أُصيب البيانُ العربى بما أُصيب به الا من ناحية الجهل بأساليب اللغة ، ولا أدرى كيف يستطيع الكاتبُ أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطّلع على أساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم ، وتصوراتِهم وخيالاتهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاتِبون ويؤنّبون ، ويعظون وينصحون ، ويتغزلون ويَنسِبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأيّة لغة يحاول أن يَكتب ما يريد إن لم يستمدّ تلك الروحَ العربية استمداداً يملأ ما بين

جانحتيه حتى يتدفقَ مع المداد من أُنبوب براعتـه على صفحات قرطاسه

إنى لأقرأ ما كتبه الجاحظُ وابنُ المقفع والصاحبُ والصابئ والهمذانى والخوارزمى وأمثالهم من كتّاب العربية الأولى ، ثم أقرأُ ماخطه هؤلاء الكاتبون فى هذه الصحف والأسفار فأشعرُ بما يشعرُ به المتنقلُ دفعةً واحدة من غرفة مُحْكَمَة النوافذ ، مسبلةِ الستور ، الى جوٍّ يسيل قَرا وِصرا ، ويترقرق ثلجاً وبرداً

ذلك لأنى أقرأ لغة لاهى بالعربية فأغتبطَ بها ، ولا هى بالعامية فألهوَ بأحماضها ومجونها

رأيت أكثر الكاتبين فى هذا العصر بين رجلين ، رجلٌ يستمد روح كتابته من مطالعـة الصحف وما يشاكلها فى أساليبها من المؤلفات الحديثة، والروايات المترجمة، فاذا علِقتْ بنفسه تلك الملكةُ الصحفية ألقى بها فى رُوع قارئ كتابته أدونَ مما أخذها ، فيُدْلى به آخذُها

كذلك الى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا حتى لايبقى فيها من روح العربية الا كما يبقى من الاطلال البالية بعد كر الغداة ومَر العشيّ ، وطالبٌ قصارى ما يأخذه عن أستاذه نحوُ اللغة وصرفُها ، وبديعُها وبيانها ، ورسمها واملاؤها ، ومترادفها ومتواردها ، وغيرُ ذلك من آلاتها وأدواتها ، أما روحُها وجوهرُها فأكثر أساتذةِ البيان عندنا علماءُ غيرُ أدباء ، وحاجة طالب اللغة الى أستاذ يفيضُ عليه روح اللغة ويوحي اليه بسرها ، ويفضي له بلبها وجوهرها ، أكثرُ من حاجته الى أُستاذ يعلمه وسائلَها وآلاتها ، وعندي أن لافرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان ، فكما أن طالب الأخلاق لايستفيدها الا من أستاذ كملت أخلاقُه ، وسمت آدابه ، كذلك طالب البيان لايستفيده إلا من أستاذ مُبين

ولا يُقذفنَّ في رُوع القارئ أني أحاول استلابَ فضل الفاضلين ، أو أني اريد أن أنكرَ على شعراء الامة وكتابها

ماوهبهم الله من نعمة البيان ، فما هذا أردتُ ، ولا إليه ذهبت ، وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليلٌ في بلد يقولون عنه إنه مهدُ اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب

وبعد فانى لا أرى لك ياطالبَ البيان العربى سبيلا إليه إلا مزاولة المنشئات العربية منثورها ومنظومِها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم ، لاوقوف المتنزه المتفرج ، فان رأيت أنك قد شغفت بها ، وكلفت بمعاودتها ، والاختلافِ اليها ، وأنْ قد لذّ لك منها ما يَلذ للعاشق من زوْرة الطيف فى غِرَّة الظلام ، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب ، فامض لشأنك ، ولا تلو على شىء مما وراءك ، تبلغ من طَلِبتكْ ماتريد

ولا تحدثنك نفسُك أنى أحملك على مطالعة المنشئات العربية لأسلوبٍ تسترقه ، أو تركيب تختلسُه ، فانى

لا أُحِب أن تكون سارقاً ولا مختلساً ، فان فعلت لم يكن دَرَكك دَرَكا ، ولا بيانك بياناً ، وكان كل ما أفدتَه[1] أن تخرج للناس من البيان صورةً مشوهة لا تناسُبَ بين أجزائها، وبُردةً مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها ، وانما أريد أن تُحصل لنفسك ملكة فى البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمُّل ، وإلا كان شأنُك شأنَ أولئك القوم الذين علقت ذاكرتُهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها فقنعوا بها ، وظنوا أنهم قد وصلوا من البيان إلى صميمه ، فاذا جد الجِدُّ وأراد أنفسَهم على الافصاح عن شىء مما تختلج به نفوسُهم رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ، فان وجدوا بينها قالَبا لذلك المعنى الذى يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً ، وحشروه فى كتاباتهم حشراً ، وإلا تبذّلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة ، أو هجروا تلك المعانىَ إلى معان أخرى غيرِها ، لا علاقة بينها

(١) أفاد واستفاد بمعنى

وبين سابقاتها ولا حقاتهـا ، فلا بد لهم من إحدى السوأتين ، إما فساد المعانى واضطرابهـا ، أو هُجنة التراكيب وبشاعتها

فاحذر أن تكون واحداً منهم ، أو أن تصدق مايقولونه فى تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيقُ من أن تتسع لجميع المعانى المستحدثة ، وأنهم مالجأوا إلى التبذُّل فى التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها ، فاللغة العربية أرحبُ صدراً من أن تضيق بهذه المعانى العامة المطروقة بعد ما احتملت من دقائق العلوم والمعارف مالاقبل لغيرها باحتماله ، وقدَرت من هواجس الصدور وخوالج النفوس على ماعيِّت به اللغاتُ القادرات

وليس الشأن فى عجز اللغة وضيقها ، وانما الشأن فى عجز المشتغلين بها عن الاضطراب فى أرجائها ، والتغلغل فى أعماقها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البِلَّة التى لاتثلج صدراً ، ولا تَشفى أُواماً

وكل مايُعد عليها من الذنوب أنها لاتشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة ، وهو فى مذهبى أهونُ الذنوب وأضعفها شأناً ، مادمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل اليه ، أو التعريبِ إن عجزنا عن الاشتقاق ، فالأمر أهون من أن نحارَ فيه ، وأحقر من أن نقضى أعمارَنا فى العراك ببابه ، والمناظرة فى اختيار أقربِ الطرق اليه ، وأجداها عليه

واعلم أنه لابد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشئات العربية ، فليس كلُّ متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك ، ولا أحسبَك إلا واقفاً بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ، لأن حُسن الاختيار طَلِبَةٌ تتعثر بين يديها الآمال ، وتتقطعُ دونها أعناق الرجال ، فالجأ فى ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناسُ منهم ذوقاً سليما ، وقريحة صافية ، وملكة فى الأدب ، كصفاة الذهب ، فان فعلت وكنت ممن وهبهم الله

ذكاء وفطنة ، وقريحةً خصبةً لينة ، صالحة لنماء مايلقى إليها من البذور الطيبة ، عدت وبين جنبيك ملكةٌ فى البيان زاهرةً ، يتناثر منها منثورُ الأدب ومنظومُه ، تناثر الورود والأنوار ، من حديقة الازهار

كذ

السريرة

لو كُشف للإنسان عن سريرة الانسانِ لرأى منها مايرى الأعمى من غرائب هذا الكونِ وعجائبه حين تدركه رحمةُ الله بعد طول محنته فيرتدّ بصيراً

تتراءى لك السريرةُ في ظاهرها كأنها أديم السماء ، أو صفحةُ الماء ، فان بدا لك أن تكتنهَ باطنها فانك غير بالغ من ذلك مأربَك إلا إذا استطعت أن تخترق جلدة السماء ، فترى ماوراءها من بدائع الكائنات ، وتغوصَ في أعماق الماء ، فتشاهد مافي باطنه من عجائب المخلوقات

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمج الشمسُ لعابَها من نافذة غرفته ، فاذا هو مائج وضاء يروح ويغدو رواحَ السانحات ، وغدوَّ البارحات ، ويعجز عن رؤية

الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يجسّمها له ويدنيها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه ، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد الى الوصول اليها سبيلا

وقف آدمُ أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتْحَه فاستعصى عليه ، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزَه ، فلجَّ بهم الشوق اليها لجاجاً طار بعقولهم ، وذهب بألبابهم ، فترامَوا على أقدام المنجمين والعرافين لثماً وتقبيلا ، وابتدروا النُّصُب والتماثيل ركوعا وسجوداً ، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيامَ الابل العطاش بمنازل الماء ، يطلبون ماوراء السريرة ، والسريرةُ كنز مرصود لاتنجع فيه النفثات ، ولا تجدى معه العزائمُ والرُّقى

إنك لترى الرجل يتلألأ جبينُه تلألؤ الكوكب فى جنح ليل مُبرَد ، ويفتر ثغرُه عن الأنوار ، افترار الاكمام عن الأزهار فتحسده على نعمته وسعادته ، وتتمنى أن لو منحك الله مامنحه من هناء ورغد ، وانَّ بين جنبيه

لو علمتَ همًّا يعتلج ، وقلباً يدِب فيه اليأسُ دبيب الآجال في الأعمار ، وكبِداً مقروحة لو عرضها فى سوق الهموم والأحزان ، ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الأثمان

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثُه الحلو ، وثغرُه المبتسم ، ويروقك منه كلفه بك ، وإعظامه لك ، واعجابه بشمائلك ومحاسنِك ، وتشيعهُ لآرائك ومذاهبك ، ولو كُشف لك من نفسه ما كُشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تبتاع أقدام السليك (١) بجميع ما تملك يدك ففررتَ من وجهه فِرارك من وجه الاسود السالخ (٢) وودت بجدع الانف أن لا يصافح وجهُه وجهَك من بعدها حتى فى جنات النعيم

لولا ما أسدل اللهُ على السرائر من الحجب لبُدلت الارض غير الأرض ، والسموات غير السموات وكان للكون نظامٌ غيرُ هذا النظام ، وللتاريخ صفحاتٌ غيرُ هذه الصفحات

(١) السليك رجل معروف بسرعة عدوه فى العرب (٢) ذكر الحيات

لو علم الجندُ أنهم لايحاربون إلا ليضعوا « نيشاناً » فى صدر القائد . أو جوهرةً فى تاج الملك ، وأنهم كثيراً مايكونون مخدوعين فى مواقفهم بأشراك الوطنية وحبائلِ الدين ، لمــا دالت الدول ، ولا انتقلت التيجان ، ولضعف ظهرُ الأرض عن حمل مافوقه من بنى الانسان ، ولو علم جهلة المتدينين أن أكثر زعماء الأديان انما يشترون منهم عقولهم وأموالهــم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلامِ النفسية ، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلامة بثمن غال ، لضعفت أصوات النواقيس ، وقَصُرَت قاماتُ المنائر ، ولهلك أرباب الطيالس والقلانس جوعا وسغباً ، ولأصبحت حبّات السُبح أكسدَ فى سوق الأديان من بعر الآرام ، فى سوق الأنعام ، ولو علم الابنُ أن أباه يحبه لمــا يرجوه من منفعته فى شيخوخته ، وانه انما يعجب بنفسه فى إعجابه به وثنائه عليــه ، ويفخرُ بقوة عقله وحسن تدبيره فى فخره بذكائه ونبوغه ،

لضَعُفت صلةُ الود بينه وبينه ، ولما كانت بين حلقات الانساب هذه الوشائجُ ، وتلك الأواصر ، ولو علمت الزوجةُ أن زوجها يحب منها جسمها أكثرَ مما يحب نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ، ويَعُدّ ليومها الساعاتِ والأيام ليستبدلَ بها خيراً منها ، لما وثقتْ بوده ، ولا اطمأنت لعهده ، ولما كان للمنازل سقوف تُظلّ الاسرّة والمهاد

زيد وعمرو

أراد داود باشا أحدُ وزراء تركيا فى العهد القديم أن يتعلمَ اللغة العربية فأحضرَ أحد علمائها وأخذ يتلقى عنه علومَها عهداً طويلا فكانت نتيجةُ علمه ماستراه

سأل شيخَه يوماً ما الذى جناه عَمْرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيدٌ كل يوم ويبرّح به هذا التبريح المؤلم؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلةَ من يضعُفُ عن الانتقام لنفسه، وضرْبِ ضاربه ضربةً تقضى عليه القضاء الأخير؟

سأل شيخه هذا السؤالَ وهو يتحرق غيظاً وحنقاً، ويضرب الأرض بقدميه فأجابه الشيخ ليس هناك ضاربٌ ولا مضروب يامولاى، وانما هى أمثلةٌ يأتى بها النحاة لتقريب

القواعدِ من أذهان المتعلمين ، فلم يعجبهُ هذا الجوابُ ، وأكبرَ أن يعجزَ مثلُ هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة فى هذه القضيةِ فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم أرسل إلى نحويّ آخر فسأله كما سأل الأولَ ، فأجابه بمثل جوابه فسجنه كذلك ، ثم مازال يأتي بهم واحداً بعد واحد حتى امتلأت السجونُ وأقفرت المدارسُ ، وأصبحت هذه القضيةُ المشئومة الشغلَ الشاغل له عن جميع قضايا الدولةِ ومصالحها ، ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد فأمر باحضارهم فحضروا ، وقد علموا قبل الوصول إليه ماذا يراد بهم ، وكان رئيسُ هؤلاء العلماء بمكانةٍ من الفضل والحِذْق والبصر بموارد الأُمور ومصادرها ، فلما اجتمعوا فى حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابه رئيسُ العلماء إن الجناية التى جناها عمرو يامولاى يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثرَ مما نال ، فانبسطتْ نفسُه قليلا وبرقت أساريرُ وجهه ، وأقبل على محدثه يسأله ماهى جنايته ؟ فقال له إنه هجم على اسم مولانا

الوزيرِ واغتصب منه الواو، فسلط النحويون عليه زيداً يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضولِه « يشير الى زيادة واو عَمْرو واسقاط الواو الثانية من داود » فأعجب الوزيرُ بهذا الجواب كل الاعجاب، وقال لرئيس العلماء أنت أعلمُ من أقلته الغبراء، وأظلته الخضراء، فاقترحْ عليّ ماتشاء، فلم يقترح عليه سوى إطلاقِ سبيل العلماء المسجونين فأمر باطلاقهم، وأنعم عليهم وعلى علماء بغدادَ بالجوائز والصِّلات

أحسن داودُ باشا فى الاولى وأساء فى الاخرى، ولو كنتُ مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهداً وثيقاً أن يتركوا هذه الأمثلةَ البالية الى أمثلة جديدة مستطرفة، تؤنس نفوسَ المتعلمين، وتذهب بوحشتهم، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوادثِ الدموية بين زيد وعَمرو، وخالد وبكر

لا ينال المتعلمُ حظه من العلم إلا إذا استطاع تطبيقه

على العمل والانتفاعَ به فى مواضعه ومواطنِه التى وضع لأجلها ، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلمُه من الأمثلةِ والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم ، وافتنّ له فى إيرادها افتناناً يقرّب الى ذهنه تلك الصلةَ بين العلم والعمل ، ويسهل له الوصولَ الى القدرة على تلك المطابقة ، وإن أكثر المتعلمين فى مدرسة الأزهر أبعدُ الناس عن القدرة على المطابقة لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثلِ الواحد لكل قاعدةٍ من قواعد العلم . فلو أنك أردت أَحَدَهم على أن يخرج فى المنطق عن الحيوانية والناطقية ، وفى النحو عن ضرب زيدٍ عمراً ، وقتل خالدٍ بكراً ، وفى البيان عن تشبيه زيدٍ بالبدر ، واستعارةِ الاظافر للمنية ، وفى الصرفِ عن فَعللَ وافعْوعل ، لوجدتَ فى نفسه من الجهد والمشقة وفى لسانه من العِيّ والحصر ما يحزنُك على أعوام طوالٍ قضاها بين المحابر والدفاتر ، ثم لم يحصل من بعدها على طائل

علامَ يتعلمُ الطالبُ النحوَ والصرف إن عجز عن أن يقرأ صحيحاً فى كل كتاب وكل صحيفة ، وعلام يتعلم علومَ البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام وأوجهِ بلاغته ، وفهمِ المراد من مختلفات أساليبه ، وعن الابانة عما يدور فى نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلقٌ ولا اضطراب ، وعلامَ يتعلم المنطق إن عجز عن التميز بين فاسد القضايا وصحيحها فى كل مايعرض عليه منها ، وان لم يكن الموضوعُ الانسانَ ، والمحمولُ الحيوانَ الناطق

عجيب جداً أن يفهم الصانع الأمىُّ أن العلم للعمل ، فلا يتعلم النجارةَ الا ليصنع الأبوابَ والصناديق ، ولا الحِدادة إلا ليصنعَ الأقفالَ والمفاتيح ، وأن يجهل المتعلمُ هذه القضية الضرورية ، فلا يهمه من العلم الا الاستكثارُ من المعلومات والقواعد ، وان عجز بعد ذلك عن التصرف فيها ، والانتفاع بها فى مواطنها

ما دامت مدرسةُ الأزهر على هـذه الحال من

أسلوب التعليم العقيم فليس بمقدورٍ لها فى مستقبل الايام أن ينبغَ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأُمة انتفاعَ أمثالِها بأمثالهم فى مشارق الارض ومغاربها ، فويلٌ للعلم من العلماء

ابو الشمقمق (١)

إن كثيراً من الفقراء لم تمتد يدُ الفقر الى رءوسهم ، كما امتدتْ الى جيوبهم ، فهم يُدركون كما يدركُ الاغنياء ، ويفهمون كما يفهمون ، وكما أن فى أغنياء الجيوب فقراءَ الرءوس ، كذلك فى فقراء الجيوب أغنياءُ الرءوس

ولقد جلستُ فى منزلى صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذهبيين الذين ملأ المالُ فراغَ أذهانهم حتى أنساهم كل شىء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك ، فأخذوا يتجاذبون أسلاكَ الاحاديثِ الذهبية ما بين تاجرٍ يعجب بصفقته الرابحة ، وزارعٍ يفخر بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ ، وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلاتِ وارتفاع الاسعار ، والكلُّ متفقون على أن السعادة التى أظلتهم أجنحتُها فى هذا العهد الأخير

(١) هو في الاصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر

عهدِ العدلِ والانصاف عهدِ الحرية والمساواة عهد الرقى والعُمران هى أشبهُ شىء بسعادة المتقين فى جنات النعيم

كل هـذا وأبو الشمقمق جالسٌ ناحية يخزر طرفه، ويهزُّ رأسَه، ويصعّدأنفاسه : ويمضغ أضراسَه، ويئن من أعماق قلبه أنيناً خفياً يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر: —

فيالك بحراً لم أجدْ فيه مشربا

على أن غيرى واجدٌ فيه مَسْبَحا

فما هو إلا أن قضوا لُباناتهم من الكلام المملول، والحديثِ المعاد، حتى قاموا يطـيرون مع الآمال، وراء الأموال، فأشرتُ إلى أبى الشمقمق أن يتخلف ففعل، فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنافيه؟ فأجاب : إنى أكره الفضولَ فى الحديث وقد فرق المقدارُ بينى وبينكم فى المال، فلا أشتركُ معكم فى المقال، فقلت : ألايعجبك ياأباالشمقمق حديثُ النهضة الحديثة التى نهضتها الامةُ المصرية فى عهدها الأخيرِ وأنت فردٌ من أفرادها ، وجزء من أجزاء

جسمها، فنهوضُها نهوضُك، وسقوطها سقوطك، والامة كما تعلم هي الفردُ المتكررِ، والواحدُ الدائر، فأنت الأمةُ والامة أنت، فقال والله لا أدري أتكلمني بلسان الصوفية؟ ولستُ بصوفي، أم بلغة الفلاسفة؟ ولا أفهم للفلسفة معنى، وكأنك تقصدُني بالفرد المتكرر، والواحدِ الدائر، فان كنت تريد أنني فردٌ متكرر كثيرُ الأشباه والأمثال في العوز والفاقة، وواحدٌ لا سند لي ولا عضد، ودائرٌ في مدارج الطرق ومعابر السبل، فقد أصبتَ وأحسنتَ، وإن كنت تريد معنى غير ذلك، فأنا لا أفهم إلا كذلك، فهل لك أن تعفيني من الجواب على هذه المعميات وتزنَ كلامك على مقدار عقلي، وتحدثني فيما يتناوله سمعي وبصري، فقلتُ أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف، ولا أريد إلا أن الامة ليست في الخارج شيئاً غير أفرادها، فاذا سعدَت أو شقيَت فالسعداء والاشقياء أبناؤها، وحسبك أن ترى تقدمَ الأمة المصرية في ثروتها وعمرانها، وبذخِها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها، فتسعدَ

بسعادتها، وتهنأ بهنائها، فقال إن لم تُبين لى سهمى من هذه السعادةِ، ونصيبى من ذلك الارتقاء، فلاأصدق سعادةً ولا أتصور ارتقاء، ومادمت أرى أن لى هُوِيّةً مستقلةعن هُوِيّة سواى من السعداء، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم، وبطناً لايمتلئ بما تمتلئ به بطونهم، وما دمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معى ردائى الممزق، وقميصى المخرق، ويقاسمنى همى، ويشاطرُنى فقرى، فهيهات أن أسعد بسعادتهم، وأسر بسرورهم، وهيهات أن أفهم معنى قولكِ أنت الأمة، والأمة أنت، فقلت إن الغيث اذا نزل يسقى الخصيبَ والجديب، والنجدَ والوهد، وينتظم من الارض الميت والحى، فقال كل سماء فيها هذا الغيثُ إلا سماء مصر، فانى أراه

كبدرٍ أضاء الأرضَ شرقا ومغرباً

ومو ضع رجلى منه أسودُ مظلم

مالى وللروض الذى لاأستنشقُ روحه وريحانه ،

والقصر الذى لا أَدخله مالكا ولا زائراً ، وهب أن الطرق مفروشةٌ بالحرير والديباج ، لا بالحصى والمدر ، فهل أبقى لى الدهرُ من حاسة اللمس شيئاً فأستطيعَ أن أميز بين خشن الملمس وناعمِه ومعوج الارض ومستقيمها . وهبنى إذا مشيتُ خضت فى بحر مائج بأنوار الكهرباء فهل يغنى ذلك عنى شيئاً ، وهل يكون نصيبى منه إلا انكشاف سوأتى ، ورثاثة حالتى ، لأعين الناظرين ، ولقد حُبب الى الظلامُ حتى تمنيت دوامه لألبسَ من ثوبه الطبيعى مايكفينى مؤونة الرتق والفتق والتمزيقِ والترقيع ، وبعد فما هو الارتقاء الذى تزعمه وتزعمُ أنه يعنينى ويشملنى ، هل ترقت غرائزُ الاحسان فى نفوس المحسنين ، وهل خفقت قلوبُ الأغنياء رحمة بالفقراء ، فقلت نعم ، أما ترى الأموالَ التى يتبرع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية والتى ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات ، فقال ان هذه التى تسميها مكارم ، لا يسميها أصحابُها إلا مغارم ، ألجأهم اليها التملقُ للكبراء ،

وحبُّ التقرب من الرؤساء والطمعُ في الزُّخْرُف الباطل ، والجاه الكاذب

مالى وللمدارس والمستشفيات ، وأنا جوعانُ خبز لا جُوعان علم ، ولا مرض عندى الا مرض الفاقة ، فهل أجدُ فى المدارس خبزاً أو فى المستشفيات دواء كذلك الدواء الذى وصفه أحدُ الاطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا إليه مرضاً فعرف سِرَّ مرضه ، فأعطاه عُلبةً وكتب على غطائها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقيرُ وفتحها وجد فيها عشرةَ دنانير

أنا رجل ضعيفُ البصر ضعيف القوّةِ كما ترى ، فلا قدرة لى على العمل ، وعندى صِبْية صغار ليس بينهم من يستطيع عملا ، أو يحسن صُنْعاً ، ولقد كان لى فى الزمن الذى تذمونه ، والعهد الذى تنقمون عليه ، منفسحٌ عظيم فى منازل المحسنين ، وموردٌ نمير من صدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين ، أما اليوم

فاني أبيتُ طاوياً وأُصبح شاكياً ، وأغدو راجياً ، وأروحُ يائساً

وهنا أرسل من جفنيه دمعةً ليست بأول دمعة أرسلها على ردائه ولكنها أحرُّ من سابقاتها ، لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة

ثم نهض ومد يدَه إلى مودعا فمسحتُ بيميني دمعة واحدة من دموعه الكثيرات

دورة الفلك (١)

أيها القصرُ : أين الكوكبُ الزاهرُ الذى كان يتنقل فى أبراجك ، أين النّسرُ الطائر الذى كان يحلّق فى أجوائك ، أين الملكِ القادر الذى كان يطلعُ شمساً فى صباحك ، وبدراً فى مسائك ؟ ؟

أين الأعلامُ والبنودُ تخفق فى شرفاتك ، والقوادُ والجنودُ تخطِر فى عرصاتك ، أين الشفاه التى كانت تلثمُ ترابَك ، والأفواه التى كانت تقبل أعتابك ، والرءوسُ التى كانت تطرق لهيبتك ، والقلوبُ التى كانت تخفق لروعتك؟؟

أين الصوتُ الذى كان يجَلجل فيقرع أذن الجوزاء ، ويَهدِر فتتلفت عيون السماء ؟. أين الفلك الذى كان يدور بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والابرام والنقض ؟ ؟

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا

كيف استطاع الدهرُ أن يمدَّ يدَه الى شملك فيبددَه ، وجمعِك فيفرقه ، وسمائِك فيكوِّرَ شموسَها ، وأرضِك فيزعجَ أنيسَها ؟

أين كانتْ أسوارُك وأبوابُك ، وحراسُك وحجّابُك ، وكيف عجزتَ أن تمتنعَ على القضاء ، وتصدَّ عن نفسك عاديةَ البلاء ؟

ولم أر مثلَ القصرِ إذ ريع سربُه
وإذ ذُعِرتْ أطلاؤه وجآذرُه
تحمل عنه ساكنوه وهُتِكَتْ
على عجلٍ أستارُه وستائرُه

أيها السجنُ : حل بارجائك اليوم ملكٌ تضيق به الدنيا فكيف وسعِته ، وتعجزُ عن احتماله قُللُ الجبالِ الرواسى فكيف احتملتَه ؛

رفقاً به لا تزعِجه ، ولا تُحرِجْ صدرَه وضمَّ جانحتيك

عليه كما تُضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطفْ عليه عطفَ المرضعاتِ على الرضيع ، وارحمْ هذا الجلالَ الذاهبَ ،والعزَّ الزائل ، والرأسَ الذى بيضتْه حوادثُ الدهور ، والظهرَ الذى قوستْه أيدى المقدور

أيها الدهر : ألا تستطيعُ أن تنامَ عن الانسان لحظةً واحدة ؟ ألا تستطيعُ أن تسقيَه كأسَ السرور خالصةً لا يمازجُها كدر ، ولا يشوبُها عناء ؟

إن كنتَ تريدُ أن تسلبَه فلم أعطيتَه ، وإن كنتَ تريدُ أن تُعطِيَه فلم سلبتَه ؟ كان خيراً له أن لا تعطيَه حتى لا تَفجعَه فى تلك العطية ، وأن لا تَسقيَه كأسَ السرور ، حتى لا يتجرعَ ذلك السمَّ الذى أودعتَه تلك الكأس

أيها الراحلُ المودع : كان ارتفاعُك عظيما فوجب أن يكونَ سقوطُك عظيما

إنك ذقتَ حلاوةَ الحياةِ خالصة ، فلما ذُقتَ مرارتَها جزعتَ وقطبت ، كما يجزعُ ويُقطِّب كلٌّ من ذاق من

الشرابِ مالا عهدَ له به ، ولا قِبَلَ له باحتماله

لا تأسَ على ما فاتك فإنما كان وديعةً من ودائع الدهر أعاركها بُرهةً من الزمان ثم استردّها

إنك لا تدرى لعل اللهَ أراد بك خيراً فمنحك قبلَ حلولِ أجلك فُرصةً من الزمان تخلو فيها بنفسك ، وتراجعُ فيها فهرسَ أعمالك ، فان رأيتَ خيراً اغتبطْتَ ، أو شراً استغفرت

قضى اللهُ أن يقيمَ فى كل حين لهذا العالمِ الغافلِ عبرةً من العِبَر تزعِجه من رَقْدتِه ، وتوقِظه من غفلتِه ، فكنتَ أنت عبرةَ هذا الدهرِ وموعظتَه

مَن بات بعدكَ فى مُلْكٍ يُسَرُّ به
فإنما بات بالأحلام مغروراً

تأبين فولتير (١)

في مثل هذا اليوم، منذ مائة عام، مات الرجل العظيم، مات الرجل الخالد، مات فولتير.

ما مات فولتير حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال، وأثقال جلائل الأعمال، وأثقال الأمانة العظمى التي عرضت على السموات والارض فأبين أن يحملنها، فحملها وحده، وهي تهذيب السريرة الانسانية فهذبها فاستنارت فاستقام أمرها.

مات فولتير مرذولا محبوبا في آن واحد، يبغضه الحاضر لأنه يجهله، ويحبه المستقبل لأنه عرفه.

إن في هاتين العاطفتين، البغض والحب، سرا عظيما

---

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها فكتور هيجو في باريس في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته مع بعض تصرف

من أسرار المجدِ العظيمِ، لذلك الرجلِ العظيم

كان وهو على سرير الموت محفوفا بعاطفتَين مختلفتَين شكلا، متفقتَين معنىً، لانهما جميعاً فى سبيل مَجْدِه وفَخَاره، كان ينظرُ أمامه، فيسرُّه منظرُ التبجيلِ والتعظيم من مستقبله، ويلتفتُ وراءه فيطربُه مشهدُ البغض والازدراء والحقدِ الذى يضمرُه الماضى فى صدره لأولئك الرجالِ البواسلِ الذين حاربوه فانتصروا عليه

كان فولتيرُ رجلا وأكبرَ من رجل، كان وحده أمةً كاملةً، إنه عاهد نفسَه على إنجاز عملٍ عظيمٍ فأنجزه ولم يُخلِفْ وعدَه، وكأنّ الإرادةَ الالهيةَ المتجليةَ فى الشرائع، تجليَها فى الطبائع، نثرتْ كنانةَ هذا المجتمعِ الانسانى، وعَجَمَتْ عيدانه، فوجدتْ فولتيرَ أصلبَها عوداً، فاختارته للقيام بالعملِ الذى قام به فأتمّه

إننا أتينا هنا لفصل الخطابِ فى المسئلة الاجتماعيةِ الكبرى، جئنا لِنرفعَ شأنَ المدنية، ونُكرِمَ الفلسفةَ إكراما

ينفعُها ويفيدُها ، جئنا لنتلوَ على القرن الثامن عشر رأىَ القرن التاسع عشر فيه ، جئنا لِنكرمَ المجاهدين ، والعاملين المخلصين ، اجتمعْنا لنمهدَ الطريقَ للوَحدةِ الانسانيةِ التى يسعى اليها العلماء والعاملون ، والكتابُ المجدُّون ، وجملة القول أننا ما اجتمعْنا هنا إلا لنمجّدَ العاطفةَ الشريفةَ السامية ، عاطفةَ السلامِ العام

إنا نُمَجّدُ السلامَ حباً فى المدنية ، وحِرصاً على جمالها ورَونقِها ، فالسلامُ فضيلةُ المدنيّةِ ، والحربُ رذيلتُها

نحنُ فى هذه الساعةِ العظيمةِ ، فى هـذا الموقِفِ الرهيبِ ، نجثُو على الركب ، ونعفرُ جباهَنا بين يدَى الشريعةِ الأدبية ، ونقولُ للعالم الذى ينصتُ لسماع صوتِ فرنسا « لاقوةَ إلا قوةُ الضميرِ ، ولا مجدَ إلا مجدُ الذكاء » هذا فى سبيلِ العدلِ ، وهذا فى سبيلِ الحق

لقد كان شأنُ المجتمعِ الانسانى قبل الثورةِ الفرنسيةِ على هـذا المثالِ ، الشعبُ فى المنزلةِ الدُّنيا ، وفوقَ

الشعبِ الدِّينُ والقضاء ، هذا يُمَثِّلُه القُضَاةُ ، وذاكَ يمثلهُ « الاكليروس »

أتدرون كيف كان الشعبُ ، وكيف كان الدين، وكيف كان القضاء فى ذلك العهد ؟ كان الشعبُ جهلاً ، والدينُ رياءً، والقضاء ظلماً

إن كنتُم فى شك مما أقولُ فإنى أقصُّ عليكم حادثتَين من حوادث ذلك التاريخِ أرى فيهما غِنَاء ومقتنعَاً

فى ١٣ اكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شابٌّ مصلوبا فى الطبقةِ الأرضية من بيتٍ فى مدينة « طولوز » فهاج الشعبُ ولغط « الاكليروس » وبحث القضاةُ ، فكانت النتيجةُ أن كان الشابُّ منتحراً ، فسمى قتيلا ، وكان والدُه بريئاً ، فسمى قاتلا

هكذا أراد الدينُ وأرادت مصلحتُه أن يهلكَ والدُ الفتى لانه كان بروتستانياً ، ولانه كان يمنع فتاه أن يتدينَ بالكثلكة ، إنها لجناية عظيمةٌ جداً ، ينكرها الدينُ ، ويحيلها

العقلُ ، ولكن هان عليهم أمرُها ، ولم يَحفِلوا بالشريعتَين شريعةِ القلب ، وشريعةِ العقل ، فحكموا أن الشيخَ الكبيرَ قتل ولدَه الصغير

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجةُ فاستمعوها

فى شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق إلى المَيدان العامّ شيخٌ أبيضُ الشعرِ هو « جان كالاس » ثم جُرِّد من ثيابه وطُرِح على دولاب العذابِ وشُدّتْ إليه أطرافُه وترك رأسُه متدلياً

ثلاثةُ رجالٍ تلوثت أيديهم بدم القتيل ، كاهنٌ يحملُ الصليب ، وجلادٌ يحملُ القضيب ، وقاضٍ يحملُ فى صدره عهدَ القوم اليه بالتنكيل والتعذيب

لم يكن الشيخُ المِسكينُ وقد شقّ الخوفُ مرارتَه ، وتمشى قلبُه فى صدره ، لينظرَ الى الصليب فى يد الكاهن ، بل إلى القضيب فى يد الجلاد

رفع الجلاد القضيبَ ، وضرب ذراعَ الشيخ ضربةً قاسيةً صاح على أثرها صيحةً مؤلمة ثم أغمى عليه ، فتقدم

القاضى الرحيمُ ، وأمر له بالمنبهات فانتعش ، فضربه الجلادُ الضربةَ الاخرى فوق الذراعِ الآخر ، فعاد إلى صرخته وإغمائه ، فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه ، وهكذا حتى تم لكل ذراعٍ من ذراعَيه ضربتان وصدعتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثمانىَ مرات

فى الاغماء الثامنِ بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهنُ ومد اليه الصليبَ ليقبلَه فحول وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوةُ الدينية من نفوس المتدينين ، فأقبل الجلادُ وسدد إلى صدره الطّرَفَ الغليظَ من القضيب الحديدِ وضربه ضربةً ألصقت صدرَه بظهره فكانت القاضية

على هذه الصورة مات « جان كالاس »

وماهى إلا أيامٌ قلائلُ حتى عرف الناسُ أن الفتى مات منتحراً لامقتولا ، فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفذ فيه سهمُ القضاء ، وماذا يَعنيه بعد الموت أمات ظالما أم مظلوماً

أما الحادثة الأخرى فهى عبرةُ الشباب، كما كانت الأولى موعظةَ الشيخوخة

بعد مضىّ ثلاثِ سنواتٍ من تاريخ الحادثةِ الأولى، وجدوا فى « ايفيل » فى ليلة عاصفةٍ صليباً أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه مُطرَّحاً فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثةَ قرون

مَنْ ألقى به من أعلى السوُّو ؟ من أهانه ؛ من ذا الذى دنس هـذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذى أجرم هـذ الجرمَ العظيم

ربما عصفتْ به ريحٌ ، أو عبث به عابرُ طريق ، أو هوى به ضعفُ الشيخوخةِ وإعياء الهرم ، لالا ، كلُّ ذلك لم يكن ، لأن الدين أبى إلا أن يوجد مجرماً ، هنا لك أعلن مطرانُ « اميان » براءةً من غفرانُ الله ورحمتِه لكل مؤمن علم أو ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه

إن الحرمانَ فى الكثلكة جريمةٌ هائلةٌ فظيعةٌ قاتلةٌ متى أوحى

به التعصبُ الذميم ، الى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمانُ سبباً فى أن القضاء عرَف أو ظن أنه عرف أن ضابطَين اسمُ أحدِهما (لابار) والآخرِ (ديتالون) مرَّا على جسر « ايفيل » فى تلك الليلة المشئومةِ يترنحان سُكْراً، وينشدان نشيداً عسكريا ، مرَّا بالجسر وأنشدا النشيد، فهما المجرمان، وكانت المحكمة مَقدَس « ايفيل » ولم تكن بأقلَّ عدلا وإنصافاً من مجلس « الكابيتول » فى « طولوز » فأمرت بالقبض على الرجلَين ، فاختفى ديتالونُ ، وقُبِض على لابار وأُسلِم الى القضاء ، فاعترف بالنشيد وأنكر المرورَ على الجسر ، فحكمت عليه محكمةُ ايفيل بالاعدام ، وأيد حكمَها برلمان باريس فدنت الساعةُ المخيفةُ الهائلة

لقد تفننوا فى تعذيبِ لابارَ وإرهاقِه ليكشفوا عن سر فَعلتِه ، وعن شركائه فى جريمته ، أى جريمة المرورِ على الجسر وإنشادِ النشيد

لقد عذبوه عذاباً أليما ، حتى أن الكاهنَ الذى جِىء به

ليسمعَ اعترافَه أُغمى عليه حينما سمع قرقعةَ عظامِ رُكبتَيه

مضى هذا اليومُ وجاء اليومُ الثانى وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجىء بالشاب المظلومِ الى ساحة « ايفيل » الكبرى حيث تَشتعِلُ نارُ العذاب وتضطرمُ اضطراماً، فأسمعوه نصَّ الحكمِ، ثم بتروا يدَه، ثم استلوا لسانَه بقابضٍ من الحديد فاستأصلوه، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسَه وألقوا بها فى النار

على هذه الصورةِ مات « الشيفاليه دى لابار » كما مات من قبله « جان لا كاس »

أحزنك هذا المنظرُ يافولتير، وآلمَ نفسَك، وملك عليك عواطفَك وشعورَك، فصِحتَ صيحةَ الرُّعب والفزع، فكانت تلك الصيحةُ الحجرَ الأولَ فى بناء مجدِك الخالدِ العظيم

هنالك انبعثتْ نفسُك الى النزول فى مَيْدان المجتمعِ الانسانى لتكفَّ عاديةَ الظالمين، وتُقلّمَ أظفارَ الوحوشِ

الضاريةِ ، وجلست فى مِنصةِ القضاء لِتحاكَم الماضى على جرائمه ، وتنتصفَ منه للمستقبل ، فانتصفتَ وانتصرتَ ، وكنت من المحسنين

فيأيها الرجلُ العظيم ! طبتَ حياً وميتاً

حدثتْ تلك الحوادثُ التى ذكرتُها على مشهدٍ من المجتمع المهذّبِ الراقى ، وفى حياةٍ حافلةٍ بالسعادة مغتبطة بالهناءة يغدو اليها الانسانُ لاهياً ، ويروح ساهياً ، لا يرفعُ رأسه فيعلمَ ما فوقَه ، ولا يَخفِضُها فيرى ما تحته

حدث ذلك وأيامُ البلاطِ أعياد و « فرسايل » تتلألأُ حُسناً وبهاءً ، ورَونقاً وماءً ، وظرفاء الشعراء أمثال « سان اولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل الرقيقِ والوصفِ الجميل

حدث ذلك وباريسُ تتجاهل ما يَجرِى حولها ، فاستطاع القضاء الظالمُ بمعونة القَسوةِ الدينية أن يُمثِّلَ بالشيخ ذلك التمثيلَ الفظيعَ بذلك القضيبِ الحديدِ ، وأن

يستلُّ لسانَ الفتى لأنه أنشد الأناشيد

كان المجتمعُ فى ذلك التاريخ مؤلفاً من قُوًى عظيمةٍ هائلةٍ، قُوّةِ البلاط، وقوّةِ الاشراف، وقوةِ المال، وقوةِ الشعبِ المائج المتدفع، وقوة الحكومةِ التى كانت أسداً على الرعية، ونَعامةً بين يدَى الملك، تجثو أمامَه خاضعةً صاغرةً، إلا أن جُثيَّها كان علَى جُثَّةِ الشعب، وقوةِ «الاكليروس» المؤلفِ من الرياء الكاذب، والتعصبِ الأعمى

تقدم فولتيرُ وحدَه وأثار حَرْباً عَواناً على هذا العالم المؤلفِ من تلك القُوى المختلفة ولم يره أكبرَ من أن ينخذلَ، ولم ير نفسه أصغرَ من أن ينتصر

أتدرى ما كان سلاحُه؟ ما كان له سلاحٌ غيرَ تلك الاداةِ التى تجارى العاصفةَ فى هبوبها، وتسبقُ الصاعقةَ فى انقضاضها، ما كان له سلاحٌ غيرَ القلم، فبِالبقلمِ حاربَ وبالقلمِ انتصر

انتصر فولتير، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة، فولتير أدار وحده رحى تلك الحرب الهائلة، حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، والعقل والهوى، والصلاح والفساد، فتم على يديه الغلب للخير على الشر، وفاز فوزاً مبيناً

كان فولتير قلباً وعقلاً، كان له رقة الفتاة في غلالتها(١)، وشدة الأسد في لبدته

فولتير محا الخرافات الدينية، والعادات الفاسدة، وأرغم أنف الكبرياء، وأذل عز الرؤساء، ورفع السوقي الى حيث لا يصل اليه ظلم القاضي ولا تنظع الكاهن

علم ومدن وهذب ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس فلم تنكسر سورته، ولم تفتر عزيمته، بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية، والغضب بالاستخفاف، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة

(١) الغلالة شعار يلبس تحت الثوب

أقفُ هنا قليلا إجلالا لابتسامة فولتير

فولتيرُ هو الابتسامةُ ، والابتسامةُ هي فولتير

أفضلُ مزايا الرجل الحكيمِ أن يملك نفسَه عند الغضب ، وكذلك كان فولتير

كان عقلُه ميزانَ أعماله ، فما غلبه حتى الغضب للحق

كنت تراه عابساً مقطباً ، فما هى إلا كرّةُ الطرْفِ أن ترى فولتيرَ الضاحكَ المبتسمَ فى مكان فولتيرَ العابس المقطب

يكاد يكون ابتسامُه ضحِكا ، لولا حزنُ الحكيم وهمُّ العاقل

كانت ابتسامتُه كبارقة السيف ، يُرتاع لها الأعداء ، ويرتاحُ لها الأولياء

كان يبتسِمُ للقوىّ فيَخجلُه بتهكمه واستخفافِه ، وللضعيف فيسرُّه بتحننه وانعطافه

فلنمجدْ تلك الابتسامةَ التى كانت أشعتُها كأشعة الفجر ، تمحو الظلامَ وتبعث الأنوار

نِعْمَ الابتسامُ ابتسامٌ أنار الطريقَ للعدل والحقّ والصلاح، وبدد ظلماتِ التقليد

إن ابتسامةَ فولتيرَ أنشأتْ هذه الهيئةَ الاجتماعية وزيّنتْها بالأخاء والمودةِ، والحريةِ والمساواة، فنال العقلُ منزلته من الاجلال والاعظام، سواء أسكن القصرَ الكبيرَ، أم الكوخَ الحقير، ولبس المعلمُ تاجَ الملِك، فتصرف فى العقائد الباطلة، والعاداتِ الفاسدة، والخُرافاتِ الدينية، تصرّفَ الحاكمِ القدير، ونشر السلامُ أجنحته البيضاء على المجتمع الانسانى ففرّت السيوفُ فى الاغماد، وهدأت الدماء فى العروق، والأرواحُ فى الاجسام، كلُّ ذلك بفضل ابتسامةِ فولتير، ولَسوف يأتى ذلك اليومُ العظيمُ يومُ الرحمةِ بالضعفاء، والعفو عن الخاطئين، فيبتسمُ فولتيرُ فى السماء ابتسامةً تتلألأ بين لَألاء النجوم

فلنمجدا بتسامةَ فولتيرَ كلَّ التمجيدِ، ولْنُكْبِرْها كلَّ الاكبار

هل كان فولتيرُ يحلم دائما فلا يستخف حلمَه الغضب ؟

كلا ، بل كان يغضَبُ أحيانا فى سبيل الحق

إن التوسطَ وحفظَ الموازنةِ بين الأخلاق هو القانونُ العقلى للانسان ، حتى لا تَهبطَ به كفّةٌ وتعلوبه أُخرى، وحتى لا يَهلِكَ بين عاطفتَى الحبّ والبغض ، وإن الفلسفةَ هى الاعتدالُ وَامتلاكُ أزِمّة النفسِ فى جميع مواقفِها ومذاهبِها، الا أن حبَّ الحق يجبُ أن يكون دائما فى مرْتبة الغلو حتى تهُبَّ عاصفتُه قويةً هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها

يعيشُ المرء بين سعادتَين من حاضره ومستقبله ، أما الأولى فيكفلُها العدلُ ، وأما الثانيةُ فيحرُسُها الأملُ ، لذلك يُحِبُّ الناسُ القاضىَ العادلَ ، والكاهنَ الصالح : لأن الأولَ صورةُ العدل ، والثانىَ مثالُ الرجاء ، فاذا انقلب العدلُ ظلماً ، والأملُ بأساً ، عافهما الإنسانُ ولوى وجهَه عنهما ، وقال للقاضى « لا أُحِبُّ قانونَك »

وللكاهن « لا أُومِنُ بك » وهنا يهبّ الفيلسوفُ الغيورُ غاضباً فيُحاكِمُ القضاءَ أمام العدل ، والكهنوتَ أمام الله ، وكذلك فعل فولتيرُ فكان من المحسنين

إن الرجلَ العظيمَ لا يظهرُ في المجتمعِ وحيداً إلا قليلا ، وكلما كثُر العظماء حوله ارتفع شأنُه وعلا ذكرُه ، فهو كالشجرةِ الباسقةِ تكونُ في الغابة الشجْراء أطولَ منها في التُّربة الجرداء ، لأنها تكونُ بين لِداتها وأترابِها وكان فولتيرُ في غابة من العقول الكبيرة ، روسو وديدرو وبوفون وبومارشه ومونتسكيو ، أولئك القومُ المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناسَ النظرَ في حقائقِ الاشياء ، والتفكرَ الصحيحَ الموصلَ الى إتقانِ الاعمال ، وعلموهم أن صلاحَ القلب أثرٌ من آثار صلاحِ العقل ، فأجادوا وأفادوا

مات أولئك القومُ العظام ، وهوتْ من أُفقها كواكبُهم ، ولقد كانوا في حياتهم جسداً ورُوحا ، أما الجسدُ فقد طواه القبرُ ، وأما الرُّوحُ فهي الثورةُ التي تركوها من بعدهم

أجَلْ ، إن الثورةَ رُوحُهم ، والمظهر الساطع المتلألىء بحكمتهم ومبادئهم

هم فى الحقيقة أبطالُ الثورةِ المقدَّسةِ التى هى خاتمةُ الماضى وفاتحةُ المستقبل

إنك تراهم بعين بصيرَتِك فى كلّ مواقفِها ووقائعها ، وإذا استطعتَ أن تنفذَ بعين بصيرتك فى بواطن الأشياء رأيتَ على نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفاً وراء دانتونَ ، ورُسو وراء روبسبير ، وفولتيرَ وراء ميرا ، ووجدتَ أن أبطال الثورة ، صنيعةُ أبطالِ الفلسفة [1]

إن الكلمةَ الاخيرةَ التى أنطِقُ بها فى هذا الموقفِ العظيمِ هى دعاء المجتمعِ البشرى إلى التقدم بهدوء وسكون ، وثباتٍ ووقار

لقد وجد الحقُّ ضالَّتَه التى كان ينشدُها ، وهى الاخاء الانسانى ، والتعارفُ النفسى ، فمن العبثِ أن تشغَلَ القوةُ

(١) دانتون وروبسبير وميرابو أبطال الثورة الفرنساوية

بعد ذلك مكانا فى هذا المجتمع ، فان فعلتْ كان أليقُ الاسماء بها اسمَ الاستبداد

ان المجتمعَ الانسانى أنكر على القوةِ حقَّها المزعوم، وضاق صدرُه بجرائمها وآثامِها ، فقاضاها بين يدى الحق ، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه ، فقضى له عليها ، وقل جاء الحقّ وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا

شفَّ ثوبُ الرياء عما تحته ، وظهرت الحقيقةُ بيضاءَ ناصعةً لا غُبارَ عليها ، فأصبح الأبطالُ والمجرمون فى نظر الانسانيةِ سواء ، لأنهم جميعاً يسفكون الدماء

هدم التمدينُ تلك القاعدةَ الفاسدة ، وهى أن الجرم العظيمَ أصغرُ من الجرم الصغير ،فأدرك الانسانُ أنّ قَتْلَ الشعوب أكبرُ إثماً وأعظمُ جريرةً من قتل الأفراد ، واستكبر أن يعتبرَ الحرب مجداً ، وهو يعتبر السرقةَ عاراً، وبالجملة عرف أن الجريمةَ جريمةٌ حيثما حلّتْ ،وفى أىّ مظهرٍ ظهرتْ ، وأن القاتلَ لا يغنى عنه من الله شيئاً أن يسمّى

القيصرَ ، أو يدعى الأمبراطور ، ولا يخفى على الله من أمره شىء ، سواء ألبس تاجَ الملك ، أم قَلَنْسُوَةَ الإعدام

فلنصرحْ بالحقيقة المقررةِ الثابتة ، ولنحتقرْ الحربَ أشدَّ الاحتقار

إن الحربَ المباركة لا أثرَ لها فى الوجود

إن منظرَ الدماء والأشلاء أفظعُ منظر

لا يعقل أن يكونَ الشرُّ طريقَ الخير ، وأن يكون الموتُ وظيفةَ الحياة

أيتها الأمهاتُ الجالساتُ حولى : خَفِّفْنَ من أحزانكنّ فقد أوشكتْ يدُ الحرب أن تكُفَّ عن اختلاس أفلاذِ أكبادِكنّ

أتشقى المرأةُ فتلدَ ، ويغرسُ الزراعُ فيكسوَ الارضَ بساطَها الأخضر ، ويجدُّ العاملُ فيملأ الخزائنَ فضةً وذهباً ؟ ويأتى الصانعُ بعجائب المصنوعات ، وغرائبِ المدهشات ، حتى إذا أخذت الأرضُ زُخْرُفَها ، وفاخرت السماءَ بنُجومها

وكوا كبها، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحةَ القتال؟

آه إننا لانستطيعُ مع الأسف أن نخدعَ أنفسنَا ،
وننكرَ أن الساعةَ التى نحن فيها تشتملُ على بضع دقائقَ
محزنةٍ تكدرُ صفوَها ، وتنتقصُ من سرورها

لاتزال فى مِرآة السماء الصافيةِ سحابةٌ سوداء
إن الشعبَ لم يقض كلَّ أرَبِه من السعادة، لأن الحربَ
لاتزال باقية؟

فلنذكرْ عند ذكر ملوكِ الحرب فولتيرَ وجان جاك
وديدرو ومونتسكيو ملوكَ السلام ، ولنوجهْ وجوهَنا
إلى تلك الرُّوح العالية ، إلى تلك الحياةِ العظيمة ، إلى ذلك
الدفينِ المقدس ، إلى فولتيرَ ، ولنجثُ أمام قبره ضارعين
متوسلين، عسى أن يمدَّنا برُوحٍ من عنده، ويهدَينا الى حظيرة
السلامِ المقدسة ، فانه وإن مرَّ قرنٌ على موته لم يزلْ
فى الاحياء الخالدين

لنقفْ فى طريق الدماء المتدفقةِ لنقولَ للسفاكين

بصوتٍ عالٍ ، كفى كفى ، إنها همجيّةٌ ، إنها وحشيّة ، إنها تشوِّهُ وجهَ المدنيةِ الجميلَ

إن أسلافنَا من الفلاسفة هم رُسُلُ الحقِّ إلى البشر ، فلنضرعْ اليهم فى تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنةَ قبل وقوعها ، وينادوا إن الحياةَ ملك الانسان ، وعزيزٌ عليه أن تُسلَبَ منه ، وأن التمتعَ بالحرية حقٌّ من حقوق العقولِ والافكار ، فلا يعترضْ سبيلَها معترض

إن النُّورَ لاأثر له بين أضواء القصور ، فَلنطلبْه بين ظلماتِ القبور

العلماء والجهلاء

لاتحسبنّ أن الفلسفةَ الاصطلاحيةَ مطلبٌ من المطالب التى لاترام ، أو أن بين من نُسمّيهم العلماءَ ومن نُسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذى يتصوره الناسُ عند مايريدون التفريقَ بينهما ، وإنزالَهما منازلَهما ، فالعلماءَ والجهلاء إن دققتَ النظرَ سواء ، لافرق بينهما إلا أن هؤلاء يَعلمون المعلوماتِ منظمة ، وأولئك يعلمونها مبعثرةً ، وأن هؤلاء يُحسنون البيانَ عنها ، وأولئك لايبينون

ومن نظر إلى الاشياء نظراً ثاقباً نافذاً وجد أن المعانىَ الصحيحةَ ، والقضايا الكَوْنيةَ المتعلقةَ بالخير والشرّ ، والنفعِ والضرّ ، والمسائلَ المنوطة بالانسان فى حياتَيه الماديةِ والمعنويةِ ،

يشترك في العلم بها الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم ، كبارهم وصغارهم ، من نشأ منهم تحت سقوف الجامعات ، ومن عاش تحت سقوف السموات ، لأن العلم ينبوع يفور من الداخل ، لا سيل يتدفق من الخارج ، ولأن المعلومات كامنة في النفوس كمون النار في الزند ، والقوة في المادة ، وما وظيفة العلم إلا استثارتها من مكامنها ، وبعثها من مراقدها

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم ، وآية فضلهم ، إلا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب ، ولا قضية من قضايا الأخلاق ، التي نعدها من ذخائر الأسفار ، ونفائس الأعلاق ، إلا وهي ملقاة تحت أقدام العامة ، ومذالة بين أيدي الغوغاء والأميين

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة

لما خُيل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، أو معنًى غريباً

وليستْ هذه الغبطةُ التى نراها تَعلَقُ بنفوسهم عند مايتلقوْن أحاديثَ الخاصةِ من أجل أنهم علموا مالم يكونوا يعلمون ، أو أدركوا مالا عهدَ لهم به من قَبل ، بل لأنّهم ظَفِروا بمن يُترجمُ عن أفكارهم ، ويَجمع لهم شتات المعانى المبعثرةِ فى أنحاء أَدمغتهم ، ولأنهم وَجدُوا فى أنفسهم لذةَ الأنسِ بأفكارٍ تشابهُ أَفكارَهم،وآراء تشاكلُ آراءهم

ولا أخشى بأساً إن قلتُ إن علمَ العامةِ أفضلُ من علم الخاصة،لأنه أوّلاً عِلمٌ خالصٌ من شائبة التكلُّفِ والتعمّل ،حتى أنك لتجدُ فى بعض الأحايينِ بين معلومات الخاصةِ ومذاهبِهم وآرائهم مايضحكُ الثّكلى لغرابته وشذوذِه،ومايترفع أضيق العامة ذهناً وأضعفهم فهماً أن يجعلَ له شأناً ، أو يقيمَ له وزناً،وثانياً لأنه يعلقُ بالنفس ويتغلغلُ بين أطوائها تغلغلاً تظهرُ آثارُه على الجوارح ، وكثيراً ماتجدُ بين الجهلاء من تعجبُك

استقامته ، وبين العلماء من يدهشُك اعوجاجه ، وإن كان صحيحاً ما يقولون من أن العلم ما ينتفعُ به صاحبه ، فكثير من الجهلاء ، أعلمُ من كثيرٍ من العلماء

فلا تبالغْ فى تقدير فلسفةِ الفلاسفةِ وعلمِ العلماء ، ولا تنظرْ اليهم نظراً يملأ قلبَك رهبةً وروْعةً ، ولا تَغْلُ فى احتقار الجهلاء ، وازدراء العامةِ والدهماء ، ولا تكن ممن يقضون حياتَهم أسرى العناوينِ وعبيدَ الالقاب

إن فى اختفاء الحقائقِ الكونيةِ وتنكّرِها ، وضلالِ هذا العالمِ فى مذاهبه ومراميه ، وتفرقِه مذاهبَ وشيعاً ، وركوبِ كلّ فريق رأسه ، وهيامِه على وجهه ، ووقوفِ طلابِ الحقيقة فى كل دهرٍ وعصرٍ فى مفارق الطرقِ ورؤوسِ المسالك حيارى ينشدون فلا يجدون ، ويجدّون فلا يصلون ، لدليلا على أن الفلاسفةَ والحكماء والعلماء كلماتٌ غير مفهومات ، وأسماءٌ بلا مُسمّيات ، وأن حقائقَ الاشياء وأسرارَ الكائناتِ قد استأثر اللهُ بعلمها

واحتجبها من دون عباده ، ولم يمنحهم منها إلاّ بلّةً تزيدُهم وجداً كلما وجدوا بردَها ، وتملأُ قلوبَهم شوقاً كلما تذوّقُوا طعمها :

ضريبُك فى بنى الدنيا كثيرٌ
وعزَّ اللهُ ربُّك من ضريب
وما العلماءُ والجهلاءُ إلا
قريبٌ حينَ تنظرُ من قريب

الرجل والمرأة

سيدى المحترم :

لاتعجبْ إن رأيتَ إعجابى بك ظاهراً فى كل سطرِ من سطورِ كتابى هذا، فانما أنا أنطِقُ بلسان كثيرٍ من العقلاء الذين يُحِبونَك حُباً جمًّا ويعتقدون أنك فريدٌ فى أدبك، فريدٌ فى قلمك، فريدٌ فى تسامحك وتساهُلِك، لذلك أردنا أن نوجهَ إليك السؤالَ الآتىَ راجين منك الإجابةَ عليه :ـ

لماذا نرى الهيئةَ الاجتماعيةَ تحكمُ على المرأة الفاسقةِ حكماً صارماً فتنبذَها وتحتقرَها، ولا تحكمُ على الرجل الفاسقِ مع أن جريمَتَهما واحدة ؟

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه والسلام م

(سائل)

يعتقدُ كثيرٌ من الناس أن الرجلَ والمرأةَ سواءٌ

فى الذكاء والعقلِ ، وعندى أنهم أصابوا فى الأول، وأخطأوا فى الأخرى

تستطيعُ المرأةُ أن تجارىَ الرجلَ فى سرعة الفهم، وحضورِ البديهة ، ولا تستطيعُ أن تجاريَه فى الاناة والرفقِ ، وامتلاكَ هوى النفس ، والأخذِ بفضيلة الصبرِ على ماتكرهُ وعما تحب

تستطيعُ المرأةُ أن تدرِكَ مايُدرِكُه الرجلُ من الشؤونِ والاطوار ، وأن تستخرجَ كما يستخرجُ المجهولاتِ من المعلومات، ولكنها لاتستطيعُ أن تنتفعَ بمعلوماتها كما ينتفع، لأن بين جنبيها نفساً غيرَ نفسه. وهوًى غيرَ هواه ، ولأن لها قلباً صغيراً لايقوى على احتمال مايحتمله عقلهُ الكبير

يمشى الرجلُ وراء عقله فيهديه ، وتمشى المرأة وراء قلبها فيضلها ، فما وقفتْ معه فى موقفٍ إلا سقطتْ بين يديه عجزاً وضعفاً، لأنه يعرفُ السبيلَ إلى قلبها، ولا تعرفُ السبيلَ إلى عقله

لا تعجبْ إن قلتُ لك إن الذكاء غيرُ العقل، فاللصوصُ والمحتالون والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياءُ وليس بينهم عاقلٌ واحد، لأنهم يوردون أنفسَهم مواردَ التلفِ والهلاك، من حيثُ لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً، وكثيراً ما يكون الذكاءُ الشديدُ داعيةَ الجنون، حتى إنك لا تكادُ ترى ذكياً من الأذكياء إلا وترى له في شؤونه وأطواره أحوالاً شاذةً لا تنطبقُ على قانونٍ من قوانين العقل، ولا قاعدةٍ من قواعد الطبيعة، وعندي أن أكثرَ ما يصيبُ النوابغَ والأذكياءَ من بؤس العيش وسوء الحال عائدٌ إلى ضعفٍ في عقولهم، ونقصٍ في تصوراتهم، وبعد فالذكاءُ في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع، وكثيراً ما يضربُ الشجاعُ عنقَ نفسِه بسيفه، إذا كان طائشاً أهوجَ لا يملكُ نفسَه في مواقف الحزن أو الغضب

فماذا يغني المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقلٌ يملكها ويصرفُها، ويمسكُ بيدها أن تعثرَ في عَدْوِها واشتدادِها بعقبةٍ من عقبات هذه الحياة

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن، ولكن ماذا أعمل وبين يدى برهان قاطع ليس فى استطاعتهن أن ينازعننى فيه مع شدة ذكائهن، ولا فى استطاعة أنصارهن من الرجال أن ينقضوه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

لولا أن الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان وذلك الغلب، ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقاد الجنيب (١) ولا أن يملك عليها أمر فقرها وغناها، وحبسها وإطلاقها، وحجابها وسفورها، ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها، من حيث لا ترى فى نفسها قوة لدفعها، والخروج عليها

القوى يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شىء حتى نفسه وهواه، وكذلك كان شأن الانسان مع الحيوان، وشأن الرجل مع المرأة

(١) الجنيب المهر الذى يقاد الى مهر آخر

الانسانُ نوعٌ من أنواع الحيوانِ لم يكن فى مبدأ خليقته خيراً منها فى شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفرَ منها عقلا وأوسعَ حيلة ، فما زال يطلبُ لنفسه الغايةَ التى تناسبُ استعدادَه وَفِطرتَه حتى أصبحَ سيدَ الحيوان ، فمدّنَ المدنَ ومصّرَ الامصارَ ، وشادَ وبنى ، وتأنقَ وترفَّه ، ثم طرد صاحبَه إلى الصحارى والرمال ، ورءوسِ الجبال ، يأكلُ بعضُه بعضاً ويتغانى شقاء وجهلا ، والرجل أخو المرأةِ وقسيمُها فى الرحم والمهد ، والأُبوّةِ والأُمومة ، والقَومةِ والقعَدة ، والنَّومةِ واليقظة ، ولكنه وجد فى نفسه فضلا عليها من قوة العقلِ والتدبير ، وكان ظالماً خشِنَ النفسِ قاسىَ القلبِ ، فأبى إلا أن يأسرَها ، ويغلبَها على أمرها ، ويملِكَ عليها جسمَها ونفسَها ، فتم له ما أراد

ملك عليها جسمَها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنتْ ، وملك عليها نفسَها لانه ألقىَ فى رُوعها أن ذنبَها فى جريمة الفسقِ المشتركةِ بينه وبينها أكبرُ من ذنبه

وأن جنايتها ضعفُ جنايته فصدَّقت، وطلب منها أن تسلم إليه الامرَ فى تدبير شؤونها والتصرفِ بأموالها فسلمت، وأصبحت تنظرُ إلى هذه القوانينِ الجائرةِ التى وضعها، والاعتباراتِ الفاسدة التى اعتبرها معها، كما ينظرُ اليها هو بعين الإجلالِ والإعظام

يخدعُ الرجلُ المرأةَ عن شرفها فيَسلُبُها إياه، فاذا سقطت هاج المجتمعُ الانسانى عليها رجالُه ونساؤه، وملأ قلبَها هوْلاً ورُعباً، وأوسعَ نفسَها تقريعاً وتأنيباً، من حيث لاتطيرُ على الرجل شرارة واحدةٌ من هذه النارِ المتأججة، لانه هو الذى وضع هذا القانونَ وشرع تلك الشريعةَ، وما كان له أن يقصرَ فى ممالأة نفسِه ومحاباتها، لانه شرِهٌ طماعٌ محبٌّ لذاته، ولا أن يعدلَ فى القضاء فى قضيةٍ، هو الخصمُ فيها والحكَم لانه ظالمٌ جبار

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقلِ لاستطاعت هى أن تحجبَه فى المنزل، وأن تتولى التصرفَ فى شأنه، وأن

تعبثَ بعقله ما شاءت ، فتعظم جريمته وتصغر جريمتُها في عينه، وان تَنفذَ إلى قلبه فتلعب به لِعبَ الصبيّ بالكرة، وأن تحدثَه فيصدق ، وتأمرَه فيأتمر ، وأن تسن له القوانينَ الجائرةَ، والشرائعَ الفاسدة ، فيؤمن بها إيمانه بالاله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد

لا أُريدُ أن أقولَ إن هذا الفرق في القوة العقليةِ بين الرجل والمرأةِ يمنحُه هذا الحقّ في ظلمها وغلبتِها على حقها، بل أريدُ أن أقولَ إن هذا الفرقَ بينهما هو سببُ ذلك السلطانِ القاهر ، والحكم الجائر

وجملةُ القولِ أن حُكمَ المجتمعِ الانساني بادانة المرأةَ الزانيةِ وبراءةِ الرجلِ الزاني حكمٌ ظالم ، ولو أنه أنصفهما لعرف فرقَ ما بينهما في القوة العقليةِ فجعل عقابَ الرجلِ القويّ المهاجم فوق عقابِ المرأةِ الضعيفةِ المدافعةِ ،ولكنه لم يفعلْ ذلك ، لان رجاله ظلمةٌ جائرون ، ولأن نساءهُ ساذجاتٌ بسيطاتٌ ، يصدقنَ الرجالَ في أقوالهم،وينظرْنَ

إلى المستحسَنات والمستهجَنات بأنظارهم ، فإن أردنا أن تنالَ المرأةُ حقَّها من الرجل ، وأن تنتصفَ منه ، فليس سبيلُها إلى ذلك المغالبةَ والمصارعةَ ، فانها أضعفُ منه جسماً وعقلا ، بل السبيلُ إليه أن نُعَلِّمها لتعرفَ كيف تستعطفُه وتسترحمُه ، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامِها ، وأن نعلمه ليستطيعَ أن يكون شخصاً كريمًا ، وإنسانًا رحيما

الدعوة

ما مِنْ قائمٍ يقومُ في مجتمع من هذه المجتمعاتِ البشريةِ داعياً إلى تركِ ضلالةٍ من الضلالات أو بدعةٍ من البدع إلا وقد آذن نفسه بحربٍ لا تخمدُ نارُها ، ولا يخبو أُوارُها حتى تهلكَ أو يهلكَ دونها

ليس موقفُ الجندي في معترك الحرب بأحرجَ من موقفِ المرشدِ في معتركِ الدعوةِ ، وليس سلبُ الاجسام أرواحِها ، بأقربَ منالا من سلب النفوس غرائزِ ها وميولها ، ولا يضنُّ الانسانُ بشيء مما تملك يمينُه ضنَّه بما تنطوي عليه جوانحُه من المعتقدات ، وانه ليبذلُ دمَه صيانةً لعقيدته ، ولا تبذل عقيدته صيانةً لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الاشلاء في مواقفِ الحروب البشريةِ من عهد آدم الى اليوم إلا حمايةً للمذاهب ، وذوداً عن العقائد

لذلك كان الدعاةُ فى كل أمةٍ أعداءَها وخصومَها ، لأنهم يحاولون أن يرزءوها فى ذخائر نفوسها ، ويَفجعوها فى أعلاق قلوبِها

الدعاة أحوجُ الناسِ إلى عزائمَ ثابتةٍ ، وقلوبٍ صابرة ، على احتمال المصائبِ والمِحَنِ التى يلاقونها فى سبيل الدعوة ، حتى يبلغوا الغايةَ التى يريدونها ، أو يموتوا فى طريقها

الدعاةُ الصادقون لايبالون أن يسميَهم الناسُ خونةً أو جهلةً ، أو زنادقةً أو ملحدين ، أو ضالين أو كافرين ، لأن ذلك مالا بدَّ أن يكون

الدعاةُ الصادقون يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً ، فلما مات مات سيدَ المرسلين ، وأن الغزالىَّ عاش متهما بالكفر والالحاد ، ومات حجةَ الاسلام ، وأن ابنَ رُشدٍ عاش ذليلا مهاناً حتى كان الناسُ يبصقون عليه إذا رأوه ، ومات فيلسوفَ الشرق ، فهم يُحبون أن يكونوا أمثالَ هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتاً

سيقول كثيرٌ من الناس وما يغنى الداعىَ دعاؤُه فى أمة لا تُحسِنُ به ظناً ، ولا تسمعُ له قولا ، إنه يضرُّ نفسه من حيثُ لاينفعُ أمتَه ، فيكون أجهلَ الناس وأحمق الناس

هذا مايوسوس به الشيطانُ للعاجزين الجاهلين ، وهذا هو الداءُ الذى ألمَّ بنفوس كثيرٍ من العلماءفأمسكَ ألسنتَهم عن قولِ الحق ، وحبس نفوسَهم عن الانطلاق فى سبيلِ الهدايةِ والارشادِ ، فأصبحوا لاعملَ لهم إلا أن يكرروا للناسِ مايعلمون ، ويُعيدوا عليهم مايحفظون ، فجمدت الأذهان ، وتبلَّدَت المداركُ ، وأصبحت العقولُ فى سجنِ مظلمٍ لاتطلعُ عليه الشمس ، ولا ينفذُ إليه الهواء،

الجهلُ غشاءٌ سميكٌ يُغشِّي العقل ، والعلمُ نارٌ متأججةٌ تلامسُ ذلك الغشاء فتحرِقُه رويداً رويداً ، فلا يزالُ العقلُ يتألمُ لحرارتها مادام الغشاءُ بينه وبينها ، حتى إذا أتمت عليه انكشف له الغطاءُ فرأى النارَ نوراً ، والألم لذةً وسروراً

لايستطيع الباطلُ أن يصرعَ الحقَّ فى مَيدان ، لأن

الحقّ وجودٌ ، والباطلَ عدمٌ ، وإنما يصرعهُ جهلُ العلماء بقوته ويأسهم من غلبته ، واغفالهم النداءَ به ، والدعاء إليه

محالٌ أن يهدم بناءَ الباطل فردٌ واحدٌ فى عصرٍ واحد ، وإنما يهدمهُ أفرادٌ متعددون ، فى عصور متعددة ، فيهزه الأول هزَّةً تباعد ما بين أحجاره ، ثم ينقض الثاني منه حجراً ، والثالث آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجرٌ على حجر

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء ، ولا يجمل بالطبيب أن يُحجمَ عن العمل الجراحىّ فراراً من إزعاج المريض ، أو خوفاً من صياحه وعويله ، أو اتقاءً لسبّه وشتمه ، فانه سيكون غداً أصدقَ أصدقائه ، وأحبّ الناس اليه

وبعد فقليلٌ أن يكون الداعى فى الأمة الجاهلة حبيباً إليها إلا إذا كان خائناً فى دعوته ، سالكاً سبيل الرياء والدهان فى دعوته ، وقليلٌ أن ينال حظّه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارةَ الدواء ، ثم تشعرَ بحلاوة الشفاء

الدعاةُ فى هذه الامة كثيرون ملءَ الفضاء، وكِظّة[1] الارض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد، لأنه لا يوجد بينهم شجاعٌ واحدٌ

أصحابُ الصحفِ وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء المجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون الى الحق، وكلهم يعظون وينصحون ويأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل فى سبيل الدعوة ضراً، أو يلاقى فى طريقها شراً

رأيت الدعاةَ فى هذه الأُمة أربعةً رجلٌ يعرف الحق ويكتمهُ عجزاً وجبناً، فهو ساكتٌ طول حياته لا ينطق بخيرٍ ولا شر، ورجل يعرف الحقَّ وينطقُ به ولكنه يجهلُ طريق الحكمة والسياسة فى دعوته، فيهجُمُ على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيبُ الماهر الذى يضع الدواء المرّ فى « برشامة » ليسهُلَ تناولهُ

(١) الكظة البطنة

وازدراده ، ورجل لا يعرف حقاً ولا باطلا ، فهو يخبط في دعوته خبطَ الناقة العشواء في بيدائها ، فيدعو إلى الخير والشر، والحقّ والباطل ، والضارّ والنافع ، في موقفٍ واحد ، فكأنه جوادُ امرئ القيس الذي يقول فيه : —

مِكرٍّ مفرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معاً

ورجل يعرف الحق ويدعو الامة إلى الباطل دعوة المجد المجتهد ، وهو أخبثُ الأربعة وأكثرهم غائلةً ، لأنه صاحب هوىً يرى أنه لا يبلغ غايتَه منه إلا إذا أهلك الامة في سبيله ، فهو عدوها في ثياب صديقها ، لانه يوردها مواردَ التلف والهلاك باسم الهداية والارشاد ، فليت شعرى من أي واحدٍ من هؤلاء الاربعة تستفيد الأُمة رشدَها وهداها

ما أعظمَ شقاءَ هذه الامة وأشدّ بلاءها ، فقد أصبح دعاتها في حاجةٍ إلى دعاةٍ ينيرون لهم طريق الدعوة ، يعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها ، فليت شعرى متى يتعلمون ؟ ثم متى يرشدون ؟

الحياة الذاتية

أكثرُ الناسِ يعيشون فى نفوس الناس أكثرَ مما يعيشون فى نفوس أنفسهم ، أي انهم لايتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدَعون ، إلا لأن الناس هكذا يريدون

حياةُ الانسانِ فى هذا العالم حياةٌ ضمنيةٌ مدَّخلَةَ فى حياة الآخرين ، فلوفتش عنها لايجد لها أثراً إلا فى عيون الناظرين ، وآذان السامعين ، وأفواه المتكلمين

يُخَيَّل إلى أن الانسان لو علم أن سيُصْبِح فى يوم من أيام حياتهِ وحيداً فى هذا العالم لايجد بجانبه أذناً تسمع صوته ، ولا عيناً تنظر شكله ، ولا لساناً يردد ذكره لأثر الموتَ على الحياة علّه يجد فى عالمٍ غيرِ هذا العالم من آذان الملائكة أو عيون الجِنة مقاعد يقتعدُها فيطيب له العيش فيها

إذا كانت حياة كل انسانٍ متلاشيةً فى حياة الآخرين

فأىّ مانع يمنعُنى من القول بأن تلك الحياةَ التى نحسَبُها متكثّرةً متعددةً إنما هى حياةٌ واحدةٌ يتفقُ جوهرُها، وتتعددُ صورُها، كالبحر المائج تراه على البعد فنحسَبُه طرائقَ قِدَداً، ونحسبُ كلَّ موْجةٍ من أمواجِه، قسما من أقسامه، فاذا دنونا منه لانرى غيرَه، ولا نجدُ لجزء من أجزائه حيّزاً مستقلا، ولا وصفاً ثابتاً.

لاحى فى هذا العالم حياة حقيقية إلا ذلك الشاذُّ الغريب فى شؤونه وأطواره، وآرائه وأعماله، الذى كثيراً مانسميه مجنوناً، فان رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفاً، ونريدُ بذلك أنه نصفُ مجنون، فهو الذى يتولى شأنَ الانسان، وتغييرَ نظاماته وقوانينه، وينتقلُ به من حال الى حال، بما يغير من عاداته، ويحوّلُ من أفكاره

أية قيمةٍ لحياة امرىء لاعمل له فيها إلا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناسُ فيأكلُ مالا يشتهى، ويصدِف نفسَه عما تشتهى، ويسهرُ حيث لايَستعذبُ طعم

السهرِ ، وينامُ حيثُ لا يطيبُ له المنام ، ويلبَسُ من اللباس ما يحرجُ صدره ، ويقصِمُ ظهره ، ويشرب من الشراب ما يحرقُ أمعاءه ، ويأكل أحشاءه ، ويضحك لما يبكى ، ويبكى لما يضحك ، ويبتسم لعدوّه ، ويقطبُ فى وجه صديقه ، ويُنفقُ فى دراسة مايسمونه علمَ السلوك ، أى علم الدهان والملق ، زمناً لو أنفق عُشر معْشَارِه فى دراسة علمٍ من العلوم النافعة لكان نابغتَه المبرّز فيه ، حرصاً على رضاء الناس ، وازدلافاً إلى قلوبهم

ليست شهوةُ الخمر من الشهوات الطبيعيةِ المركبة فى غرائز الناس ، فلو لم يذوقوها لما طلبوها ، ولا كلفوا بها ، وما جناها عليهم إلا كلفُ تاركيها برضاء شاربيها ، وما كان الترفُ خلقاً من الاخلاق الفِطرية فى الانسان ، ولكن كلِفَ المتقشفون برضاء المترَفين فترفوا ، فحملوا فى ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه ، وأثقال الحياة وأعبائها ، ما نغَّص عليهم عيشَهم ، وأفسد عليهم حياتهم ، وانك لترى الرجلَ العاقل

الذي يعرفُ ما يجب ، ويعلم ما يأخذ وما يدَعُ ، يبيعُ منزلَه في نفقة عُرس ولدِه أو ابنته ، فلا تجد لفعله تأويلا إلا خوفَه من سخط الناس ، واتقاءه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوفُ من سخط الناس والكلفُ برضاهم ذكاءَ الأذكياء ، وأطفأ عقول العقلاء ، وكم رأينا من ذكيّ يظلُّ طول حياته خاملا متلففا لا يجرُؤ على اظهارِ أثرٍ من آثار فِطنته وذكائه ، مخافة هزء الناس وسخريتهم ، وعاقلٍ لا يمنعُه من الاقدام على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخطُ الساخطين ، ونقمةُ الناقمين

وما أُعجبت برجلٍ في حياتي اعجابي بأديبٍ من أدباء هذه الامة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها الى صحيفةٍ من الصحف أية كانت ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنع شيئاً ، فلا يسير وراءها سير المتسمّع المتجسس ليعلم ما رأي الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها ، أو رضوا بها ، ولا يمشي متنقلا في المجامع والأندية ، مسائلا عنها كلَّ غادٍ ورائح ، ليجدَ خيراً فيضحك ويستبشر ، أو

شراً فيبكى ويبتئس ، بل كثيراً ما رأيته يسمعُ حديثَ الناس عنه فى حالَى رضاهم وسخطهم ساكناً هادئاً كأنما يتحدثون عن غيره ، ويعنون شخصاً سواه ، حتى كدتُ أتخيلُ ألا فرق عنده بين أحسنتَ وأجدت ، وأسأت وأخطأت ، بل قلما رأيته على كثرةِ لصوقى به ، وتفقدى مواقعَ سمعه وبصره ، يقرأُ ما تكتبه الصحفُ عنه ، وما تعلِّقه على آرائه وأفكاره ، من مدح أو ذم ، حتى كدت أحمل تلك الحالَ الغريبة من أمره على البله والغفلة ، أو العظمة والكبرياء ، لولا انى فاتحته مرةً فى ذلك وسألته لم لاتحفلُ برأى الكتاب فيك ، ولم لاتقرأمايكتبون عنك ؟ فأجاب إننى ما أقدمتُ على الكتابة للناس فى إصلاح شؤونهم ، وتقويم معوجهم ، إلا بعد أن عرفت أنى أستطيع أن أَنزلَ منهم منزلةَ المعلمِ من المتعلم ، والناسُ خاصةٌ وعامة ، أما خاصتهم فلاشأن لى معهم ، ولا علاقة لى بهم ، ولا دخل لكلمةٍ من كلماتى فى شأنٍ من شؤونهم ، فلا أفرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، لأنى لم أكتبْ لهم ، ولم أتحدثْ إليهم ، ولم

أُشهدُهم أمرى ، ولم أحضرْهم عملى ، بل أنا أتجنبُ جهدَ المستطيع أن أَستمعَ منهم كلَّ مايتعلقُ بى من خير أوشر ، لأنى راض عن طريقى التى أكتِبُ بها رسائلى ، فلا أُحِبُّ أن يكدرَها علىَّ مكدر ، وعن آرائى التى أودعُها إياها ، فلا أُحبُّ أن يشككَنى فيها مشكك ، ولم يهبْنى الله من قوةِ الفراسةِ ما أستطيعُ أن أميزَ بهِ بين مخلصِهم ومشوبهم ، فأُقبلَ على الأول لأستفيدَ علمَه ، وأُعرضَ عن الثانى لأتقىَ غشَّه ، فانا أسيرُ بينهم مسيرَ رجلٍ بدأ يقطعُ مرحلةً لابد له أن يفرغَ منها فى ساعة محدودة ، ثم علم أنّ على يمينِ الطريقِ الذى يسلُكه روضةً غنّاءَ تعتنقُ أغصانُها ، وتشتجرُ أفنانُها ، وتغردُ أطيارُها ، وتتألقُ أزهارُها ، وأن على يساره غاباً تزأرُ أسودُه ، وتعوى ذئابه ، وتفِحّ أفاعيهِ وصلاله ، فمشى قدُماً لا يلتفتُ يَمنةً ، مخافةَ أن يلهوَ عن غايته بشهواتِ سمعِه وبصرِه ، ولا يَسرةً ، مخافةَ أن

يَهيج بنظراته فضولَ تلك السباعِ المقعية، والصلالِ الناشرة، فتعترض دون طريقه، وأما عامتهم فهم بين ذكىٍّ قد وهبه اللهُ من سلامة الفِطرة وصفاء القلب وسلامةِ الوجدان مايعده لاستماع القولِ واتباع أحسنِه، فأنا أحمَدُ اللهَ فى أمره، وضعيفٍ قد حيل بينه وبين نفسه، فهو لايرضَى إلا عما يعجبُه، ولا يسمعُ إلا مايطربُه، فأ كِلُ أمرَه إلى الله وأستلهمُه صوابَ الرأى فيه، حتى يجعلَ له من بعد عُسرٍ يسراً، فأنا إنما أكتبُ للناس لا لِأُعجِبَهم، بل لأنفعَهم، ولا لِأسمعَ منهم أنت أحسنتَ، بل لأجدَ فى نفوسهم أثراً مما كتبتُ، فلو أن هذه الملايين الاثنا عشر التى يحتضنُها هذان الجبلان أجمعتْ أمرَها على الإعجاب بى والرضا عنى ثم رأيتُ من بينها رجلا واحداً ينتفعُ بما أقولُ لكان الواحدُ المستفيدُ آثرَ فى نفسى من الملايين المعجَبين، أتدرى لم عجز كتابُ هذه الأمةِ عن إصلاحها؟ لأنهم يظنون أنهم لايزالون حتى اليوم طلبةً يتعلمون فى مدارسهم، وأنهم جالسون بين يدَى

أساتذةِ اللغة يتلقَّون عنهم دروسَ البيان ، فترى الواحدَ منهم يكتبُ وهمُّه المالىءُ قلبه أن يعجبَ اللغويين، أو يروقَ المنشئين ، أو يطربَ الأدباء ، أو يضحكَ الظرفاء ، ولا يَدخل فى باب أغراضه ومقاصدِه أن يتفقدَ المسلكَ الذى يجبُ أن يسلكَه إلى قلوب الذين يقولُ إنه يَعِظُهم أو يَنصحهم ، أو يهذبهم أو يُثقّفُهم ، ليعلمَ كيف ينفذُ الى نفوسهم، وكيف يهجُم على قلوبهم، وكيف يملكُ ناصيةَ عقولهم، فيعدلُ بها عن ضلالها إلى هداها ، وعن فسادِها إلى صلاحها، فمثله كمثلِ الفارسِ الكذابِ الذى تراه حاملا سيفَه كلّ يوم الى الجوهرى ليرصّعَ له قبضتَه ، أو الحدادِ ليَشحذَ له حدَّه ، أو الصيقلِ ليجلوَ له صفحتَه ، ولا تراه يوماً فى ساحة الحربِ ضارباً به اهـ

نعم قد يكونُ الولعُ برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخيرِ وطريقاً من طرق الهدايةِ للضال عنها لو أن الفضيلةَ هى الخلقُ المنتشرُ فيهم ، والغالبُ على

أمرهم، ولو كان الأمرُ كذلك لآثرت أن يعرضَ المرء نفسَه على الفضيلة ذاتها من حيثُ هى، لا من حيث تشخصُها فى أذهان الناسِ وعقولهم، فاذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطتْ قلبَه، وأخذت مستقرَّها من نفسِه، جعلها ميزانًا يَزِنُ به أقوالَه وأفعالَه، كما يزنُ به أقوالَ الناس وأفعالهم، ثم لا يُبالى بعد ذلك أرضُوا عنه أم سخطُوا عليه، أم أحبُّوه أم أبغضُوه، فانما يبكى على الحبّ النساء

العبرات

كنتُ أغبط نفسي على التجلّدِ والصبر ، وأحسَبُني قادراً على الاستمساك في كل رُزء مهما جل شأنهُ ، وعظُم وقْعُه ، فلما مات مصطفى كامل علمتُ أن من الرزايا مالا يطاقُ احتماله ، ولا يستطاع تجرُّعُه

كل يوم نرى الموت ، ولا نزالُ نعُدُّ الموت غريباً ، هيهات لا غرابة في الموت ، ولكن الغريبَ موتُ الرجل الغريبِ

كل يوم تمرُّ بنا قوافلُ الموتَى فلا نأبَهُ لها ، وأكبرُ نصيبِهَا منا الحوقلة والاسترجاعُ ، فلما مرتْ قافلة مصطفى كامل دَهشنَا وجزِعنا ، لأنه كان غريباً في حياته ، فأحرَى أن يكون غريباً في مماته

مات مصطفى كامل فعرفْنا الموت ، وما كنَّا نعرفه قبل

ذلك ، لأننا ما كنا نرى إلا أمواتاً ينقلون من ظهر الارض إلى بطنها ، أما مصطفى كامل فكان حيًّا حياةً حقيقية فكان موته كذلك

لا يَحسَب الكاتبون أنهم صنَعوا شيئاً إذا بذلوا لذلك الرجل العظيم قَطْرةً من المِداد ، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاءً حسناً إذا بذلوا له قطرة من الدمع فانه كان يبذل لهم ماءَ حياته قطرةً فقطرةً ، حتى أفناه ومضَى لسبيله ، وشتَّانَ ما بين صنيعِهم وصَنيعه

أينَ قطرات الدموع التى يريح بها الباكون أنفسهم ، أو قطرات المِداد التى يرصع بها الكتاب بياض صحائفِهم ، من قطراتِ الحياةِ التى أراقها مصطفى كامل فى سبيل وطنهِ وأمتهِ ؟؟

كان مصطفى كامل سِراجاً كبير الشُّعلةِ ، وكلُّ سراجٍ تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكا ، وتحترق ذبالته ، فينطفىء نوره

كان مصطفى كامل نشيطاً سريع الحركة . فقطع جسر الحياةِ فى لحظةٍ واحدة

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما صاح مصطفى كامل وأسمعَ فى صياحه عرَفوا أن آذانَ السياسةِ لايخترقُها إلا الصوتُ الجهْورى ، ولولاه ما كانوا يعرِفون

كان الوطنيون يحتقِرون أنفسَهم ويُسيئون الظنَّ بها، فلا يصدقون أن تربةَ مصرَ تنبتُ أمثالَ فولتيرَ وهوجو وغاريبالدى وواشنطونَ ، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربةَ الشرقِ لاتختلفُ كثيراً عن تربة الغربِ لو تعهّدَها الزارعون

كان لمصطفى كامل أناملُ أشبهَ شىء بريشة المُوسيقارِ يَضرِبُ بها على أوتار القلوب ، وكأنما كان بينه وبينهاسلك كهربائى ، فهى تتحركُ بحركتِه ، وتسكُنُ بسكونه

ما كان مصطفى كامل أذكى الناس ، ولا أعلمَ الناس ، ولا أعقلَ الناس ، ولكنه كان أشجعَ الناس

كان يفكرُ فيقتنعُ فيصمّمُ فيَمضِي فلا ينثني حتى الموت

كان يُخطِئُ أحياناً فى اتخاذ الوسائلِ إلى آماله ، ولكنه

كان إذا اتخذها لا يتمهلُ ريثما يتبينُ أيَّ طريق يأخُذُ ، ولا أيَّ مسلك يسلُكُ ، مخافةَ أن تفترَ همته بين الأَخذِ والرد، فيكونُ خطوُه في تردُّدِه ، أكثرَ من خطئه في جهادِه

كان له منافسون يرمونه بالخِفَّةِ والطَّيْشِ ، ويقولون له إنك مخطئٌ ، أو مضِرٌّ ، أو غيرُ محسنٍ ، أو غيرُ عظيم ، فما كان يصدقُ من ذلك شيئاً ، كأنما كان ينظرُ بعين الغيب الى هذا اليومِ الذى اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه ، وخصومُه وأولياؤه ، أنه رجلٌ عظيم

ما كان مصطفى كامل من الاغنياء ، ولا من بيت الملُك ، وما كان آمراً ولا ناهياً ، ولا رافعاً ولا خافضاً ، ولكنه لَقِيَ من إجلال الناس لموته ، وإعظامِهم لمصيبته ، ما لم يلقَ واحدٌ من هؤلاء ، ولا فضلَ لهم فى ذلك عليه ، فهو الذى علمهم كيف يحترمون العقولَ ، ويُجِلّون المناقبَ والمزايا

فيأيها القارئ الكريمُ : إن كان لك ولدٌ تُحِبُّ أن تجعلَه رجلا ، فاجعلْ بين يديه حياةَ مصطفى كامل ، ليتعلمَ منها الشجاعةَ والإقدامَ

ويأيها المصرىُّ : كن أحرصَ الناسِ على وطنيتِك ، ولا تبغِ بها بدلا من عرضِ الدنيا وزُخرُفها ، فانك إن فعلتَ كنتَ مصطفى كامل

ويأيها الانسانُ : أَقْدِمْ على عظائمِ الأمور ، ولا تلتفتْ يَمنة ولا يَسرة ، واخترق بسيف شجاعتِك صفوفَ المعترضين والناقمين ، والهازئين والساخرين ، فانهم سيعترفون بفضلك ، ويُسمونك عظيما كما سمَّوا مصطفى كامل

ويأيها الراحلُ المودَّعُ : إن بين جنبيَّ لوعةً تعتلجُ لفراقك لا أعرفُ سبيلا الى التعبيرِ عنها إلا القلم

وها أنَذَا أعالجُ القلمَ علاجا شديداً على أن يُسعِفَنى بحاجتى ، وأقلبُـه ظهراً لبطنٍ ، وأكثرُ من استمداده ، وأضغطُ به على القرطاس ضغطاً شديداً ، فلا أراه يُغنِى عنى شيئاً

خطر لى أن الحزنَ فى سُوَيْداء القلب ، وأنه بعيدُ الغورِ

لا تبلغُه هذه الأداةَ القصيرةُ التي في يدى ، فاستبدلتُ بها أداةً أطولَ منها ، فكان حكمُها حكمَ سابقِها

إذن كيف أعبِّرُ عن وجدي أيها الفقيدُ الكريمُ ، وقد خرس القلمُ وعيّ اللسان ؟

الآن عرفتُ السبيلَ ، ووصلت إلى ما أريد

أنتَ الآن فى عالم الأرواح ، وقد انكشف لك كلُّ شيء من أسرار النفوسِ ودخائلِ القلوب ، ولا بُدَّ أن يكونَ قد انكشف لك ما يكنُّ قلبى من الوجد عليك ، والأسفِ على فراقك ، فما حاجتى بعد ذلك إلى ترجمة القلمِ أو تعبير اللسان !

أيها الراحلُ المودعُ : طبتَ حيًّا ومَيْتًا ، خدمتَ أمتَك فى حياتك ، وبعد مماتِك ، لولا حياتُك ما نمت العاطفةُ الوطنيةُ فى نفوس المصريين ، ولولا مماتُك ما عرف العالَمُ أجمعُ أن الأمةَ المصريةَ على اختلاف مشاربِها ومذاهبِها تجمعُها كلمةٌ واحدةٌ ، هى حبُّ الوطنِ ، وحبُّ رجالِه العاملين

دمعة على الاسلام

كتب إليّ أحدُ علماء الهندِ كتاباً يقولُ فيه إنه اطلع على مُؤَلَّفٍ ظهر حديثاً بلغة « التاميل » وهى لغة الهنودِ الساكنين بناقورَ وملحقاتِها بجنوب مدارس، موضوعه تاريخُ حياةِ السيدِ عبد القادر الجيلانى، وذِكر مناقبِه وكراماته، فرأى فيه من بين الصفات والألقاب التى وصف بها الكاتبُ السيدَ عبدالقادر ولقبه بها صفاتٍ وألقاباً هى بمقام الألوهية، أليقُ منها بمقام النبوّة، فضلا عن مقام الولايةِ، كقوله « سيد السموات والأرض » و « النفاع الضرار » و « المتصرف فى الاكوان » و « المطلع على أسرار الخليقة » و « ومُحيي الموتى » و « ومبرئ الأعمى والأبرصِ والأكمهِ » و « أمره من أمر الله » و « ماحِى الذنوب »

و « دافع البلاء » و « الرافع الواضع » و « صاحب الشريعة » و « صاحب الوجودِ التام » إلى كثير من أمثالِ هذه النعوت والألقاب

ويقول الكاتبُ إنه رأى في ذلك الكتاب فصلاً يشرحُ فيه المؤلفُ الكيفيةَ التي يجب أن يتكيفَ بها الزائرُ لقبر السيدِ عبد القادر الجيلانى يقول فيه :

« أول مايجبُ على الزائر أن يتوضا وضوءاً سابغاً ثم يصلى ركعتَين بخُشوع واستحضار ثم يتوجهُ إلى تلك الكعبةِ المشرفةِ ، وبعد السلامِ على صاحب الضريح المعظم يقول :

« ياصاحب الثّقلينِ أَغِثْنى وأَمِدَّنى بقضاء حاجتى ، وتفريج كربتى »

« أغثنى يامحيى الدين عبدالقادر ، أغثنى ياولىّ عبدالقادر أغثنى ياسلطان عبد القادر ، أغثنى يابادشاه عبد القادر ، أغثنى ياخوجه عبد القادر »

ياحضرةَ الغوثِ الصمداني ، ياسيدى عبد القادر الجيلانى

عبدُكَ ومريدُكَ مظلومٌ عاجزٌ محتاجٌ إليك فى جميع الأمور فى الدينِ والدنيا والآخرة »

ويقول الكاتبُ أيضاً إن فى بلدة « ناقور » فى الهند قبراً يسمى « شاه الحميد » وهو أحدُ أولادِ السيد عبدالقادر كما يزعمون ، وأن الهنودَ يسجدون بين يدَى ذلك القبرِ سجودَهم بين يدى الله ، وأن فى كل بلدة وقرية من بلدان الهند وقُراها مزاراً يمثلُ مزارَ السيد عبد القادر فيكون القبلةَ التى يتوجهُ إليها المسلمون فى تلك البلاد ، والملجأ الذى يلجَئُون فى حاجاتهم وشدائدهم إليه ، وينفقون من الأموال على خدَمته وسدَنته وفى موالده وحضراتهِ مالو أُنفِقَ على فقراء الأرضِ جميعاً لصاروا أغنياء

هذا ما كتبه إلىَّ ذلك الكاتبُ ، ويعلم اللهُ أنى ما أتممتُ قراءةَ رسالتهِ حتى دارتْ بى الأرضُ الفضاء ، وأظلمت الدنيا فى عينى ، فما أُبصِرُ مما حولى شيئاً ، حزناً وأسفاً على ما آلتْ إليه حالةُ الإسلامِ بين أقوامٍ أنكروه بعد

ماعرفوه ، ووضعوه بعد مارفعوه ، وذهبوا به مذاهب لايعرفها ، ولا شأن له بها

أى عين يجمل بها أن تستبقى فى محاجرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن منظر أولئك المسلمين وهم ركع سجد على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه فى حياته ، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته !

أى قلب يستطيع أن يستقر بين جنبى صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكا بالله ، وأوسعهم دائرة فى تعدد الآلهة وكثرة المعبودات !

لم ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين ، ولم يحملون لهم فى صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن ، وعلام يحاربونهم ، وفيم يقاتلونهم ، وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ، ولم يغرقوا فيه إغراقهم ؟؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة ، ولكنهم يشعرون

بغرابةِ هذا التعدّدِ ، وبُعْدِه عن العقل ، فيتأولونه ويقولون إن الثلاثةَ في حكم الواحدِ ، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهةِ أكثرُها جذوعُ أشجارٍ ، وجثثُ أموات ، وقِطَعُ أحجار ، من حيثُ لايشعرون

كثيراً مايضمر الانسان فى نفسه أمراً وهو لايشعر به ، وكثيراً ماتشتمِلُ نفسُه على عقيدةٍ خفيةٍ لا يحسُّ باشتمال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً لذلك أقربَ من المسلمين الذين يلجئون فى حاجاتهم ومطالِبهم إلى سكان القبور ، ويتضرعون إليهم تضرعَهم للاله المعبود ، فاذا عتب عليهم فى ذلك عاتبٌ قالوا إنا لانعبدُهم ، وإنما نتوسلُ بهم إلى الله ، كأنهم لايشعرون أن العبادةَ ماهم فيه ، وأن أكبرَ مظهرٍ لألوهية الالهِ المعبودِ أن يقفَ عبادهُ بين يديه ضارعين خاشعين ، يلتمسون امدادَه ومعونتَه ، فهم فى الحقيقة عابدون لأولئك الاموات من حيثُ لايشعرون

جاء الاسلامُ بعقيدةِ التوحيدِ ليرفعَ نفوسَ المسلمين ،

ويَغرِسَ فى قلوبهم الشرفَ والعزّةَ ، والأنفَةَ والحميَّةَ وليعتقَ رقابَهم من رقّ العبُودية ، فلا يذلُّ صغيرهم لكبيرهم ، ولا يهاب ضعيفُهم قويّهم ، ولا يكون لذى سلطانٍ بينهم سلطانٌ إلا بالحقّ والعدل ، وقد ترك الاسلامُ بفضل عقيدة التوحيدِ ذلك الأثرَ الصالحَ فى نفوس المسلمين فى العصور الأُولى ، فكانوا ذوى أنفَةٍ وعزّةٍ ، وإباءٍ وغَيرةٍ ، يضربون على يد الظالم إذا ظلم ، ويقولون للسلطان إذا جاوز حدّه فى سلطانه قفْ مكانَك ، ولا تغلُ فى تقدير مقدار نفسك ، فانما أنتَ عبدٌ مخلوقٌ ، لا ربٌّ معبود ، واعلمْ أنه لا إله إلا الله

هذه صورةٌ من صُوَر نفوس المسلمين فى عصر التوحيد ، أما اليوم وقد داخل عقيدتَهم ما داخلها من الشركِ الباطنِ تارةً ، والظاهرِ أخرى ، فقد ذلتْ رقابُهم ، وخفقتْ رءوسهم ، وضرعتْ نفوسُهم ، وفترت حَمِيَّتهم ، فرضوا بالخطة الخسف ، واستناموا إلى المنزلة الدُّنيا ، فوجد أعداؤهم السبيلَ اليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، وملكُوا عليهم نفوسهم وأموالهم ،

ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين

والله لن يسترجعَ المسلمون سالفَ مجدهم ، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياةِ وهنائها إلا اذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد ، وإن طلوعَ الشمس من مغربِها ، وانصبابِ ماء النهرِ فى مَنبعِه ، أقربُ من رجوع الاسلامِ الى سالف مجدِه ما دام المسلمون يقفون بين يدَى الجيلانى كما يقفون بين يدَى اللهِ ، ويقولون للأولِ كما يقولون للثانى « أنتَ المتصرفُ فى الكائنات ، وأنتَ سيدُ الأرَضين والسموات »

إن اللهَ أغيرُ على نفسه من أن يُسعِدَ أقواماً يزدرونه ويحتقرونه ، ويتخذونه وراءهم ظِهْرِيًّا ، فاذا نزلتْ بهم جائحةٌ ، أو ألمتْ بهم ملمَّةٌ ، ذكروا الحجرَ قبل أن يذكروه ، ونادوا الجذْعَ قبل أن ينادوه

بِمن أستغيثُ ؟ وبمن أستنجدُ ؟ ومن الذى أدعو لهذه

الملمة الفادحة ؟ أأدعو علماءَ مصرَ وهم الذين يتهافتون على يوم « الكنسة »[1] تهافتَ الذبابِ على الشراب ؟ أم علماءَ الآستانةِ وهم الذين قتلوا جمالَ الدين الافغانى فيلسوفَ الاسلامِ يحيوا أبا الهدى الصيادى شيخَ الطريقة الرفاعية ؟ أم علماءَ العجمِ وهم الذين يحجون إلى قبر الامام، كما يحجون الى البيت الحرام ؟ أم علماءَ الهندِ وبينهم أمثالُ مؤلفِ هذا الكتاب ؟

يا قادةَ الأمةِ ورؤساءها، عذرنا العامةَ فى إشراكها وفسادِ عقائدِها، وقلنا إن العامىّ أقصرُ نظراً وأضعفُ بصيرةً من أن يتصورَ الالوهيةَ إلا إذا رآها ماثلةً فى النصب والتماثيل، والأضرحةِ والقبور، فما عذرُكم أنتم وأنتم تتلون كتابَ اللهِ، وتقرءون صفاتَه ونعوته، وتفهمون معنى قولهِ تعالى « لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ » وقوله مخاطباً نبيّه « قلْ

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين الى ضريح الامام الشافعى للتبرك بكنس ترابه

لا أملكُ لنفسى نفعاً ولا ضراً » وقوله « وما رَمَيْتَ إذْ رميتَ ولـكن الله رمى »

إنكم تقولون فى صباحكم ومسائكم ، وغُدُوِّكم ورَواحِكم ، كلُّ خيرٍ فى اتباع مَنْ سلَف ، وكلُّ شرٍّ فى ابتداع مَن خلف ، » فهل تعلمون أن السلفَ الصالحَ كانوا يجصصون قبراً ، أو يتوسلون بضريح ؟ وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف عندَ قبرِ النبى صلى الله عليه وسلم ، أو قبرِ أحدٍ من أصحابه وآلِ بيته ، يسألُه قضاءَ حاجةٍ ، أو تفريجَ كربة ؟ وهل تعلمون أن الرفاعىّ والدسوقى والجيلانى والبدوىّ أكرم عندالله وأعظمُ وسيلةً اليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ؟ وهل تعلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصُّوَرِ والتماثيل نهى عنها عَبَثاً ولَعِباً ، أم مخافة أن تعيدَ للمسلمين جاهليتَهم الأولى ؟ وأىّ فرق بين الصُّوَرَ والتماثيلِ ، وبين الأضرحة والقبور ، ما دام كل منها يجرُّ الى الشرك ، ويُفسِدُ عقيدةَ التوحيد ؟ ؟

واللهِ ماجهلتُم شيئاً من هذا ، ولكنكم آثرتُم الحياةَ الدنيا على الآخرةِ . فعاقبكم اللهُ على ذلك بسلب نعمتِكم ، وانتقاضِ أمرِكم ، وسلّط عليكم أعداءَكم يسلبون أوطانَكم ، ويستعبدون رِقابَكم ، ويخربون دِيارَكم ، والله شديدُ العقاب

السياسة

حضرة السيد الفاضل :

مالك لا تُكثِرُ من الكتابة فى الشؤون السياسية ، إكثارَك منها فى الشؤون الاخلاقية والاجتماعية ؛ وكيف يضيقُ بالسياسة قلمُك وقد وسع ما هو أدقُّ مذهباً منها ؛ فاكتبْ لنا فى السياسة ، فأُمتُك تُحِبُّ أن تراك سياسياً ، والسلام ؟ (فلان)

أيها الكاتب :

يعلم اللهُ أنى أُبغِضُ السياسةَ وأهلَها بغضى للكذبِ والغش ، والخيانةِ والغَدْر

أنا لا أُحِبُّ أن أكونَ سياسياً ، لأنى لا أُحِبُّ أن أكونَ جلاّداً

لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين ، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفرادَ، وأولئك يقتلون الأممَ والشعوبَ

هل السياسيُّ إلا رجلٌ قد عرفتْ أمتُه أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلباً ، ولا أعظمُ كيداً ، ولا أكْثَرُ دهاءً ومكراً . فنصبتْه للقضاء على الأمم الضعيفة ، وسلبِها ما وهبها الله من الحسنات ، وأجزلَ لها من الخيرات

أليس أكبرَ السياسيين مقاماً ، وأعظمَهم فخراً ، وأسيرَهم ذكراً ، ذلك الذي نقرأُ صفحاتِ تاريخهِ فنرى حروفَها أشلاءَ القتلى ، ونقطَها قطراتِ الدماء ؟

أيستطيعُ الرجلُ أن يكون سياسياً إلا إذا كان كاذباً في أقواله وأفعاله ، يبطنُ ما لا يظهرُ ، ويظهرُ ما لا يبطن ، ويبسمُ في موطن البكاء ، ويبكي في موطنِ الابتسام ؟

أيستطيعُ الرجلُ أن يكون سياسياً إلا إذا عرف أن بين جنبيه قلباً متحجراً لا يقلقُه بؤسُ البائسين ، ولا تُزعِجهُ نكباتُ المنكوبين ؟

كثيراً ما يسرق السارقُ، فاذا قضى مأربه من عمله رفع يديه إلى السماء متضرعاً إلى الله تعالى أن يرزقه المالَ حلالا، حتى لا يتناوله حراماً، وكثيراً ما يقتلُ القاتلُ، فاذا فرغ من أمره، جلس بجانب قتيله يبكى عليه بكاء الثاكلِ وحيدَها، ويتمنى بجذع الأنف لو ردّ إليه حياته، وافتداه بنفسه، أما السياسىُّ فلا يرى يوماً فى حياته أسعدَ من اليوم الذى يعلمُ فيه أنْ قد تم له تدبيرُه فى هلاكَ شعبٍ، وقتلِ أُمة، وآية ذلك أنه فى يوم انتصاره كما يُسمّيه هو، أو فى يوم جريمته كما أسميه أنا وتسميه العدالةُ الانسانيةُ، يسمعُ هتافَ الهاتفين باسمِه واسمِ الجريمة التى ارتكبها مطمئنّاً القلبِ، مثلجَ الصدر، حتى ليُخيّلُ اليه أن الفضاء بأرضه وسمائه أضيقُ من أن يسعَ قلبَه الطائرَ المحلّقَ فرحاً وسروراً

يقولون إن السياسة ليستْ علماً من العلوم التى يتلقاها الانسانُ فى مدرسة، أو يدرسها فى كتاب، وإنما هى مجموعةُ أفكارٍ قانونُها التجاربُ، وقاعدتُها العملُ، أتدرى لماذا ؟

لأن العلماءَ أشرفُ من أن يدونوا المكايدَ والحيلَ في كتاب ، ولأن المدارسَ أجلُّ من أن تجعلَ بجانب دروس الأخلاق والآداب ، دروسَ الأكاذيبِ والأباطيلِ ، وإلا فكلُّ طائفةٍ من المعلومات المتشابهة تدخلُ بطبيعتها تحت نظامٍ عام يؤلفها ، ويجمعُ شتاتها ، ويسمى علماً

هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم ، فهل تظنُّ يا سيدي أن رجلاً نصب نفسهَ لخدمة الحقيقة ، ومناصرتِها على الباطل ، واستنقاذِ الفضيلة ، من مخالب الرذيلة ، ووقف قلمه على تهذيب النفوس ، وترقيةِ الأخلاق ، وملأ في رسائله فضاءَ الأرض والسماء بكاءً على الضعفاء والمساكين ، والمظلومين والمضطهدين ، يستطيع أن يكون سياسياً ، أو محباً للسياسيين ؟؟

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا إن الكتابَ يُعرَفُ بعنوانِه، فإني لم أرَ بين كتبِ التاريخِ أكذبَ من كتاب بدائع الزهور، ولا أعذبَ من عُنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخفَ من كتاب جواهر الأدب، ولا أرقَّ من اسمه، كما لم أر بين الشعراء أعذبَ اسماً، وأحطَّ شعراً، من ابن مليك وابن النبيهِ والشابِّ الظريف

لقد كَثُرَ الاختلافُ بين العناوين وبين الكتبِ حتى كدنا نقولُ إن العناوين أدلُّ على نقائضها منها على مفهوماتها، وألصقُ بأضدادها منها بمنطوقاتها، وإن العنوانَ الكبيرَ حيثُ الكتابُ الصغيرُ، والكتابَ الجليلَ، حيثُ العنوانُ الضئيل

الاتقياء

لولا خداعُ العناوينِ ماسَمّينا صالحاً تقياً كلَّ من حرك سُبحتَه ، وأطال لحيتَه ، ووسَّع جُبنَه ، وكوّر عمامته ، ولقد نعلمُ أن وراء هذا العنوانِ الأبيضِ كتاباً أسودَ الصفَحات ، كثيرَ السقَطات ، وأن تحت هذا الستارِ الحريرى الرقيقِ نفساً سوداءَ مظلمة ، لا ينفذُ اليها شعاعٌ من أشعةِ الرحمة ، ولا تهُبُّ عليها نسمةٌ من نسمات الاحسان

لن يؤمنَ المؤمنُ حتى يبذلَ فى سبيل الله ، أو فى سبيل الجماعة ، من ذاتِ نفسِه ، أو ذاتِ يدِه ، ما يشقُّ على مثله الجودُ بمثله ، أما الجودُ بالشفاهِ للهمهمة ، والأناملِ للمسبحة ، فعملٌ لا يتكلفُ صاحبُه له أكثرَ مما يتكلفُ لتقليبِ ناظرَيه ، وتحريكِ هُدبَيه ، وهل خُلِقَت الشفاهُ الا للتحريك ، والأناملُ إلا للتقليب

إن للايمان مواقفَ يمتحنُ اللهُ فيها عبادَه ليعلمَ الذين صدَقوا ويعلمَ الكاذبين ، فإن بذَل الضنينُ بماله ماله

فى مواقف الرحمة والشفقة ، والشحيح بنفسه نفسه فى سبيل الذود عن حوضه ، والذب عن عشيرته وقومه ، وضعيف العزيمة ما يملك من قوةٍ وأيدٍ فى مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها ، فذلك المؤمن الذى لا يشوب ايمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب ، أولاً ، فأهون بهمهمته ودمدمته ، ومساوكه ومسبحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب ، أجدر منه بعنوان التقى الصالح ، « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون »

الامجاد

يقولون إن الولد سر أبيه ، ويريدون بذلك أنه المرآة التى ترتسم فيها صورته ، والبذرة التى تكمن فيها حقيقته ، وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد ، فأعظموا شأن الرجل الذى يمسك بطرف سلسلة فى النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس ، أو شريفٍ من شرفاء الاخلاق

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ، ويتوسعون في معناه ، حتى نظموا في سلكه الجبابرةَ الذين يسمونهم أمراء ، والظلمة الذين يسمونهم ملوكا ، والسفاحين الذين يسمونهم قواداً ، واللصوصَ الذين يسمونهم أغنياء ، فساقهم الخطأُ في فهم الشرف الى الخطأ في فهم المجد ، فسمَّوا ماجداً كلَّ من وُلد في فراش ملك ، وإن كان الحاكمَ بأمر الله ، أو أمير ، وإن كان الحجاج ، أو وزير ، وإن كان ابن الزيات ، أو قائد ، وإن كان تيمور لنك ، أو غني وإن كان قارون

لا مجدَ الا مجدُ العلم ، ولا شرف إلا شرفُ التقوى ، ولا عظمةَ إلا عظمة الآخذين بيد الانسانيةِ المعذبة ، رحمةً بها ، وحناناً عليها

أولئك هم الأمجاد ، وأولئك الذين يفخر الفاخرُ بالاتصال بهم ، والانتماء اليهم ، وأولئك هم المفلحون

الاغنياء

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الأرض

وراء لُقمة يتبلَّغون بها ، أو خرقة يتقون بها لفحةَ الرمضاء ، وهبة النكباء ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليلِ بكاء ونحيباً على صغار كفراخ القَطا يتلوَّون في مضاجعهم من الجوع تلوىَ الافاعي المضطربة ، فوق الرمال الملتهبة ، وتحت الشمس المحرقة ، أسوأ حالا ، ولا أنكد عيشاً ، ولا أعظم شقاء ، من هؤلاء الفقراء ، الذين يسميهم الناسُ أغنياء .

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، وينام كما ينام ، ويتشهى كما يتشهى حتى لتكاد تثب أمعاؤه من جوفه ، وتسيل أحشاؤه من بين أشداقه ، شوقاً الى ما حَرم على نفسه من أطايب العيش ولذائذه ، ويَستنّ (١) استنان الجواد الضامر في مَيدانِ السَّبق وراء الدرهم البعيد مناله ، حتى تنبهر أنفاسه ، وتتخاذل أوصاله ، حتى لو تخيل أن نجومَ السماء دنانيرُ منثورةٌ ، لطار اليها بغير جناح ، فسقط هاويا ، أو أن

(١) استن الجواد عدا عدواً شديداً

فى بطن الأرض كنزاً مذخوراً ، لتمنى أن لو انفجر بركانها تحت قدميه ، فابتلعته فأصبح من الهالكين

الغنىُّ هو الغنى بما فى يده عما فى أيدى الناس ، والفقير هو الذى لا يقنعه فى هذه الحياة مقنع ، ولا تقف به نفسُه عند مطمع

فانظر تحت أى عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين ؟ ؟

المجرمون

حضرت مجلساً من مجالس الأحكام حكم فيه قاضٍ مرتشٍ على متهم سرق رغيفاً ، فوضعت يدى على فمى مخافة أن يخرج أمرُ نفسى من يدى فأهتف صارخاً لما ألمَّ بقلبى من الرعب والفزَع صرخةً تدوى بها جوانب القاعة دوىَّ الموج الثائر، فى البحر الزاخر ، قائلا فيهامهلا رُوَيداً أيها الحاكم الظالم ، فأنت الى قاض عادل ، تقف بين يديه ، أحوج منك إلى كرسى نخم ، تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك و بين

هذا الماثلِ بين يديك لَبِتّ وأعلاكما الأسفل

إنك ترتزق فى كل شهر ثلاثين ديناراً ، فلمْ ترتش الا لأنك شرهٌ طماع ، ولم يسرق ذلك السارق الرغيفَ إلا لأنه جائع ملتاع ، ولو ملك ثلاثين درهما فقط مافعل فعلته التى فعل ، فأنت مجرم ، إلا أنك فى وِشاح شريف ، وهو شريف ، الا أنه فى شملة مجرم

فيالله للحقيقة التى عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين

رُبّ نفس بين جدران السجونِ أطهر قلباً ، وأنقى رُدناً ، وأبيض عِرضاً ، من مثلها بين جدران القصور ، ورب طريدة من طرائد المجتمع الانسانى ساقها المقدار الذى لامفرّ منه إلى وقفةٍ بين أعواد المشنقة كان أجدر بها ذلك المرابى الذى ينصب حِبالةَ ماله لخراب البيوت العامرة ، وقتل النفوس الطاهرة ، أو ذلك القائد الذى يسفك فى موقف واحد من مواقفه دمَ مائة ألف أو يزيدون ، فى غير سبيل

سوى سبيل المجد المصنوع ، والفخر الموضوع ، أو ذلك السياسى الذى يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة فى سربها ، سعيدة فى عيشها ، فيستعبد أحرارها ، ويستذل أعزاءها ، ثم يسلبها أثمن ماتملك يمينها ، من حريتها واستقلالها ، وسعادتها وهنائها ،

المتمدينون

ليس بين المصرى وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصرى أو الانسان الراقى إلا أن يصقل جبهته ، ويصفف طرته ، ويفتح فمه للابتسام المتصنع ، ويقوس يده للسلام المتعمل ، ويكثر فى حديثه من ذكر المدنية الغربية وشؤونها ، ويسرد أسماء نسائها ورجالها ، وطرفها ونوادرها ، ويستحسن ماتستحسنه ، وإن كان البراز والانتحار ، ويستطرف ماتستطرفه ، وان كان الزندقة والالحاد ، ثم يزعم أنه أرقى الناس آدبا ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأدقهم نظراً فى إدراك سقطات الناس وعثراتهم ،

وتحليلِ طبائعهم وغرائزهم ، ثم لا يحول تمدينُه هذا بينه وبين أن يكونَ فاسقاً ينتهكُ الحرمات ، أو مُدمِناً يترامى على أعتاب الحانات ، أو أحمقَ لا يصفحُ عن ذنب ، ولا يغضى عن هفوة ، أو سفيهاً يشتم حتى أميرَه وسلطانه ، ووالده وأستاذَه ، أو وَقاحَ الوجه لا يستحيي لمكرُمة ، ولا يَستخذى لمرُوءة ، أو شحيحاً لا يشركُ صاحبَه فى مَطعم ولا فى مشرب ، ولا يفتح بابه لضيفٍ زائر ، أو طارق حائر ، زاعماً أن التمدين شيء ، وذاك شيء آخر

إن كان حقاً ما يقولون من أن التمدين يَصقلُ الطباع الخشِنةَ ، وينير النفوسَ المظلمة ، ويهذبُ الأخلاق الجافية ، ويوسعُ الصدور الحرِجة ، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون

*
* *

لو كان بى أن أكتبَ لمحو الفساد من المجتمع الانسانى ، والقضاء على شروره وآثامه ، لما حركتُ يداً ، ولا جرّدتُ

قلماً ، لأنى أعلم أن طلبَ المُحال عثرةٌ من عثرات النفوس، وضِلةٌ من ضلالات العقول ، ولكننى أطلب مَطلباً واحداً لا أرى فى عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه ، هو أن يهذبوا قليلا من هذه المصطلحات التى أنسوا بها ، والعناوين التى جمدوا عليها ، فلا يسمون المنافقَ تقياً ، ولا المتمجدَ ماجداً ، ولا البخيل غنياً ، ولا الفقير مجرما ، ولا المتوحشَ متمديناً ، حتى لا ينْزِعَ محسنٌ عن إحسانه ، ولا يستمرَّ مسىءٌ فى إساءته

الاغراق

بين الاغراقِ فى المدح ، والاغراق فى الذم ، تموتُ الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده الى يوم يبعثون

يسمع السامعُ أن زيداً ملَكٌ كريم ، ثم يسمعُ أنه شيطان رجيم ، فيخرجُ منه صِفرَ اليدين ، لا يعلم أين مكانهُ من هذين الطرفين

يقولون إن المشعوذين إذا أرادوا أن يَسحَروا أعين الناس علقوا فى سقف من السقوف قطعةً من المغناطيس ووضعوا مُقابلها فى الارض قطعةً أخرى ، ثم يتركون فى الفضاء قطعةً من الحديد لا تزال تضطربُ بين هذين الجاذبين

هكذا تضطرب الحقيقةُ فى أيدى المغرِقين، اضطرابَ الحديدة فى أيدى المشعوذين

الحقيقةُ بين الكاذب والكاذب ، كالحبل بين الجاذب والجاذب ، كلاهما ينتهى به الأمر الى الانقطاع

لو علم الذى ينصبُ نفسه للموازنة بين الأشخاص أنه جالسٌ على كرسىّ القضاء ، وأن الناس سيسألونه عما قال ، كما يسألون القاضىَ عما حكم ، ماطاش سهمُهُ فى حكمه ، ولا ركب متنَ الغلوّ فى تقديره

كما أنه يجبُ على القاضى أن يقدرَ لكل جريمة ما يناسبُها من العقوبة ، كذلك يجب على الكاتب أن يضعَ كلَّ شخص فى المنزلة التى وضعتْه فِطرتُه فيها ، وأن لا يعلوَ به فوق قدره ، ولا ينزلَ به دون منزلته

ليس بين كتابِ هذا العصر من لم يقرأ فى التاريخ القديم متناقضاتِ الحكم على الأشخاص ، وليس بينهم من لم يتمنَّ أن يكون فى موضع أولئك المؤرخين المتطرفين ، حتى لايغلوَ غلوهم ، ولا يتطرفَ تطرفَهم فى أحكامهم

أيها الكتابُ المحزنون : لايَحزنكم ما كان ، فقد

مضى ذلك الزمانُ بخيره وشره ، ولا سبيلَ إلى رجوعه ، ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخى العصرِ الماضى ، فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخى العصرِ الحاضر ، وكما أن للماضى مستقبلا وهو حاضرُكم هذا ، فسيكون لهذا الحاضرِ مستقبلٌ آتٍ يحاسبُكم فيه رجالُه على إغراقكم فى أحكامكم ، كما تحاسِبون اليومَ رجالَ الماضى على غلوّهم فى أحكامهم ، وتطرفهِم فى آرائهم

إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالِكم أن تنقِموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم ، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون

كلُّ كاتبٍ عندكم أكتبُ الكتاب ، وكل شاعرٍ أشعرُ الشعراء ، وكل مؤلّف أعلم العلماء ، وكل خطيبٍ رئيسُ الأمة ، وكل فقيه إمام الدين ، فأين الفاضلُ والمفضول ، وأين الرئيسُ والمرءوس ؟ وكيف يكون زيدٌ اليوم أفضلَ من عَمرو ، ويكون عمرو غداً أفضلَ منه ؟ وأين ملكة

التمييز التى وهبكم الله إياها ، لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم ؟ وهل بلغ التفاوتُ بينكم فى عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجلُ الواحد فى نظر بعضكم خيرَ الناس ، وفى نظر البعض الآخر شرَّ الناس ؟؟

إنى حبستُ الآن قلمى عن الكتابة لأتجردَ من نفسى ساعة من الزمان فتخيلتُ كأنى رجل من رجال العصور الآتية ، وانى ذهبت إلى دار من دور الكتب القديمة لأراجعَ تاريخَ أحدِ عظماء عصركم هذا ، فقرأت ما كتبتموه عنه فى كتبكم وجرائدكم ، فرأيتُه تارة عظيما ، وأخرى حقيراً ، ومرةً شريفاً ، ومرة وضيعاً ، ورأيته عالماً وجاهلا ، وذكياً وغبياً ، وعاقلا ومَمروراً[١] فى آن واحد ، فخرجت أضلَّ مما دخلت ، لا أعرفُ من تاريخ الرجل أكثرَ من أنه رجل ، أى أنه ذكرٌ بالغ من بنى آدم

أيها القومُ : إنكم لاتستطيعون أن تكونوا رجالا

(١) الممرور المصاب بخبل فى عقله

عادلين فى أحكامكم وآرائكم إلا إذا أصلحتُم نفوسَكم أولا ، وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا من أهوائكم وأغراضكم ، قبل أن تتناولوا أقلامَكم

أيها القومُ : إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين ، فكونوا راحمين ، فارحَموا أنفسَكم ، واعفوها من الدخول فى مآزقَ أنتم عاجزون عنها ، وارحمونا ، فقد ضاقت صدورُنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسُنا تلك المبالغات

اللقيطة

مرّ عظيمٌ من عظماء هذه المدينةِ بزقاق من أزقة الأحياء الوطنية فى ليلة من ليالى الشتاء ، ضرير نجمُها ، حالكٍ ظلامُها ، فرأى تحت جدار متداع فتاةً صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها جالسةً القرْفَصاء[١] وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاءً للبرد الذى كان يعبثُ بها عبثَ النكباء بالعود ، وليس فى يدها ماتتقيه به الا أسمالٌ تتراءى مِزَقُها[٢] فى جسمها العارى كأنها آثارُ سياطِ المستبدِّين ، فى أجسام المستعبَدين

وقف الرجلُ أمام هذا المشهدِ المحزن المؤثر وقفةَ الكريمِ الذى تؤلمه مناظرُ البؤس ، وتزعجُ نفسَه مواقفُ الشقاء ، ثم تقدم نحوها ووضع يدَه على عاتقها برفقٍ ،

---

(١) القرفصاء أن يحتبى الرجل بيديه فيضعهما على ساقيه وهو جالس
(٢) المزق القطع

فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة ، وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصيح « لاأعود ، لاأعود » فلم يزل يَمسحها [1] ويرُوضها ، حتى هدأ رُوعها ، وعاد اليها رشدُها ، وعلمت أنها ليست بين يدَى الرجل الذى تخافُه ، فنظرت اليه نظرةً لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءَها من لواعج الأحزان ، وكوامن الأشجان

— ما اسمُكِ أيتها الفتاة ؟

— لاأعلم ياسيدى

— بماذا ينادونك ؟

— يدعوننى اللقيطة

— وهل أنتِ لقيطةٌ كما يقولون ؟

— نعم ياسيدى ، لأننى لاأعرفُ لى أباً ولا أماً ، فى الأحياء ولا فى الأموات ، سوى رجلٍ يتولى شأنى ، ويَضُمُّنى اليه فى منزله ، وكنتُ أحسبه أَبى فيمتلىء قلبى

(١) مسحه أمر يده عليه

سروراً به ، وعطفاً عليه ، فلما رأيتُ أنه يعذبنى عذاباً أليما ، ويُحمّلنى من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمّله الآباء أبناءهم ، علمتُ أنى وحيدةٌ فى هذا العالم ، وفهمت معنى الكلمةِ التى يناديني بها ، فألمَّ بنفسى من الحزن والألم ما الله عالم به ، وكنت كلما مشيت فى الطريق ، ورأيت فتاةً صغيرة سألتها : ألكِ أم ؟ فتجيبنى نعم ، ثم تقص علىّ من قصص نعمتها ورفاهيتها ، وعطفِ أمها عليها ، ورأفتِها بها ، ما يزيدُنى هما ، ويملأُ قلبى يأساً ، حتى كان يخيل الى أننى أذنبتُ قبل وجودى فى هذا العالم ذنباً عاقبنى الله عليه بهذا الوجود ، بَيْدَ أنى صبَرتُ على هذا الرجل ، وعلى ما كان يكلفنى به من التسول على قارعة الطريق ، إبقاءً على نفسى ، وضناً بحياتى، أن تغتالَها غوائلُ الدهر ، وكان كلما رأى حاجتى اليه وإلى مأواه اشتطّ فى ظلمى ، ولَؤُم فى معاملتى ، حتى صار يضربنى ضرباً مُبرِّحاً كلما عدت اليه عَشاءً بأقلَّ من المبلغ الذى فرض علىّ تقديمه فى كل يوم ، ولم أزل أصابره واحتمل منه ما يعجزُ عن

احتماله مثلى بُرهةً من الزمان حتى جاءنى الليلة بداهية الدواهى ، ومصيبة المصائب ، فقد حاول أن يسلبَ من بين جنبىّ جوهرةَ العفاف التى لم يبقَ فى يدى ما يعزينى عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها ، فلم أر لى بُداً من أن أفرّ من بين يديه متسللة تحت جنح الظلام من حيثُ لايرانى ، وما زلتُ أمشى على غير هدى ، لاأعرف لى مذهباً ولا مضطرَباً ، حتى أويت الى هذا الزقاق كما ترانى ، فهل لك ياسيدى أن تُحسنَ الىّ كما أحسن الله اليك ؟ وأن تبتاع لى رغيفاً من الخبز أتبلّغ به ، فقد مر بى يومان لم أذق فيهما طعاماً ولا شراباً ؟

لم يسمع الرجلُ من الفتاة هذه القصةَ المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدرُ على خديه انحدارَ العِقد وَهَى سلكُه فانتثر ، ثم اخذ بيدها ومشى بها صامتاً واجماً يكاد لايهتدى لسبيله حتى بلغ قصره ، وهنالك صنع بها صُنعَ الكريمِ بأهله ، وأبلغها من دهرها ما لم تكن

تُمنّى نفسَها بالوَشَلِ القليل منه ، وما هى إلا أيامٌ قلائلُ حتى ظهرتْ فى ذلك القصرِ العظيم فتاةٌ جديدة من أجمل الفتيات وجها ، وأرقهن شمائل ، وأكرمهن أخلاقا ، وأكملهن آدابا ، لايعرفُ الناس عنها سوى أنها ابنةُ قريبٍ لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة ، فكان إلى هذا القصر مَصيرُها

وكان لصاحب القصر فتاةٌ من الفتيات اللواتى رُبين التربيةَ الحديثة التى يسمونها « التربية العصرية » ويريدون منها التربيةَ الافرنجية ، فكان كل ما حصلت عليه من العلوم والمعارف الفنون الآتية :

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادِمها الزنجى ، وكلبِها الرومى

(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة

(٣) البراعة فى معرفة أى الأزياء أعلق بالقلوب ، وأجذب للنفوس

(٤) الكبرياء والعظمة ، واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها

(٥) الأثرة وحبّ الذات حباً يملأ قلبها غيرةً وحسداً ، حتى إنها لا تستطيع أن تسمعَ وصفاً من أوصاف الحسن يوصَفُ به سواها

رأتْ هذه الفتاةَ اللقيطةَ قد أصبحتْ تقاسمها قلبَ أبيها وقلوبَ زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمالٍ في الخلق ، وحلاوة في الطبع ، وعُذوبة في النفس ، فأضمرتْ لها في قلبها من البغض والموْجدة ما يضمره دائماً أمثالُها من اللواتي رُبين تربيتها ، ونهَجْنَ في الحياة منهجَها ، فكانت تتعمّد إساءتها وازدراءها ، وتُغْرِى بتبكيتها وتأنيبها ، والفتاةُ لا تبالى بشىء من هذا ، وفاءً لسيدها وولى نعمتها ، وذهاباً بنفسها عن النزول إلى منزلة من يغضبُ لمثل هذه الهنات ، حتى حدثتْ ذات يوم الحادثةُ الآتية :

دخل صاحبُ القصر قصرَه ليلة من الليالى ، فبينما هو

صاعد فى السلم إذ عثر بِرُقْعة ملقاة فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة

سيدتى : —

أنا منتظرُكِ عند مُنتصفِ الليل فى بُستان القصر تحت شجرة السَّرْو المعهودة ؟ (حبيبك)

فما أتم الرجل قراءة الرُّقعة حتى دارت به الأرض الفضاء ، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه أم لا يزال باقياً فيه ، ثم كأنه أراد أن يخففَ ما ألم بنفسه من الحزن والقلق فقال لعل ذلك الموعدَ مع تلك الفتاة اللقيطة ، ومن الظلم أن أتعجلَ باتهام ابنتى قبل أن أقفَ على الحقيقة ، فنظر فى ساعته فاذا الساعةُ قريبة ، فرجع أدراجَه وما زال يترفقُ فى مِشيته ويتنقل فى الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل إلى شجرة اللقاء فكمَن وراءها ينتظرُ ماخبأ له الدهرُ من حدَثاته وما أضمر له الغيبُ فى طياته

لم تكن الرسالةُ رسالةَ الفتاةِ الوضيعة ، بل رسالةَ السيدةِ الشريفة ، وبينما كانت الثانيةُ واقفةً فى غرفتها أمام مِرآتها تختارَ لنفسها أجملَ الأزياء وأليقَها بموقف اللقاء ،

كانت الأولى نائمةً فى غرفتها نوماً هادئاً مطمئناً لاتزعجه زورة الطَّيف ، ولاتروعه أحلامُ الشباب ، حتى سمعتْ وقعَ أقدام سيدِها على سُلّم القصر فاستيقظَتْ ، ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيثُ لا يشعرُ بمكانها فعرفت كل شئ ، وعلمت أن سيدَها سيقفُ على سر ابنته الذى كانت تعالج كتمانَهُ زمناً طويلا ، وأنه لابدّ قاتلٌ نفسه فى ذلك الموقفِ حزناً ويأساً ، فعناها من أمره ماعناها ، ثم أطرقت برأسها لحظةً تتلمّسُ وجه الحيلة فى دفع هذه النازلة ، وتَتطلب المخرجَ منها ، ثم رفعَت رأسَها وقد قررت فى نفسها أمراً

نزلتْ مسرعةً من سلم القصر فرأت الفتاةَ قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاةُ والتفتتْ إليها وقالتْ لها ماذا تريدين منى ؟ أتتجسسين علىّ ؟ قالت لها لا ياسيدتى ، وأفضت اليها بالقصة من مبدئها إلى مُنتهاها ، فسُقِطَ فى يدها وعلمت أن أباها قد وقف على سرّها ، فقالت لها لا تزعجى نفسكِ

فان أباكِ لايعلم أيتُنا صاحبة الكتاب ، فعودى إلى غُرفتِكِ وسأذهبُ إلى الموعد مكانك ، حتى إذا رآنى هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك فى أمرك

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة ، وهنالك برز الرجلُ من مكمنه واقترب منها حتى عرفها ، فحمِدَ الله على سلامة شرفهِ وشرفِ ابنته ثم قال لها :

أيتها الفتاة . إنى أحسنتُ إليكِ ، واستنقذتُك من يد البؤس والشقاء ، فأسأتِ إليَّ بما فعلتِ ، حتى كدتُ أُهلكُ الليلة حزناً وكمداً ، وأُلصِقُ بابنتى ذنبك ، وأحملُ عليها عارك ، فاخرجى من منزلى ، فاللئيمُ ليس أهلا للاحسان

فخرجت خائبةً تتعثرُ فى أذيالها حتى وصلت إلى شاطئ النهر ، وهنالك أخرجت مذكرتَها من محفظتها وكتبت فيها آخرَ كلمةٍ خطّتها أناملها : —

« أحمدُ الله أني قدرتُ على مكافأة ذلك الرجلِ الذى أحسن إلىّ بستر عارِه ، وإزالة همه وحزنه »

ثم ألقتْ بنفسها فى النهر ، وما هى إلا دورةٌ أو دورتان حتى افترق ذانِكَ الصديقان الوفيان ، جسمُها ورُوحُها ، فطفا منهما ماطفا ، ورسب مارسب

وفى صباح تلك الليلةِ عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدةِ فعرفوها وعادوا بها إلى منزل سيدها ، فبكاها بكاء كثيراً ، وندم على ما أساء به إليها من طردها وإزعاجها ، ثم أمر بدفنها ، ولم يبقَ فى يده من آثارها غيرُ حقيبتها ، فحفظها فى صُندوقه تذ كاراً لها

مرت الايامُ تِلْوَ الايام ، وجاءت الحوادثُ إثْرَ الحوادث وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعِها ، وتهتكها واستهتارِها ، مالم يكن يعرفُه من قبل ، حتى ضاق بأمرها ذَرْعاً ، وجلس فى غرفته فى إحدى الليالى يفكرُ فيما ساق إليه الدهرُ من خُطوبه ورزاياه ، ثم ألمّ به الضجرُ فقام إلى صُندوقه يفتش عن شىء يتلهى به فعثر بتلك الحقيبة ، ولم يكن قد

فتحها قبل اليوم ، فانه لَيقرأُ فيها إذ عثر بتلك الكلمةِ الأخيرةِ التى كتبتْها الفتاةُ على شاطىء النهر قبل موتها ، فما أتى على آخرها حتى عرف كلَّ شىء ، فسقطَ مغشِيا عليه يعالجُ من الحزن والألم مايعالجُ المحتضَرُ من سكَرات الموت

وما استفاق من غَشيته حتى صار يهذى هذيانَ المحموم ، ولبث على هذه الحال بضعةَ أشهر يمرضُ ثم يُبِل ، ثم يمرض ثم يُبِل ، حتى أدركَتْه رحمةُ الله فمرض مرضاً لم ينقضِ إلا بانقضاء أجله

فيأيها الوالدُ المجهولُ الذى قذف بتلك الفتاة البائسةِ فى بحر هذا الوجودِ الزاخر ، أعَلِمتَ قبل أن تفعل فَعلتك التى فعلتَ أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاةً تلاقى من شقائه وآلامه مالا قبل لها باحتماله ؟؟

ويأيها الاباءُ العظماء : إن كنتم تريدون أن تُسْلِمُوا بناتكم إلى هذه المدنّيةِ الغريبة تتولى عنكم شأنَهن ، وتكفلُ لكم تربيتَهن ، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائزَ الشهامةِ

والعزة ، والاباء والأنَفَة ، حتى إذا رزأكم الدهرُ فيهن ، وفجعكم فى أعراضهن ، وقفتم أمامَ ذلك المشهدِ هادئين مطمئنين ، لا تتعذبون ولا تتألمون

ويأيها الناسُ جميعاً : لا تحفِلوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ، ولا تفرقوا بين تربية الأكواخ ، وتربيةِ القصور ، ولا تعتقدوا أن الفضيلةَ وَقْفٌ على الاغنياء ، وحبائسُ على العظماء ، فقد علمتم ما أضمر الدهرُ فى طيات أحداثه من رذائل الشرفاء ، وفضائل اللقطاء

الصندوق

حضرة السيد الفاضل :

يوجدُ فى ضريح السيد البدوى صُندوقٌ توضع فيه النذورُ ، ويبلغ مجموعها فى العام نحوستةِ آلافِ جنيه ، فاذا فتح ذلك الصندوق يختصّ بعض الخلفاء بأخذ نحوِ الربع مما فيه ، والباقى يوزَّعُ على أصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدون بالمئات ، فهل ترون أن هذه القسمةَ شرعيةٌ ، معأن الذين يأخذون الألوفَ أغنياءُ ؟ والذين يأخذون الآحاد فقراء ؟ أفتنا أيها السيدُ الفاضلُ بمايوجبهُ الانصافُ والعدل الدينىُّ فى هذه المسئلةِ التى أصبحتْ الشغلَ الشاغلَ للكثير من الناس ؟

(ابن جلا)

أيها السائل :

أراك تسألني عن القسمة الشرعيةِ في هذا المال كأنك تعتقدُ أنه ميراث شرعي ، وأن لهؤلاء الذين تسميهم أصحابَ الأنصبة من الحق في هذا المال مثلَ ما للوارثين في مال المورِّثين

إن الذي أعلمُه أن هذا الحقَّ المزعومَ حقٌّ موهوم ، لا يستطيعُ أن يحملَه الحاملُ على وجه من الوجوه الشرعية ، لأن الذين يضعون المالَ في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك أن يهبوه أحداً من السدَنة والخدم ، ولو أن ذلك كان غرضَهم لوضعوه في أيديهم بدلا من الصندوق ، ولكنهم لما تصوروا أن ذلك الميتَ حيٌّ في قبره يسمعُ نجواهم ، ويفهم حديثَهم ، ويلبي دعاءهم ، تجسم في نظرهم هذا الخيال ، فأرادوا أن يُعطوه جميعَ أحكامِ الأحياء وصفاتهم ، حتى حبَّ المال وادخاره ، فخيل إليهم أن الصندوقَ من الميت بمنزلة الكيس من الحي ، فهم يهبونه المالَ ، ويضعونه

فى صُندوقه ، لانهم يعجزون عن وضعه فى يده

أما كيفيةُ تصرُّفِ الميت بهذا المال ، وكيف ينفقهُ ، وفى أى شىء ينتفعُ به ، فذلك أمرٌ لايخطرُ ببالهم ، ولا يدخل فى باب مَقصِدهم وأغراضِهم

فان وجد بينهم من يعلمُ أن مرجعَ هذا المالِ الى سَدَنة الضريح وخدمتِه فعامُه هذا لايستفاد منه أنه يهبُه لهم ، أو يمنحُه إياهم ، لانهم لو أرادوه على أن يُعطيَهم ذلك المال ، أو يعطيَهم بعضَه ، ويستبقى لنفسه البعضَ الباقى ، لما وسعه ذلك ، ولا رأى إنْ فعَلَه أنه عمل عملا صالحا

بل هو يعتقدُ أن أخذَهم المالَ من الصندوق بعد أن يضعه فيه أمرٌ لاعِلاقةَ له به ، ولا شأنَ له فيه ، لأن المال قد خرج من يده الى صاحبِ الضريح ، وصاحبُ الضريحِ يتصرفُ فى ماله كيف يشاء

فهو فى جميع حالاته وشؤونه لايهَبُ هبةً صحيحة ، ولا يتصرفُ تصرفا شرعياً ، ولايضعُ صدَقةً فى موضعها ،

ولا يطرقُ باباً من أبواب البِرِّ المسنونة

وعندى أن مثلَ هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه الى غير يد ، وانقطعت ملكيتُه الاولى من حيثُ لم تقم مقامَها ملكيةٌ أخرى ، يعتبر مالا مهملا ، لاصاحب له ، ولا علاقة لأحد به

وأحسنُ الحالاتِ الشرعية والعقلية فى مثل هذا المالِ أن يُنفقَ فى مصارفِ الصدقات التى اعتبرها الشارعُ واعتمدها ، وافتتحها بأداة الحصر التى تمنعُ غيرَها من الاشتراك معها فى حكمها فى قوله تعالى « إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكينِ والعاملين عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهم وفى الرِّقاب والغارمين وفى سبيل اللهِ وابنِ السبيل »

فان كان بين هؤلاء المتظلمين من قلة أنصبتهم فى ذلك الصندوقِ ذوحاجةٍ فهو داخلٌ فى قسمه من الآية الشريفة ، فله الحقُّ فى ذلك المالِ من حيثُ كونُه فقيراً مُعدماً ، كعامة فقراء المسلمين ، لامن حيثُ أن له صلةً

بصاحب الضريح تسوغ له أن يكون من ذوى الأنصبة والسهام فى صندوقه ، فان أمثال هذه الصلات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى ، فلا هيا كلُ اليوم ولا سدَنة ، ولا وُسَطاء ولا شفعاء ، ولا أقراط تُعلق فى آذان الاصنام ، ولا عقود تقلد بها أعناقُ الأوثان ، ولا مال يوضعُ مع الموتى فى قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من مراقدهم ، وإنما الناسُ جميعاً سواء بين يدى الله سبحانه وتعالى ، لافضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى ، ولا زُلْفَى لأحد يزدلفُ بها اليه إلا يقينُه وإيمانُه ، وبِرُّه وإحسانُه

ذلك ما أراه فى هذه المسئلة وهذا ما أعتقدُه فيها ، ولا أعلمُ إن كنتُ أرضيت الناس فيما كتبتُ أو أغضبت ، وإنما أعلم أننى أرضيتُ ضميرى وخالقى ، وحسبى ذلك وكفى

الغناء العربى

الغناء بقيةُ خواطرِ النفس التى عجز عن إبرازها اللسانُ، فأبرزتْها الألحانُ. فهو أفصحُ الناطقين لساناً، وأوسعُهم بياناً، وأسرعُهم نفاذاً إلى القلوب، وامتزاجاً بالنفوس، واستيلاء على العقول، وأخذاً بمجامع الأفئدة، وبيان ذلك أن النطقَ ثلاثُ طبقات، تختلفُ درجاتُها باختلاف درجات الابلاغ والتأثير فيهـا، فأدناها النثر، وأوسطُها الشعر، وأعلاها الغناء، فلو أن عاشقا برَّح به الهجرُ مثلا فأراد أن يُبلِّغك ما فى نفسه من ذلك، فان قال لك إنى مهجورٌ فحسبُ، فقد أبلغك بعضَ ما فى نفسه، وترك فى قلبك من الأثر بمقدار ماتحتمله طبقةُ النثر من التأثير، وإن أنشدك قولَ الشاعر: —

فوا كبدا من حُبِّ من لايحبُّنى
ومن زفرات ما لهن فَناء

أو قولَ الآخر : —

كأنَّ قَطاةً علقتْ بجنَاحها
على كبدى من شدة الخفقان

فقد سلك بك طريقَ الخيال، وصور لك خواطرَ نفسه بصورةٍ أوضحَ من الصورة الاولى، وترك فى نفسك أثراً أعظمَ من الأثر الاول، وإن رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل .

وارحمتا للغريبِ بالبلد النا
زح ماذا بنفسِهِ صنعا
فارق أحبابَه فما انتفعُوا
بالعيش من بعده ولا انتفعا

فقد صور لك قلبَه كما هو، وألمسك موضعَ الألم والحزن منه، فبلغ بك التأثيرُ منتهاه وربما بكيتَ عند

سماعه حزناً ورحمة ، وما بكيتَ إذ بكيتَ إلا لأن الغناء لم يُبقِ بقية من خواطر هذه النفسِ القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها ، وكما أن الأبياتَ قيودُ المعانى ، كذلك الالحان قيود الابيات ، فلا يزال المعنى مشرَّداً ههنا وههنا حتى يحتويَه بيتٌ من الشعر فاذا هو مستقر فى مكانه،ثم لا يزال البيتُ يتجانفُ عن الآذان ذاتَ اليمين وذات الشِّمال حتى يقودَه الصوتُ الحسنُ فاذا هو مستودعٌ فى الصدور

والغناء فنٌّ من الفنون الطبيعية تهتدى اليه الأممُ بالفِطرة المترنمة فى هدير الحمام ، وخريرِ المياه ، وحفيف الأشجار ، فمن أبكاه الحمامُ غرد تغريدَه كلما أراد البكاء ، ومن أطربه صوتُ الناعورة رن رنينَها ليطربَ جملَه أو ناقتَه ، فينشطان للمسير ، وما زال هذا الفن متبديًا ببداوة الأمةِ العربية لايكادُ يتخطى فيها حداء الجمال ، ومناغاة الأطفال ، حتى اذا انتقلت من مضيق الحاجيات ، الى منفسح الكماليات ، توسعت فيه ، وزادت فى أنغامه ،

وضربه، وتفننت فى آلاته وأدواته، وكذلك كان شأن العرب فى جاهليتهم، ينظمون أشعارَهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنة، فالبيتُ يوازنُ البيتَ فى ترتيب الحركاتِ والسكنات وتعدادها، والشطرُ والتفعيلةُ يوازنان الشطرَ والتفعيلةَ كذلك، فكأنما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا فى الشعر ألحانا موسيقية، غير أن معارفَهم لم تكن تتسعُ لأكثرَ من هذا النوع من الموسيقى، وهو نوعُ التناسبِ الشعرى الذى هو قطرة من بحرِ هذا الفن الزاخر، ثم استمر شأنُهم على هذا حتى جاء الاسلام واختلطت الأمةُ العربيةُ بالامة الفارسيةِ التى كان لها من حضارتها وتمدينها متسعٌ للبراعة فى هذا الفن، ومُنتدَح فى مناحيه ومقاصدِه، ووفد الكثيرُ من مغنى الفرس والروم موالىَ فى بيوت العرب وفى أيديهم العيدان والطنابير، والمعازفُ والمزامير، يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية، فسمعها منهم العربُ فاقتبسوها، ولحنوا بها أشعارَهم تلحيناً بزُّوا فيه أساتذتَهم،

وولدوا ألحاناً وأنغاماً لم يؤت بهم من قبلهم ، شأنهم فى جميع الفنون والصنائع التى كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجالٌ أذكياء كان لهم الفضلُ الباهرُ فى تقدم الغناء واتساعهِ مثل ابن سُريج ، ومُخارق ، وطُويس ، وابرهيم الموصلى ، وابنه اسحاق ، وابرهيم بن المهدى ، ومعبد الذى طالما ضربتْ به وبحسن صوته الأمثال على ألسنة فحول الشعراء ، كقول أبى عُبادة البُحترِى فى وصف فرس كان أهداه اليه أحدُ الأمراء : —

هَزِجِ الصهيلِ كأن فى نبراته نغماتِ مَعبد فى الثقيلِ الأول

والثقيلُ والخفيفُ الأول والثانى أسماء اصطلح عليها العربُ ومرجعها إلى حركات الأصابعِ الخمسِ فى أوتار العُود الخمسة شدةً وضعفاً ، وما أحسن قول أبى العلاء المعرى : —

ولقد ذكرتُكِ يا أُمَيْمةُ بعدما
نزل الدليلُ إلى الترابِ يَسوفُه[1]

(١) ساف التراب اشتمه ، يريد أنه ذكر حبيبه فى أعظم أوقات شدته وهو وقت ضلال الركب ونزول الدليل لشم التراب ليستدل منه على الأرض

وهواكِ عندى كالغناء لأنه

حسنٌ لدىّ ثقيله وخفيفُه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضتهِ فى ذلك العهد ، عهدِ الصدرِ الأول ، وشدتهِ فى النّهى عن التلهى بالغناء والعزفِ والزمر وأمثالها ، ونعيه على من يحترفُ ذلك أو يتخلقه ، فقد كان للمغنين الشأنُ الرفيع فى مجالس الخلفاء والأمراء ، والنصيب الأوفر من جوائزهم وصلاتهم ، ولا غرو فى ذلك ، فسلطانُ الوجدانِ ، فوق سلطانَ الأديان ، ولقد بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن إسحقَ الموصلى شتم إبراهيمَ بنَ المهدى فى حضرة أخيه الرشيد غير هيَّابٍ ولا وجِلٍ فما استطاع أخ الخليفةِ أن ينتصف لنفسه منه هيبةً وإجلالا ، وكان ابنُ عائشةَ المغنى لايغنى إلا لملِكٍ ، أو ولىّ عهده حتى كان الخليفة إذا أراد أن يختارَ من بين أبنائه من يعهدُ إليه بالأمر من بعده لايكتبُ له بذلك عهداً ، بل يأذن لابنِ عائشةَ أن يغنى عنده ، فلاتطلعُ

عليه شمسُ الغدِ حتى يفدَ الناسُ اليه يهنئونه بولاية العهد ، فان دعاه الى الغناء لديه أمير أو وزير وَجد من قوة الدالة بنفسه مايدفعُ به الطلب عنه ، ويروى أن ابنَ عتيق وهو من نعلمُ فى شرف البيت وجلال المحل رأى ابنَ عائشة يوماً وحلقه مخدوش ، فقال من فعل بك هذا ، قال فلان ، وأشار إلى ضاربه ، فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتلبيبه (١) وجعل يضربه ضرباً موجعاً ، والرجل يصيحُ أى شئ صنعت ؟ وما ذنبى إليك ؟ وهو لايجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناسُ فحالوا بينه وبينه وسألوه عن ذنبه ، فقال إنه أراد أن يكسرَ مزماراً من مزامير داود ، يريد أنه خنق ابنَ عائشة وخدشَه فى حلقه ، ومما يروى من حوادث تيهه وترفعهِ أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه : —

أبعدكَ مَعقلا أرجُو وحِصناً قد اعيتْنى المعاقلُ والحصون

(١) التلبيب ما فى موضع اللبب من الثياب أى مايدور بالعنق من القميص ونحوه

فأطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثيرٍ من الثياب ، فبينما هو يسيرُ إذ نظر إليه رجل من أهل وادى القُرى كان يشتهى الغناء فدنا من غلامه وقال مَن هذا الراكبُ المختال ؟ قال ابنُ عائشة المغنى ، فدنا منه وقال جعلتُ فداءك أنت ابن عائشة ؟ قال نعم ، قال عائشة أم المؤمنين ، قال لا ، أنا مولى لقريش وعائشة أمى ، وحسبك هذا فلا تكثرْ ، قال وما هذا الذى بين يديك ؟ قال غنيتُ أميرَ المؤمنين صوتاً فأطربتُه فأمر لى بهذا المالِ وهذهِ الكسوةِ ، قال جعلتُ فداءك هل تمنّ علىَّ بأن تسمعَنى ما أسمَعته إياه ؟ فقال له ويلك أمثلى يُكلَّم بمثل هذا فى الطريق ؟ قال فما أصنع ؟ قال الحقْنى إلى المنزل ، يريد مخاتلتَه والنجاةَ منه ، وحرك بغلةً شقراءَ تحته لينقطعَ عنه ، فعدا معه حتى وافيا المنزل كفرسَى رهان ، ودخل ابنُ عائشة فمكث طويلا طمعاً فى أن ينصرفَ فلم يفعلْ ، فلما أعياه قال لغلامه أَدخِلْه ، فلما دخل قال له من أينَ صبّكَ اللهُ علىّ ؟ قال أنا رجل من أهل وادى القُرى أشتهى

هذا الغناء ، قال له هل لك فيما هو أنفعُ لك منه ؟ قال وما ذاك ؟ قال مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرفُ بها إلى أهلك ، فقال له جعلت فداءك والله إن لى لَبُنَيةً ما فى أذنها علم الله حلقةٌ من الورِق (١) وإن لى لزوجةً ما عليها يشهد الله قميصٌ ، ولو أعطيتنى جميعَ ما أمر لك به أميرُ المؤمنين على خَلتى وحاجتى لكان الصوتُ أعجبَ إلىّ منه ، وما زال به حتى رحمه ابنُ عائشة وغناه الصوتَ بعد لأى (٢) فطرب له الرجلُ طرباً شديداً وجعل يحرك رأسه وينطحُ بها الجِدار حتى خيف أن يندقّ عنقُه ، ثم انصرف ولم يرزأه فى ماله شيئاً

وفى هذا الحديثِ فوق الغرض الذى سقناه له ما يدلّ على أن الغناء العربى كان قريباً الى القلوب وأنه كان منها بمنزلة الاصابع من الأوتار ، فاذا لمسها رنت رنينَ الثكلى المرزوءةِ فى واحدها ، وأن الوجدانَ العربىّ وجدانٌ رائق شفاف تأخذُ منه مختلفات الأنغام ، فوق ماتأخذُ الكهرباء

(١) الورق الفضة (٢) اللأى الجهد

من الأجسام، كما تبلغُ منه نظراتُ الغرام، فوق ما تبلغُ من عقل شاربها المُدام

وكانت الأصواتُ عندهم تُنسب الى واضعيها وتسمى بأسماء أصحابها كما هو الشأنُ فى الشعر، فيقال صوتُ إسحقَ أو معبد، كما يقال شعرُ مسلم أو بشّار. وكان المغنى أحرصَ على صوته من الكريم على عِرضه، فاذا صنع صوتاً لا يسمح لأحد من المغنين بأخذه عنه حتى يغنيَه مراراً وتعرف نسبته إليه، كما يفعلُ اليوم المخترِعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمُخترعاتهم ومصنوعاتهم. وكان لاسحق الموصلى القدرةُ الغريبة على مخاتلة المغنين عن أصواته، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحولُ منهم أن يأخذوه بعد ما سمعوه منه أكثرَ من سبعين مرة فما استطاعوا الى ذلك سبيلا، وكانت مجالسُ الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالسَ علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه، فكان أحدهم لا يحجمُ إن رأى فى صوت صاحبه مأخذاً أن يفجأه بالانتقاد ويبينَ له مواضع الخطأ

مهما عظم شأنُ المجلس وشأنُ صاحبه ، وكانت تقع بينهم المنافساتُ الشديدة فى ذلك كما تقع بين العلماء فى مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء العربى كان له عند العرب صبغةٌ جدية فوق صبغة اللهو ، وان الغربيين فى هذا العهد ليسوا بأعلمَ بصناعة الغناء ولا أقومَ على أمرها من العرب فى ذلك العهد ، ولو أن العرب توسعوا فى فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغايةَ التى لاغاية وراءها ، ولكنهم كانوا قَلما يحفلون بادخاله فى الأغراض العاليةِ كالحروب والشؤون الوطنية وأمثال ذلك من المناحى والمقاصدِ الا قليلا ، كما ورد فى تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكةِ لما أرادوا الايقاعَ بهم وعلموا أن سبيل الوشايات بهم الى الرشيدِ سبيلٌ وعرٌ دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبى ربيعة:—

ليت هنداً أنجزَتنا ما تعد وشفَتْ أنفسَنا مما تجد
واستبدتْ مرةً واحدةً إنما العاجزُ من لايستبد

فحرك ذكرُ العجزِ والاستبداد ما كان كامنا فى نفس

الرشيدِ من شعوره بسلطان البرامكةِ عليه واستبدادِهم بالامر من دونه ، فقال عند تمام الصوت « نعم إنى عاجز » ثم كان من أمره معهم بعد ذلك ما كان ، ولقد مضى الصدرُ الأولُ من الاسلام وشأن فن الغناء العربى هذا الشأن العظيم خصوصاً فى أواخر الدولة الاموية وأوائلِ الدولة العباسية ، ثم أخذت شمسهُ الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى أصبح فى حضارة الاندلس قدوداً وموشحات ، بعد أن كان قصائد ومقطعات ، فكان لايسمعُ أبناء العرب فى ذلك العهد إلا قول المغنى « كُحل الدجى يجرى ، من مُقلة الفجر ، على الصباح ، ومعصم النهر ، فى حلل خضر ، من البطاح » أو قوله « كللى ، ياسحبُ تيجان الربى ، بالحلى ، واجعلى ، سوارها منعطف الجدول » وليت الامرَ وقف عند هذه الموشحات فانها وإن لم تكن شعريةَ اللفظِ فهى شعرية المعنى عالية الخيال ، وهى على علاتها خيرٌ من شعر العامة الذى قضى

عليهم فسادُ اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغنى به كالزجل والمواليا والقوما والدوبيت وكان ويكون وغير ذلك مما يُسمى فى عهدنا هذا بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها

فهل لجماعة المغنين فى عصرنا أن يعفونا من «أحب جميل طبعه الدلال» ومن «ياحلو صن عهد ودادى الله يصونك» ويأخذوا بنا فى مسلكٍ أشرفَ من هذا المسلك، ويعيدوا للغناء العربى عهدَه الأول كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر، فلقد كان الشعرُ والغناء أخوين أليفَين، رضيعَى ثدى، وضجيعَى مهد، ثم ضربهما الدهرُ بضرباته فافترقا، فماذا علينا لو قصرنا مسافةَ البعد بينهما، وماذا على المغنين والشعراء فى مصر لو عقدوا بينهم عهداً أن يهذبوا أخلاقَ أمتهم ويرفعوا شأنها ليكون لهم من الفضل فى نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفةُ والحكماء، فينظم الشاعرُ المقطعاتِ الرقيقة العَذْبةِ السائغة فى فضائل الأعمال ومكارم

الأخلاق ، كالشجاعة والشهامةِ والشرف وحُبّ الوطنِ والاتحادوالتزهيدِ فى صغائر الامور ، والترغيبِ فى عظائمها ، فيأخذها منه المغنى ولا يتكلف فى تلحينها أكثر مما يتكلفه فى تلحين سواها من الأدوار والمواويل ، ثم يغنيها فى الناس غير مُبالٍ بما يفاجئه به ضعفاء النفوس الجامدون من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف فى مَبدئه ، وفى اعتقادى أن لهذه الطريقةِ من الأثر الحسنِ فى نفوس العامة ، وتهذيبِ أخلاقِهم وطباعهم ، وتقويمِ ألسنتهم وعقولهم ، مايخلدُ للملحنين والمغنين أجمَل ذكرٍ فى تاريخ عظماء الرجال

التوبة

علم فلانٌ وكان شابا من شبان الخلاعةِ واللهو ، وقاضيا من قضاةِ المحاكم ، أن المنزلَ الذى يجاورُ منزلَهُ يشتملُ على فتاةٍ حسناءَ من ذوات الثَّراء والنعمة والرفاهيَة والرغد ، فرنا اليها النظرة الأولى فتعَلقها ، فكررها أخرى فبلغتْ منه ، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا وقد خُتِمت روايتُهما بما تُختم به كلُّ رواية غرامية يمثلها أبناءُ آدمَ وحواء على مسرح هذا الوجود

عادت الفتاةُ إلى أهلها تحملُ بين جنبيها هما يضطربُ فى فؤادها ، وجنينا يضطرب فى أحشائها ، ولقد يكونُ لها إلى كتمان الأول سبيلٌ ، أما الثانى فسر مُذاع ، وحديثٌ مشاع ، إن اتسعتْ له الصدور ، لا تتسعُ له البطون ، وان ضن به اليوم ، لا يضن به الغد

ذلك ما أسهر ليلَها ، وأقضّ مضجعَها ، وملك عليها وجدانَها وشعورَها ، فلم ترَ لها بداً من الفِرار بنفسها ، والنجاة بحياتها ، فعمَدت إلى ليلة من الليالى السوداء فلبستها ، وتلفعتْ بردائها ، ثم ألقتْ بنفسها فى بحرها الأسود ، فما زالت أمواجُها تترامى بها حتى ألقتها إلى شاطىء الفجر ، فاذا هى فى غرفة صغيرة فى إحدى المنازل البالية ، فى بعض الأحياء الخاملة ، وذلك الجنين المضطرب

كان لها أمٌّ تحنو عليها ، وتتفقدُ شأنها ، وتجزع لجزعها ، وتبكى لبكائها ، ففارقتْها ، وكان لها أبٌ لاهم له فى حياته إلا أن يراها سعيدةً فى آمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت منزلَه ، وكان لها خدمٌ يقمْنَ عليها ، ويسهرن بجانبها ، فأصبحت لا تسامر غيرَ الوَحدةِ ، ولا تساهر غير الوحشة ، وكان لها شرفٌ يؤنسها ، ويملأ قلبَها غبطةً وسروراً ، ورأسَها عظمة وافتخاراً ، ففقدتْه ، وكان لها أملٌ فى زواج سعيد ، من زوج محبوب ، فرزأتْها الأيامُ فى أملها

ذلك ما كانت تناجى نفسها به صباحها ومساءها، بكورها وأصائلها، فاذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها، وسبب أحزانها، علمت أنه ذلك الفتى الذى وعدها أن يتزوجها فخدعها عن نفسها ولم يف بعهده لها، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها، ويأخذ مكانه من نفسها، حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى، لانه قتلها، وعلى المجتمع الانسانى، لانه لا يأخذ القاتل بجريمته، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين

وما هى الا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها، أو يساعدها على خطبها، غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فمشت اليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها

ما تكابد ، وتعاني من صروف دهرها ما تعاني

ولقد ضاق صدرُها ذرعاً بهذا الضيف الجديد ، وهو أحبّ المخلوقات اليها ، وأكثرُهم قرباً الى نفسها ، فجلستْ ذات ليلةوقد وضعت طفلتَها النائمة على حِجرها ، وأسندت رأسها الى كفها ، وظلت تقول : —

ليت أمي لم تلدْني ، وليتني لم أكن شيئاً

لولا وجودي ما سعدتُ ، ولولا سعادتي ما شقيت

إن كان في العالم وجودٌ أفضلُ منه العدمُ فهو وجودي

لقد كان لي قبل اليوم سبيلٌ الى النجاة من هذه الحياة ، أما اليوم وقد أصبحتُ أُمّا فلا سبيل

أأقتلُ نفسي فأقتلَ طفلتي ؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياةَ المريرة ؟

لا أحسب أن الموتَ تاركي حتى يذهبَ بي إلى قبري ، فماذا يكون حالُ طفلتي من بعدي ؟

إنها ستعيشُ من بعدي ، وتشقى في الحياة شقائي ،

لا لذنبٍ جنيته، ولا لجريمة اجترمتها، سوى أننى أمّها

هل تعيشين أيتها الفتاةُ حتى تغفرى لى ذنبَ أمومتى حينما تسمعين قصتى، وتفهمين شَكاتى؟

لم يبق فى يدى يابنيتى من حلاى إلا قليلٌ سأبيعه كما بعتُ سابقه، فماذا يكون شأنى وشأنُك بعد اليوم؟

محال أن أعود إلى أبى فأقصّ عليه قصتى، لأنه لم يبق لى مما يعزينى عن شقاء العيشِ وبلائه إلا أن أهلى لا يعرفون شيئاً عن جريمتى، فهم يبكوننى كما يبكون موتاهم الأعزاء، ولَأنْ يبكوا مماتى، خيرٌ لى ولهم من أن يَبكوا حياتى

وكذلك ظلت تلك البائسةُ المسكينة تحدثُ نفسَها تارة، وطفلتَها أخرى، بمثل هذا الحديثِ المحزن الأليم، حتى غلبها صبرُها على أمرها، فأرسلتْ من جفنَيها قطراتٍ حارة من الدموع هى كلّ ما يملك الضعفاءُ العاجزون، ويقدر عليه القانطون اليائسون

دارت الأيامُ دورتَهـا، وباعت الفتاة جميعَ ما تملك

يدُها ، وما يحمل بدنُها ، وما تشتمل عليه غرفتها ، من حلى وثياب ، وأثاثٍ ورياش ، ولم يبق لها إلا قمصُها الخلَقُ وملاءتها وبرقعُها ، ولم يبق لطفلتها الا أسمالٌ باليات تنم عن جسمها نميمةَ الوجه عن السريرة ، فكانت تقضى ليلها شر قضاء ، حتى إذا طار غرابُ الظلام عن مِجثمه أسبلتْ برقُعَها على وجهها ، وائتزرت بمئزرها ، وأنشأت تطوف شوارع المدينة ، وتقطع طرقَها ، لاتبغي مقصداً ، ولا تريد غاية ، سوى الفرارِ بنفسها من همها ، وهمُّها لايزال يسايرُها ، ويترسم مواقعَ أقدامها

وأحسبَ أن عجوزاً من عجائز المواخير رأتْها فألمتْ ببعض شأنِها فاقتفت أثرَها حتى دخلت غرفتَها ، فوغلت عليها ، وسألتها ما خطبُها ، فأنست الفتاةُ عند رؤيتها ، وكذلك يأنس المصدور بنفثاته ، والبائسُ بشكاته ، فأصْحرتْ لها بسرها ، وألقت إليها بخبيئة صدرها ، ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها ، ولا حادثاً من حوادث بؤسها ، لم تحدثْها به ، فعرفت الفاجرةُ محنتَها ، ورأت بعينها

ذلك الماءَ من الحسن الذى يجولُ فى أديم وجهها ، جولانَ الراح فى زجاجتها وعلمت أنها إن أحرزتها فى منزلها فقد أحرزتْ غنى الدهر ، وسعادةَ العمر ، وما هو إلا أن أرسلت اليها بعض عقاربها ، ونفثت فى نفسها بعض رُقاها ، حتى غلبتها على أمرها ، وقادتْها إلى منزلها ، وما هى إلا عشيةٌ أو ضُحاها ، حتى بلغت بها الغايةَ التى لا مفرّ لها ولا لأمثالها من بلوغها

عاشت تلك البائسةُ فى منزلها الجديدِ ، عيشاً أشقى من عيشها الأول فى منزلها القديم ، لأنها ما كانت تستطيعُ أن تصل إلى لقمتها ، وهى كل ما حصلت عليه فى حياتها الجديدة ، إلا إذا بذلت راحتَها ، وشرّدَتْ نومها ، وأحرقت دماغَها بالسهر ، وأحشاءها بالشراب ، وصبرتْ على كل من يسوقُه إليها حظُّها من سباع الرجال وذئابهم ، على اختلاف طباعهم ، وتنوع أخلاقهم ، لأنها لم تر لها بداً من ذلك ، فاستسلمت استسلام اليائس الذى لم تترك له ضائقةُ العيش إلى الرجاء سبيلا

ولو أن الدهرَ وقف معها عنـد هذا الحد لهان الأمر ولألِفت الشقاء ومرنت عليه ، كما يألفُه ويمرن عليه كلُّ من سار فى الطريق التى سارت فيها ، ولـكنه أبى ألا أن يسقيَها الـكأس الأخيرة من كؤوس شقائه ، فساق إليها ذئباً من ذئاب الرجال كان ينقمُ عليها شأناً من شؤون شهواته ولذاته فزعم أنها سرقتْ كيسه فى إحدى لياليـه التى قضاها عندها ، ورفع أمرها إلى القضاء ، واستعان عليها ببعض أترابِها الساقطاتِ اللواتى كن يحسدْنَها ، وينفسْن عليها حسنها وبهاءها ، حتى دانها

جاء يومُ الفصل فى أمرها فسيقتْ إلى المحكمة وفى يدها فتاتُها ، وقد بلغت السابعةَ من عمرها ، فأخذ القاضى ينظرُ فى القضايا ويحكم فيهـا بما يشاء حتى أتى دور الفتاة ، فما وقفتْ بين يديه ، ووقع بصرها عليه ، حتى شُدِهت عن نفسها ، وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهبُ برشدها ، ذلك أنها عرفته وعرفت أن ذلك الفتى الذى كان سببَ شقائها ، وعلةَ بلائها ، فنظرتْ إليه نظرةً

شزراء ، ثم صرخت فى وجهه صرخة دوّى بها المكان دوياً وقالت :

رُويدك يامولانا القاضى ، ليس لك أن تكون قاضياً فى قضيتى ، فكلانا سارقٌ ، وكلانا خائن ، والخائنُ لايقضى على الخائن ، واللص لايصلحُ أن يكون قاضياً بين اللصوص

فعجب القاضى والحاضرون لهذا المنظرِ الغريبِ ، وغضب لهذه الجُرْأةِ العجيبة ، وهم أن يدعوَ الشرطىَّ لاخراجها ، فحسرت قِناعَها عن وجهها ، فنظر إليها نظرة ألمَّ فيها بكل شئ ، فشعر بالرعدة تتمشى فى أعضائه ، وسكن فى كرسيه سكون المحتضَر فى سرير الموت ، وعادت الفتاةُ إلى إتمام حديثها فقالت :

أنا سارقةُ المال ، وأنت سارقُ العِرض ، والعرضُ أثمن من المال ، فأنت أكبرُ منى جنايةً ، وأعظم جرما

إن الرجل الذى سرقتُ ماله يستطيع أن يعزىَ نفسه عنه باسترداده أو الاعتياضِ منه ، أما الفتاةُ التى سرقتَ

عرضها فلا عزاء لها ، لأن العرض الذاهب لا يعود

لولاك ما سرقتُ ، ولا وصلتُ إلى ما إليه وصلت ، فاتوك كرسيك لغيرك ، وقف بجانبي ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرُها ، وأنا المسخرةُ فيها

إنّ شريعةً تعلمُ أننا شركاء فى جريمة واحدة ، ثم تأتى بنا إلى هذا المكان ، فتقفُ أحدَنا فى أشرف المواقف ، وتقف الآخرَ فى أدناها ، لَشريعةٌ ظالمة ، ليس بينها وبين العدل نسبٌ موصول ، أو ذمام غير منقضب

رأيتكَ حين دخلتَ هذه القاعةَ وسمعت الحاجبَ يصرخ لمقدمك ، ويستنهضُ الصفوفَ للقيام لك ، ورأيتُ نفسى حين دخلتُ والعيون تتخطاني ، والقلوب تقتحمنى ، فقلت ياللعجب !!! كم تكذبُ العناوين ، وكم تخدع الألقاب وكم يعيش هذا العالم فى ضلالةٍ عمياء ، وجهالةٍ جهلاء

بخٍ بخٍ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادة ، شهادةَ العلم والفضل ، والأخلاقِ والآداب ، ومرحى ومَرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ، ووضعوا بين يديك

هذا القانونَ ، ووقفوا أمامك هذا الشرطيَّ يأتمرُ بأمرك ، وينزلُ على حكمِك

إن تحت هـذه الثيابِ التي تلبسونها مَعشر القضاة نفوساً ليستْ بأقلَّ من نفوسنا شراً ، ولا أخبثَ منها مذهباً ، وربما لا يكونُ بيننا وبين الكثير منكم فرقٌ إلا في العناوين والألقاب ، والشمائلِ والأزياء

أتيتَ بي إلى هنا لتحكم عليَّ بالسجن ، كأن لم يكفِك ما أسلفتَ إليَّ من الشقاء ، حتى أردتَ أن تجيء بلاحق ، لذلك السابق

ألم أُحسنْ إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها ؟ ألستَ إنساناً ذا شعور وإحساس فترثيَ لشقائي وبلائي ؟ إن لم تكن عندي وسيلةٌ أمُتُّ بها اليك ، فوسيلتي عندك ابنتك هذه ، فهي الصلةُ الباقيةُ بيني وبينك

فرفع القاضي رأسه ونظر إلى ابنته الصغيرةِ نظرةَ رحمةٍ وإشفاق ، وقد قرر في نفسه ألاّ بد له من أن ينصفَ

تلك البائسة ، وينتصفَ لها من نفسه ، غير أنه أراد أن يخلصَ من هذا الموقفِ خلوصاً جميلا ، فأعلن أن المرأةَ قد أُصيبتْ بدخَل فى عقلها ، وألا بد من إحالتها على الطبيب ، فصدّق الناسُ قولَه

ثم قام من مجلسه بنفسٍ غيرِ نفسه ، وقلب غير قلبه ، وما هى إلا أيامٌ قلائلُ حتى استقال من مَنصبه بحجة المرض ، ولم يزل يسعى سعيَه حتى ضم إليه ابنتَه ، واستخلص أمها من قرارتها ، وهاجر بها إلى بلد لا يعرفُهما فيه أحد ، فتزوج منها ، وأنس بعشرتها ، واحترف فى دار هجرته حرفةً لولا مخافةَ أن أدلَّ عليه إذا ذكرتُها لذكرتُها ، ولا يزال حتى اليوم يكفّرُ عن سيئاته إلى زوجته بكل مايستطيعُه من صنوف الرعاية ، وأنواعِ الكرامة ، حتى نسيا مافات ، ولم يبق أمامهما إلا ماهو آت

الحسد

لو عَرف المحسودُ ما للحاسد عنده من يد ، وما أسدى إليه من نعمة ، لأنزله من نفسه منزلةَ الأوفياء المخلصين ، ولوقف بين يديه تلك الوقفةَ التى يقفُها الشاكرون ، بين أيدى المحسنين

لا يزالُ صاحبُ النعمة ضالا عن نعمته لا يعرفُ لها شأناً ، ولا يقيم لها وزناً ، حتى يدلّه الحاسدُ عليها بنكرانها ، ويرشدَه إليها بتحقيرها ، والغضّ منها ، فهو الصديقُ فى ثياب العدو ، والمحسنُ فى صورة المسىء

أنا لا أعجبُ لشىء عجبى لهذا الحاسد ، ينقِمُ على محسوده نعمَ الله عليه ، ويتمنى لو لم تبق له واحدةٌ منها ، وهو لا يعلم أنه فى هذه النقِّمة ، وفى تلك الأُمنِية ، قد أضاف إلى نعم محسوده نعمةً هى أفضلُ من كلّ ما فى يديه من النعم

وجهُ الحاسد ميزانُ النعمة ومقياسها ، فان أردتَ أن تزن نعمةً وافتْك فارم بخبرها فى فؤاد الحاسد ، ثم خالسه نظرةً خفية ، فحيثُ ترى الكآبةَ والهم ، فهناك جمالُ النعمة وسناؤها

ليس بين النعم التى يُنعم بها الله على عباده نعمةً أصغرَ شأناً ، وأهونَ خطراً ، من نعمة ليس لها حاسد ، فان كنت تريد أن تصفوَ لك النعمُ فقف بها فى سبيل الحاسدين ، وألقها فى طريق الناقمين ، فان حاولوا تحقيرَها وازدراءها ، فاعلم أنهم قد منحوك لقب « المحسَّد » فليهنأ عيشك ، وليعذب مَوردك

إن أردت أن تعرف أىّ الرجلين أفضل ، فانظر إلى أكثرهما نقمةً على صاحبه ، وكلفاً بالغض منه ، والنَّيلِ من كرامته ، فاعلم أنه أصغرهما شأناً ، وأقلّهما فضلا

قد جعل الله لكل ذنب عقوبةً مستقيلة يتألم لها المذنبُ عند حلول أجلها ، فالشاربُ يتألم عند حلول

المرض ، والمقامرُ يتألم يوم نزول الفقر ، والسارقُ يتألم يوم دخول السجن

أما الحاسدُ فعقوبته حاضرةٌ دائمة لا تفارقه ساعةً واحدة

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها ، والنعمةُ موجودٌ من الموجودات الثابتة التى لا يُلم بها إلا التنقلُ من مَظهر إلى مظهر ، والتحولُ من مَوقف ، الى موقف ، فهيهات أن يفنى ألمه ، أو ينقضىَ عذابُه ، حتى تقر عينُه التى تبصر ، ويسكن قلبه الذى ينبِض

الحسد مرضٌ من الامراض القلبية الفاتكة ، ولكل داءٍ دواءٌ ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسدُ سبيلَ المحسود ليبلغَ مبلغه من تلك النعمةِ التى يحسدُه عليها ، ولا أحسَبُ أنه يُنفِق من وقته ومجهوده فى هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك فى الغض من شأن محسوده ، والنَّيل منه ، فان كان يحسده على المال فلينظر أىّ طريق سلك

إليه فليسلكه ، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم ،أو الادبِ فليتأدب ، فإن بلغ من ذلك مأربَه فذاك ، وإلا فحسبُه أنه ملأ فراغَ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك ، والكَمَدِ القاتل

الوفاء

ياصاحبَ النظرات : —

تزوجتُ منذُ سنةٍ من زَوج صالحة طيبةِ القلب والسريرة ، فاغتبطتُ بعشرتها بُرهةً من الزمان ، وقد عرض لها فى هذه الأيام رمَدٌ فى عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياءَ وأصبحتُ أعمى بجانبها ، وقد بدا لى أن أطلقا وأتزوجَ من غيرها فماذا ترى ؟ ؟

(إنسان)

أيها الانسانُ : لا تفعل ، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الحائنين ، وجُرمُ الغادرين ، وكن اليوم أحرصَ على بقائها بجانبك منك قبل اليوم ، لتستطيعَ أن تدّخرَ لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدّخرُ أمثالك من الصابرين المحسنين

لا تقل إنها عمياء فلا خير لى فيها ، ولا غِبطة لى بها ، فإنك ستجدُ بين جنبيك من لذة المُروءة والاحسان ، والجُودَ والايثار ، ما يحسدُك عليه الناعمون بالُحور الحِسان ، فى مقاصير الجنان

إجلس إليها صباحك ومساءك ، وحادثْها محادثةَ الصديق صديقَه ، بل الزوجِ زوجَه ، وتلطف بها جهدك ، ورَوّح عن نفسها ما يساورُها من الهموم والكروب ، وقل لها لا تجزعى ولا تحزنى ، فإنما أنا بصرُكِ الذى به تبصرين ، ونورُكِ الذى به تهتدين

أعيذك أيها الانسان بالله ورحمته ، والعهد وذِمامِه ، أن تجعل لهذا الخاطر السيِّئ خاطرِ الطلاق والفراقِ سبيلا إلى نفسك ، فانها لم تسئ إليك فتسيء إليها ، ولم تنقُضْ عهدك فتنقضَ عهدها ، فإن كنت لابد ثائراً لنفسك فاثأر لها من القدر إن استطعتَ إليه سبيلا

إن عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضبَ فيمُد يدَه

بالعقوبة إلى غير من أذنب اليه ، ويعتدى على من لم يعتد عليه

إن لم يكن احتفاظُك بزوجك وإبقاؤك عليها عدلا يسألك الله عنه ، فليكن إحساناً تحاسبُك الانسانيةُ عليه

إنك قد خسرتَ بصرَها ، ولكنك سترِبحُ قلبها ، وحَسْبُ الانسانِ من لذة العيش وهناءته فى هذه الحياة قلبٌ يخفق بحبه ، ولسانٌ يهتفُ بذكره

إنها أسعدتْك بُرهةً من الزمان ، فليخفق قلبك رحمةً بها ، بقدر ماخفق سروراً بعشرتها

لا أحسَبُ أنها كانت تاركتَك ، أو غادرةً بك ، لو أن هذا السهمَ الذى أصابها قد أصابك من دونها ، فاحرص الحرصَ كلَّه على ألا تكون امرأةٌ ضعيفة أسبقَ منك إلى فضيلة الصدق والوفاء

إلى من تَعهدُ بها بعد فراقك إياها ؟ وأى مَوطنٍ من المواطن هيأتَه لمقامها ؟ وماذا أعددتَ لها من الوسائل

التى تستعين بها على عيشها ؟ وتأنسُ بها فى وَحشتها ووحدتها ؟

كيف يهنأ لك عيشٌ ، أو يغمض لك جفن ، إذا أظلك الليل فذكرتَها ؟ وذكرتَ أنها تقاسى فى وحدتها من الوحشة مالا قبل لها باحتماله ؟ وأنها ربما طلبتْ جرعةَ ماء فلا تجدُ من يقدمها إليها ، أو كِسرةَ خبز فلا تجدُ من يدلها عليها ، أو ربما قامتْ من مَضجعها فى سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريقَ إلى حاجة من حاجها فأخطأ تقديرُها فصدمها الجدارُ فى جبينها صدمةً سال لها دمُها ، حتى امتزج بدمعها ؟

أيها الانسانُ : إن لم تكن عادلا ولا وفياً ولا محسناً فارحم نفسَك من هذا الخيال الذى لا بدّ أن سيساورَك ، ويفتّ فى عَضُدِك ، ويزعجك من مرَقَدِك ، فإن لم تكن هذا ولا ذاك ، فغيرَك أُخاطِب ، لأنى لا أحسنُ إلا مخاطبةَ الانسان

إني محدثُك عن صديق لي من كرام الناس وأوفيائهم تزوج امرأةً حسناء فاغتبط بها بُرهةً من الزمان ثم أصابها الدهرُ بمثل ما أصاب به زوجَك، ولم يترك لها من ذلك النورِ الذاهب الا كما تترك الشمسُ من الشفَق الأحمر في حاشية الأفق، فلم يقنعه من الوفاء لهـا أن استبقاها واستمسك بها، بل كان يحرصُ جهدَه على ألا تعلمَ أنه ينكر من أمرها شيئاً، فكان يعتبُ عليها في بعض الأحايين في أشياءَ لايؤاخذُ بها عادةً إلا الناظرون المبصرون، يريد بذلك أن يلقيَ في رُوعها أنه لايزال يَعدها ناظرةً مبصرة، وأنه لايرى شيئاً جديداً طرأ عليها، رحمة بها، وإبقاءً على ما كانت تحب أن تحاولَه من الاعتداد بنفسها، والادلالِ بمزاياها

ولقد قرأتُ جملةً صالحة من نوادر العرب في آدابهم، ومكارم أخلاقهم، ورقةِ شعورهم ولُطفِ وجدانهم، فلم أر بينها نادرةً أوقعَ في النفس، ولا أجملَ أثراً في القلب، من

قول أبي عيينة الكاتبِ المعروف في عهد الدولة العباسية وكان كفيفَ البصر «اختلفتُ إلى القاضي أحمدَ بن أبي دؤاد أربعين عاماً فما سمعتُه مرةً يقول لغلامه عند تشييعي خذ بيده ياغلام، بل يقول اخرُجْ معه ياغلام»

فإن كنتَ تريدُ أن يُسجَّلَ لك من الوفاء في صفحات القلوب، ماسُجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ، فلا تطلقْ زوجك، ولا تنقمْ منها أمراً قد خرج حكمُه من يدها، وإن أبيتَ إلا أن تأخذ لنفسك حظَّها من لذائذ العيش وأطايبه، فاعلم انه ما من لذة يتمتعُ بها الانسانُ في حياته إلا ويشوبُها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة البرِّ والإحسان

خبايا الزوايا

جلس قاضى التحقيق ليلة أمس على كرسىّ قضائه ووقف عن يمينه رجلٌ من ذوى الأسنان [١] قذِرٌ دميمُ المَنظر ، تَسنح شعراتُه البيضُ فى بادية رأسه ولحيته سنوحَ الشرر الأبيض ، فى الدخَان الأسود ، وتتمشى فى أديم وجهه غبرةٌ قاتمةٌ مَن رآها علم أنها نسيجُ دخان الحشيشةِ الذى ينفثه مِن فيه صباحه ومساءه وغدُوه ورواحه ، ووقف عن يساره صِبيةٌ ستة نُحَّلُ الأبدان جُوّع الأكباد ، لم يترك لهم الدهرُ آكل الناس وشاربهم إلا هيكلا من العظم تلمع فى رأسه عينانِ جائلتان ، لاتستقران فى مِحجرَيهما إلا إذا استقر الزئبقُ الرَجراج فى قرار مكين

(١) جمع سن وهو العمر

نظر اليهم قاضى التحقيق نظراتٍ تمازجها الرحمة ، وتخالطها الشفقة ، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون، لولا أنّ من المناظر مناظرَ تستهوى القلوبَ القاسية، وتذيبُ الأفئدة المتحجرة ، وأنشأ يسألهم واحداً فواحداً ما شأنهم ؟ وما خَطبهم ؟ ومامصيرهم ؟ فكان جوابهم جواباً واحداً خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الانسان رأى خَلّتهم [(١)] من حيثُ يَخفى مكانُها فثغر [(٢)] فيها ثغرةً انحدر منها إلى أعراضهم ، فعبث بها ماشاء وشاء العابثون ، فكانوا فى داره الضروعَ التى يحتلبها ، حتى اذا استنفد دِرّتها [(٣)] ألح على دمائها فاستنزفها، ثم قالوا إنه كان يديم مِطال الجوع فى بطونهم ، فاذا علم أنهم هلكوا أو كادوا ، طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة ، والمضغة بعد المضغة ، ويرمّقهم [(٤)] العيشَ ترميقاً ، لا إبقاءً عليهم، بل على ما يصل إلى يده من المال من طريقهم ، وزعموا أنه كان يَريبهُ منهم فى بعض الأحيان تمردُهم عليه ، واحتفاظهم

(١) الخلة الحاجة (٢) ثغر الشىء ثلمه وفتحه (٣) الدرة اللبن (٤) رمقه الشراب أعطاه اياه حسوة حسوة

بأعراضهم من دونه فيملأ أدمغتهم بدخان الحشيشة ليسرقَ عقولهم، ويحلَّ عُقدةَ إبائهم، ويتركهم لا يدرون ما يأتون ولا ما يدعون

وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدى القاضى، فراعه من أمرهم ما راعه، ثم علم أنه الجوع، فأمر لهم بخبز وأُدم فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدرادَ الوحشِ فريستَه، وقد وقف ذلك الذئبُ المستأنِسُ ينظرُ إليهم نظرةً شزْراء كتلك النظرةِ التى يرمى بها الصائدُ صيدَه إذا أفلت من حُبالته

بذلك حدثنى مَن رأى هذا المنظرَ بعينه فارتعت لسماع حديثه الارتياع كلَّه، وحسبت أنه يحدثنى عن حادثة وقعت فى مبدأ الخليقةِ فى مَغارة من مغاور الجن أو شعَفَة(١) من شعفات الجبال، وقلتُ له أتعلم أيها الرجلُ أنك تحدثنى عن إنسان؟ قال لا تعجل فما حدثتك إلا عن رجل حمّار

(١) الشعفة رأس الجبل

لا يفارق وجهه سوءة حماره ليله ونهاره ، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة ، فكيف بك لو علمتَ أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها فى هذا البلد كثير من الاتقياء والصالحين ، والأشرافِ والمستورين

قلتُ لا تحدثنى عن شىء ، فلم يبق فى قلبى مُتّسع لاحتمال أكثرَ مما احتملت والأمر لله وحده

ليست مسئلةُ الزوايا وخباياها أمراً يستهان به ، أو تغضى العيون عليه ، فاننا نريد أن نُعِدّ لوطننا رجالا ذوى شجاعةٍ وإقدام ، وعزة وأنَفَة ، من الذين إذا عظم الخطبُ كانوا حُماةَ الديار ، وإذا اشتد اليأسُ لا يولون الأدبار

القمار

لا أستطيعُ أن أعتقد ما يسمونه الجنونَ الفرعيَّ ويريدون منه أن يكون الإنسانُ مجنوناً في شأن واحد من شؤونه، عاقلاً في باقيها، وعندي أن الرجلَ إما أن يكون عاقلاً أو مجنوناً، ولا ثالث لهما

العقلُ قوةٌ يقتدرُ بها المرءُ على ضبط نفسِه عن شهواتها، فموقفُه أمامها موقفٌ واحد، فإما أن يغلبَها جميعَها، أو يغلبَه جميعُها

أما ما يراه الرائي أحياناً من استهتار الرجلِ في بعض الشهوات استهتاراً يستهلكُ نفسه وعقله، وزهدِه في بعضها زهدَ الأعفاء القانعين، فذلك لأنه رغب في الأولى فاسترسل وراء رَغبته، ولم يدعه إلى الأخرى

داعٍ من شهوات قلبه ، ونزعات نفسه ، ولو دعاه لخف إليه ولباه ، ولن يسمى الرجلُ زاهداً أو عفيفاً إلا إذا أمسك نفسَه عن شهوة تدعوه إليه فيدفعها ، وتثور ثائرتُها بين جنبيه فيقمعها

لا تقل إن السكيرَ عاقلٌ إن رأيتَه غيرَ فاسق ولا عاهر ، واعلم أنه لا يُؤْثِر الفسقَ ولا تجذبه اليه جواذبه ، ولو آثره لكان موقفُه من المواخير موقفَهُ من الحانات، ولا تقل إن الفاسقَ عاقلٌ إن رأيته غيرَ سارق ولا مختلس ، فانه لا يحبّ السرقةَ ولا الاختلاس ، ولو أنه أحبهما لكان في التسلل إلى أعماق الدُّور والقصور، أبرعَ منه في التسلل إلى مكامن الفسقِ والفجور ، ولا تقل ان المقامر عاقلٌ ان رأيته لا شارباً ولا فاسقاً ، فان القِمار قد استهلك شهوتَه ، واستخلصها لنفسه ، ولم يدع فيها فَضلةً لسواها ، ولولا ذلك لكان أكبرَ السارقين ، وأفسقَ الفاسقين

لو كنتُ من المصانعين الذين يُزخرفون لأرباب

الرذائل رذائلهم حتى يصوروها فى نظرهم فضائلَ بما يُلبسونها من أثواب التأويل، ويصبغونها من ألوان التعليل، لما استطعتُ أن أصانع المقامرَ، لأن حاله من الجهل الفاضح، والغباوةِ المستحكمة، أبعدُ الحالات عن عذر المعتذرين، وتأويلِ المتأولين

ما جلس المقامرُ الى مائدة القِمار الا بعد أن استقر فى ذهنه أن الدرهم الذى فى يده سيتحولُ بعد هُنَيهة من الزمن الى دينار يعود به الى أهله فرِحاً مُغتبِطاً، وأحسبَ أن العقول العشرةَ مجتمعة ومتفرقة تعجزُ عن ادراك سرّ هذه العقيدةِ ومثارها

ان كان يؤملُ الربح لأنه يرى عن يمينه رجلا قد ربح، فلم لايخافُ الخسرانَ لأنه يرى عن يساره مائةً خاسرين؟ وان كان يضحكه منظرُ الربحِ لأنه يرى فى بعض مواقفه أحدَ الرابحين ضاحكا، فلم لايبكيه منظرُ أصدقائه ورفقائه

الخاسرين وهم يتساقطون حواليه تساقطَ جنودِ المعركة تحت القذائفِ المنطلقة ؟

ما أشبه المقامرَ الذى يطلبُ من الدينار الواحدِ مائة دينار، بالكيماوى الذى يطلبُ من القصدير فضةً، ومن النحاس ذهباً، كلاهما يتاجرُ بالأحلام، فى سوق الأوهام، فيربحُ ربحاً مقلوبا، ويكسبُ كسباً معكوساً، وما أشبههما جميعاً بذلك الرجلِ الذى علم أن فى صحراء من صحارى أواسطِ افريقيا كنزاً دفيناً لاتُعرف له بقعةٌ معينة، وليس عليه دليل، فحمل فأسَه على كتفه ومشى فى تلك الصحراء يحفر الحفرةَ التى تستنفدُ قوتَه، وتستهلك مُنته، وتبلغ من نفسه مالا يبلغ كرُّ الغداةِ ومرُّ العشىّ، حتى اذا بلغ قرارتَها وعلم أنه لم يعثر بضالته، تركها وبدأ يحفر غيرَها بجانبها، فلا يكون نصيبُه من الأخرى، أوفرَ من نصيبه من الأولى، وهكذا حتى أدركه الموتُ وهو فى بعض تلك الحفر، فكان هو نفسُه الكنزَ الدفين، الا أنه كنزٌ لايطمعُ فيه طامع، ولا يرغبُ فيه راغب

إن كنتَ لم تسمعْ فى حياتك باجتماع النقيضَين ، وتلاقى الضدين ، فاعلم أن المقامرَ فى آنٍ واحدٍ أجشعُ الناس ، وأزهدُ الناس ، فلولا حبُّه المالَ لما هان عليه أن يبذلَ راحتَه وشرفه وسعادته وحياته فى سبيله ، ولولا زهدُه فيه لما أقدم باختياره على تبديده على مائدة القِمار لا لغايةٍ يطلبُها ، ولا لمأرب يسعى إليه

أنا لا أريد أن أنصحَ للمقامر بترك القمار ، لأنى أعتقد أن من يملكُ عقلا مثلَ عقله ، وفهما مثل فهمه ، لا يستطيع أن يفهم كلمةً مما أقول ، ومن عجزتْ حوادثُ الدهر وعبرُ الايام عن أن ترد عليه ضالَّةَ عقله ، وتهديه السبيل إلى نفسه ، فلن تنفعه كلمةُ كاتب ، ولا موعظةُ واعظ ، وإنما أريد أن أقول للذين لم يُقَدر لهم أن يخطوا خطوة واحدة فى هذه الطريقِ الوعرة حتى اليوم ، لا تقامروا جداً ولا هزلا ، فان هزْلَ القمار يجرّ إلى جده ، ولا تمروا بمعاهد القمار قصدا ولا عفواً ، فانّ من حام حول الحمى يوشِك

أن يقع فيه ، ولا تصاحبوا المقامرين بحال من الأحوال ، فانهم لا يرضَون عنكم حتى تتخذوا مِلّتَهم ، فان فعلتم خسرتم مالكم وشرفكم ، وعزّتكم وكرامتَكم من حيثُ لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوضُ عليكم ما خسرتم ، فارحموا أنفسَكم إن كنتم راحمين ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين

الاوصياء

مرِض فلانٌ مرَض الموت فلم يحفِل بالمنية ، لأنه اقتطف زهرةَ الحياة جميعَها ، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبحها ومسائها ، وليلها ونهارها ، فلم تترك له خيطاً من خيوط الأمل ، ولا شعاعاً من أشعة الرجاء لولا أن بين يديه ولداً صغيراً فى السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ عهد قريب ، وللشيوخ الكبار إلى أبنائهم الصغار حنينُ الابل الى أعطانها ، فنظر إليه و هو يحومُ حول فراشهِ نظرةً طويلة لم يسترجعها إلا مبللةً بالدمع المنسجم ، ثم زفر زفرةً حرَّى خُيل لرائيها أنها الزفرةُ الأخيرة، وأنشأ يقول :

أىْ بُنىّ ، مَن لى بقلبٍ يرعاك مثل قلبى ، وعين تسهر عليك مثل عينى ، ورُوحٍ ترفرفُ فوق رأسِك مثل

رُوحى ، ونَفْسٍ تضم جوانحَها عليك مثل نفسى ؟؟؟

أىْ بنى ، كأنى بركب الموت وقد نزل بى ، وحل بساحتى ، وكأنى به وقد احتملنى من فضاء القَصر ، إلى مَضيق القبر ، ومن نُور الحياة ، إلى ظُلمة الموت ، وكأنى بك وقد طفِقت تَنشدُنى ، فلا تجدنى ، وتفتشُ عنى ، فلا ترانى ، ففزعتَ وارتعت ، ثم صرختَ فصعَقت ، فلم تجد بجانبك مَن يمسحُ دمعَك ، ويخففُ حزنك

مَن لى بصديق أثقُ بوده وإخلاصه ، ورحمته وحنانه ، فأَكلَ إليه أمركَ ؟ وأعتمدَ عليه فى تأديبك وتخريجك ، وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة فى مستقبل دهرك ؟

فما أتم نِجاءه حتى دخل عليه صديقُه الوحيدُ الذى كان يأنس به ، ويستخلصه لنفسه ، وقد سمع آخر نجواه ، فقال له هوّنْ عليك يامولاى ، فأنا صديقُك الذى تَنشده وأنا والدُ ولدِك من بعدك ، وخليفتُك بعد الله عليه ، ثم تهافت على فراشه ، وظلّ يبكى لبكائه ، وينشِج لنشيجه ،

فاستنار قلبُ الرجـل بنور الأمل ، وقال أحمَدك اللهم فقد رحمتَ ولدى ، وحفظتَ بيتى

وما هى إلاَّ أيامٌ قلائلُ حتى كتبَ الشيخُ كتابَ الوصية بيده ، ثم أجاب دعوةَ ربه ناركا فى يد ذلك الصديقِ الكريم مجدَه وشرفه ، وماله وولده

اتخذ الشيخُ ذلك الرجلَ صديقا له فى الأعوام الأخيرة من أعوام حياته بعد ما رآه يكثر الاختلافَ إليه ، ويطيل اللبثَ بجانبه . ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخف لقضاء حاجاته و لُباناته ، ذلك إلى ما كان يراه متجملا به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات ، والتسبيحات المتواليات ، وعفةٍ حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته ، وتورعٍ حتى عن الجرعة يتجرعُها فى حضرته ، فاستخلصه لنفسه ، وأنزله من قلبه المنزلةَ التى لا ينزل معه فيها غيرُه ولده ، وأصبح آثرَ الناسِ عنده حتى ما يستطيع فراقه

لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة ، إلى أن أحس باقتراب الأجل ، فأوصاه بما أوصى ، وعهد إليه بما عهد

هـذا هو تاريخ ذلك الصـديقِ في حياة الشيخ ، أما تاريخُه بعد مماته فسا سمعك منه ماتهوِي له الأفلاكُ عَجباً ، وتخِرُّ له الجبالُ هدّاً

لم تكن صلاته إلا رياء ونفاقا ، وركوعُه وسجودُه إلا كيداً ودِهاناً ، وعفته وزهادتُه إلا حِبالة نصبها ليَعلق بها عقلُ الشيخ وقد علِق ، فيسلبه ماله وولده وقد فعـل ، وما كان اختلافُه إليه ، ولا تردُّده عليه ، إلا طمعاً فى هـذا المصير الذى صار إليه ، فلما علم أن قد تم له من أمره ماأراد أطلق يدَه فى مال الصغير يعبثُ به عبثَ النكباء بالعود ، ويبتاعُ به لنفسه ماشاء أن يبتاع من قصور ودُور ، وبساتينَ وضياع ، فنبُهَ ذكرُه بعدما كان خاملا ، ونبت ريشه بعد ما كان عاريا ، وأصبح صاحبَ السلطان المطلق فى ذلك القصر يذُل من يشاء ، ويعز من يشاء

أما شأنهُ مع الولد فقد علم أنه سيبلغُ عما قليل أشدّه ، ويملك رشدَه ، وأنه سيقطعُ عليهِ لذتَه ، ويقف له موقفَ المعترضِ سبيله ، ويحاسبُه على القليل والكثير ، والصغير والكبير ، فلم يرَ بدّاً من أن يُعد لذلك اليوم عُدته ، فعمَد إلى الولد فقطعه عن المدرسة ، لأنه لايحبُّ أن ينشأ متعلماً ، ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع الفجور لأنه لايحب أن ينشأ عاقلا ، وما زال يُنفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشرابُ برأسه علوق السُلال بالصدور ، فأصبح بين الحانات والمواخير ، كالطائر بين الأغصان ، لايرسل الساقَ إلا ممسكا ساقاً

فكأنما وَكل بعقله مِقراضاً يبضعُ له فى كل يوم منه بَضعة حتى كاد يأتى عليه ، فما بلغ السنَّ التى يَرشُدُ فيها القاصرون حتى استحال الوصىُّ على القاصر ، قيما على المعتوه ، ولم يبذل فى سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لُقيمات ألقاها من فتات تلك المائدة إلى أعضاء المجلس الحسبى

فأدخلوه تلك الجنةَ الزاهرةَ بغير حساب

شرع اللهُ شريعةَ الحجرِ على السفهاء والمعتوهين ، وإقامة القوام عليهم ، رحمةً بهم ، فاستحالت على يد المجالس الحسبية نِقمةً عليهم ، وأصبح اللصُّ الذى يجهل صناعةَ فتح الأقفال ويتقى مَغَبة تسلقِ الجدران ، قادراً على أن يسرق مايشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيثُ يأمن عن نفسه الوقوفَ أمام محكمة الجنايات ، وجرَّ الأغلالِ الثقال فى غيابات السجون ، وانتقلت الثرواتُ العظيمة من أيدى أصحابها مخافةَ أن يسرقوا فيها ، إلى أيدى آخرين يبددونها تبديداً ، ويمزقون أديمها تمزيقاً ، من حيث لايكون بينهم وبين المورِّثِ صلةُ نسب ، أو وشيجةُ رحِم ، حتى أصبح السعى إلى جمع المال وادخاره للوارثين فى هذا العصر عملا من الأعمال الباطلة ، وضرباً من ضروب الخرق الواضح ، والجهل الفاضح ، فمن لى إن أنا دبرتُ المال وجمعتُه أن لايكون خليفتى عليه من بعدى لصاً من أولئك اللصوص

الذين تمنحهم المجالسُ الحسبية، ماتمنعهم الشرائع الالهية ؟ ومن لى أن أعيش إلى أن أُدرك ولدى فأتولّى أمر تربيته بنفسى قبل أن يظفر به فى حداثته ظُفُرٌ جارح من أظفار أولئك الأوصياء فيُميتَ نفسه ، ويقتل عقله ، ويفسدَ عليه حياته ، ويلبسه من الفضيحة والعار مايقلق نفسى فى عالمها ، ويزعج عظامى فى مَرقدها ؟

فلقد حدثنى مَن قص على تلك القصةَ أن ذلك الوصىَّ لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ماأراد عمد إلى تزويجه من فتاةٍ حسناء من بنات الأشراف ما كان يَعينه أن يزوجه منها ، لولا أن له فى ذلك مأرباً من المآرب الفاسدة ، فانها ما كادت تخلع ثوبَ عرسها حتى أنشأ يختلف إليها ، ويكثر ازديارَها فى الجناح الذى تسكنه من القصر ، بما له على زوجها وعليها من حق الولاية والرعاية ، وبحجة النظر فى شؤونها ومرافقها ، ثم مازال يَخْتِلها عن نفسها ، ويزَيّن لها مايزينه الشيطان للانسان ،

حتى علِقتْ بحبالته ، كما عَلق بها غيرُها من قبلها ، ففرِكتْ زوجَها ، وبَرِمت به ، فرابه من أمرها ما رابه ، فرصدها ليلة من الليالى حتى عرف سرَّها وموضع هواها ، فشكا ، فلم يجد سامعاً ، ثم بكى ، فلم يجد راحماً ، فكان يقضى كثيراً من لياليه فى غرفة من غرف القصر واجماً مطرقاً مسلماً رأسَه إلى ركبتيه ، ودمعَه إلى خديه ، لاسمير له ولا مؤنس إلا رناتُ الضحكات التى كان تنهلُّ عليه من مخدع زوجه ، فكان يثب تارةً وثبةَ الأسد فيثير فى القصر ثائرةً شعواء تضج لها جوانبُه ، فيتسارع إليه الخدمُ فيضربون على يده وفمه ، وأخرى يعود إليه بلهه وخبلُه ، فينظر إلى هذه المناظر المؤلمةِ نظرَ الضاحك اللاعب

مرتْ على تلك الحوادث سنواتٌ استأثر فيها ذلك الوصىُّ بتلك الدائرة الواسعة ، وألح عليها بكلكله ، حتى اجتز وبَرها ، ثم استكشط جلدها ، فلم يبق منها إلا هيكلٌ عظمى قائم ، فلما علم أن قد قامت قيامةُ الناس عليه ، وأن قصته

مع الغلام وزوجه قد ملأت مسمع الخافقين، وأن نجمه الثاقب قد مال إلى الأفول، عمد إلى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل المحزن الأليم

تفتّح للغلام بعد انقباضه، وابتسم إليه بعد تقطيبه، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخر، ومركب فاره، ومزاهر وعيدان، وكؤوس ودنان، ثم خلا به في ساعة من ساعات نشوته وارتياحه، فقال له أيها الصديق قد آن أوانُ استقلالك بشأنك، وانفرادك بأمرك، فاكتب إلى المجلس الحسبي رُقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك، واكتب توقيعك على هذه «المخالصة» براءة لذمتي، فاستطير الغلامُ فرحاً وسروراً، وما لبث أن كتب الأولى، ووقع على الأخرى، ثم أوعز الوصي إلى المجلس الحسبي بتلبية طلبه، فلباه، وقضى برفع الحجر عنه، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظامئ كأس الشراب، وكان لابد له من أن يشرب حتى يبشم، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجده، وكان

الرجلُ قد وكل به عوناً من أعوانه يداخلهُ ويتحين فُرصةَ حاجته إلى المال فيمنحه مايريد ، فكان يعطيه المال باليمين ، ويأخذُ منه صكَّ البيع باليسار ، وزال هذا يعطى ، وذاك يأخذ ، حتى أصبح نصفُ « الدائرة » بعد عامين ملكا لعون الوصيِّ اليوم ، وللوصيِّ غداً ، بثمن لا يساوى ُعشرَ ِمعشارِ ها ، بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعُها إلا بمالها ، وأنفق عليها إلا ثمرتها ؟

هنالك قام الوصى وقعد ، ونادى فى الناس بصوت يشبه صوتَ الحق ، ونغمةٍ تشاكل نغمةَ الصدق ، أيها الناس قد كنتُ أنذرتكم بمصير هذا الغلام إن صار أمره إلى نفسه ، فكذبتم قولى ، وسفّهتم رأيى ، وما زلتم تقولون وتتقوّلون حتى أحرجتم صدرى ، ودفعتمونى إلى الغدر بذلك العهد الذى أخذه على ذلك الصديقُ الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده ، وألا أتخلى ساعةً واحدة عن رعايته وتعهده ، فكان ماكان مما تعلمون من تبديد ثروته ،

وتمزيقها ، فهاءنتم ترون بأعينكم شُؤمَ رأيكم ، وجريرةَ سعيكم ثم أعاد كرَّته على الغلام وسعى سَعيه في المجلس الحسبي فأعاده سيرته الأولى ، ووضع في عنقه غلاً لا فكاك له من بعده إلى يوم يبعثون

ليت شعري هل يعلم ذلك المقبورُ في لَحده ماصنعتْ يدُ الحدثان بماله وولده ؟ وأن المال قد ورثه غيرُ وارثه ، واستأثر به غير صاحبه ؟ وأن ولدَه قد أصبح بعد ذلك الملك الكبير ، والجنةِ والحرير ، يطلب المضغة فتعوزه ، والجرعة فتلتوي عليه ؟ وأنه يبيتُ الليالىَ ذواتِ العدد مطَّرحاً في زاوية من زوايا الحانات لا وِطاء غير أديم التراب ، ولا غطاء غير قطع السحاب ؟ وهل أعد عدته للوقوف بين يدي الله تعالى في ذلك اليوم المشهود ؟ يوم تُكشفُ الهنات ، وتفضح العورات ، فيمسك وَلدَه بيمناه ، ووصيَّه بيسراه ، ثم يناجي ربه ويقول : اللهم أعدِني على هذا الكاذبِ الذي ختلني وخدعني ، وخفر ذمتي ، وخاس بعهدي ، وخان

أماتى ، وأفسد وصيتى ، وخُذْ لولدى بحقه من هذا الظالمِ الذى سرِق مالَه ، وهتك عِرضَه ، وعذب نفسَه ، ونغص عيشَه ، فأنتَ أعدلَ الحاكمين ، وأرحمُ الراحمين

العام الجديد

فى مثل هذا اليوم من كل عام يقفُ ركبُ العالم السائر بمنزلةٍ من منازل الحياة ، فينزلُ عن مطاياه ليستريحَ فيها ساعة من وعثاء السفر بعد أن نال منه الأيْنُ والكلالُ ، وأنضاه سُرَى الليل وسير النهار ، ثلاثمائة وخمسة وستين يوما

هنالك يجتمعُ السَّفْرُ [١] فى صَعيدٍ واحد فيتعارفون ويتصافحون ، ويتفقد بعضُهم بعضاً ، فيجدون أن فلاناً مات جوعاً ، وفلاناً مات ظمأً ، وآخر افترسه سَبُعٌ ، وآخر قتله لِصٌّ ، وآخر مات غِيلة ، وآخر سقط عِيّا ، وآخر طارت به قنبلةٌ ، وآخر هوتْ به طيارة ، وآخر اجتاحه بُرْكانٌ ، وآخر

(١) السفر المسافرون

تردى عليه معدِن ، ثم يعودون إلى جرائد الإحصاء فيدوّنون فيها حاضرَهم ، كما دونوا ماضيهم ، ثم يوازون بين هذا وذاك فيجدون أن الحاضرَ شرٌّ من الماضى ، وأن ميادين الحروب لاتزال ملوثةً بالدماء ، ومصانعَ الموت لاتزال تفتنّ فى عُدَدِه ، وتستكثرُ من أدواته ، وأن جذورَ الشر القديمة لاتزال ناشبةً بنفوس البشر حتى مايتمنى أحدٌ أن تقع عينه على أحد ، وأن سُحُبَ البغضاء القاتمةَ لاتزال مخيمةً على المجتمع الانسانى من أدناه إلى أقصاه ، شعوباً وقبائل ، وأجناساً وأنواعاً ، ومذاهبَ وأدياناً ، ومنازلَ وأوطاناً ، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه فى جنسه ، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه لأنه يخالفُه فى دينه . فإن وافقه فيه أبغضه لأنه ينطقُ بغير لغته ، فان نطق بها أبغضه لأنه لايشاركه فى وطنه ، فان كان مشاركا له أبغضه لأنه يزاحمُه فى حِرفته ، فان بَعُدَ عن طريق مزاحمته أبغضه لأنه يخالفه فى رأيه ، فان لم يخالفْه فيه أبغضه لأنه لا يحاكيه فى لونه ، فإن

لم يجد شيئاً من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه شخص سواه ، كأنّ قضاءً حتماً على الانسان أن يبغض كلّ صورةٍ غيرِ الصورة التي يراها كل يوم في مِرآته

فاذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم ، والموازنة بين حاضرهم وماضيهم ، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية سيئةَ الغش والكذِب ، فتناسوا كل هذا ، ووضع كلٌّ منهم يدَه في يد أخيه مهنئاً له بالعيد السعيد ، داعياً له بدوام الغبطة والهناءة ، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية

علام يهنئ الناسُ بعضهم بعضاً ؟ وماذا لقُوا من الدنيا فيحرصوا على البقاء فيها ؟ ويغتبطوا بقطع المراحل التي يقطعونها منها ؟ وهل يوجد بينهم شخص واحدٌ يستطيع أن يزعُمَ أنه أصبح سعيداً كما أمسى ؟ أو أمسى سعيداً كما أصبح ؟ أو انه رأى برقا من بروق السعادة قد لمع في إحدى لياليه ، ولم ير بجانبه ما يُرى في الليلة البارقةِ من رُعودٍ قاصفة ، ورياحٍ عاصفة ، وصواعقَ محرقةٍ ، وشُهُبٍ متطايرة ؟

بأيّة نعمةٍ من النعم ، أو صنيعةٍ من الصنائع ، تمن يدُ الحياة على إنسان لايفلت من ظُلمة الرَّحم إلاّ إلى ظلمة العيش ؟ ولا يفلت من ظلمة العيش إلا إلى ظلمة القبر ؟ كأنما هو « يونُسُ » الذى التقمه الحوتُ فمشى فى ظلمات بعضُها فوق بعض ، وأيّة يدٍ من الأيادى أسدتها الأيامُ الى رجلٍ يظلُّ فيها من مَهدِه الى لَحدِه حائراً مضطربا ، يفتش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسُه ، ويثلج صدرُه ، فلا يعرف لهـا مذهباً ، ولا يجد اليها سبيلا ؟ إن كان غنياً اجتمعتْ حوله القلوبُ الضاغنة ، واصطلحت عليه الأيدى الناهبة ، فاما قتلَتْه ، وإما أفقرته ، وإن كان فقيراً عدّ الناسُ فقره ذنباً جنته يداه ، فتتناوله الاكُفُّ بالصفع ، والأرجلُ بالركل ، والألسنُ بالقذف ، حتى يموتَ الموتة الكبرى ، بعد أن مات الموتةَ الصغرى ، وإن كان عالماً ولع الحاسدون بذمه وهجوه ، وتفننوا فى تشويه سمعته ، وتسويد صحيفته ، ولا يزالون به حتى يعطيهم العهودَ والمواثيقَ التى يرضونها أن يعيش عالماً كجاهل ، وحياً كميت ،

وأن يكتمَ علمه فى صدره ، فلا يفضى به إلى لسان ولا قلم ، حتى يدركه الموتُ ، وإن كان جاهلا اتخذه العالِمون مَطِيةً يركبونها الى مقاصدهم وأغراضهم، من حيثُ لا يهادونها ولا يرفقون بها، حتى يَعقروها، وان كان بخيلا ازدرته القلوب، واقتحمته العيون ، وتقلصت له الشفاه ، وبرزت له الأنياب ، وانقبضت له الأسرّة ، والتهبت له الأنظار ، وأَرسلت إليه الاضغانُ ألسنةَ نيرانِها حتى تحرقَه ، وان كان كريماً محسناً عاش مترقباً فى كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شرَّ الذين أحسن اليهم ، إما لانه أذاقهم جرعةً باردةً فاستعذبوها فاستزادوه فلم يفعل ، فهم ينتقمون منه ، أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرةِ الذين يُخيّلُ إليهم أن المحسنَ يُريد أن يبتاع منهم نفسَه بما يسدى وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الاحسان بلا مقابل ، فهم ينقمون عليه أن عرف كيف يفلت من أيديهم

لا سعادةَ فى الحياة إلا إذا نشَر السلامُ أجنحتَه

البيضاءَ على هذا المجتمع البشرى ، ولن ينتشرَ السلامُ إلا إذا هدأتْ أطماعُ النفوس ، واستقرت فيها ملكةُ العدل والانصاف ، فعرف كلٌّ ذى حق حقّه ، وقنع كلٌّ بما فى يده عما فى يد غيره ، فلا يحسد فقيرٌ غنياً ، ولا عاجزٌ قادرا ، ولا محدود مجدودا ، ولا جاهل عالماً ، واشعرت القلوب الرحمةَ والحنان على البؤساء والمنكوبين ، فلا يهلك جائعٌ بين الطاعمين ، ولا عارٍ بين الكاسين ، وامتلأت النفوس عِزّة وشرفا ، فلا يبقى شىء من تلك الحبائلِ المنصوبة لاغتيال أموال الناس باسم الدّين مرة ، والانسانيةِ أُخرى ، ولا ترى طبيبا يدعى علم مالم يعلم ليسلبَ المريضَ رُوحه وماله ، ولا محامياً يخدع مُوكّلَه عن قضيته ليسلبَ منه فوق ما سلب منه خَصمُه ، ولا تاجراً يشترى بعشرة ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث ، ولا كاتبا يضربُ الناسَ بعضهم ببعض حتى تسيلَ دماؤهم فيمتصها ، كما يضرب القادحُ الزّندَ بالزّند ليظفرَ بالشرر المتطاير منهما

وما دامتْ هذه المطالب أحلاماً كاذبة ، وأمانيّ باطلة، فلا مطمع في سلام ولا أمان ، ولا أمل في سعادة ولا هناءة ، ولا فرق بين أمسِ الدهر ويومِه ، ولا بين يومه وغدِه ، ولا فرق بين مغفَلات أيامه ، ومعلَمات أعياده ، فليهنأ بالعيد مَن عرف من أيامه غيرَ ما عرفتُ ، وذاق من نعمائه غير ما ذقت ، وليفرحْ بالعام الجديدِ من حَمِدَ ما مضي من أيامه ، وسالف أعوامه

سحر البيان

رأيتُ فى إحدى روايات شكسبير وهى الروايةُ المعروفة برواية (يوليوس قيصر) موقفاً لبطلَين من أبطال الفصاحة ، وفارسَين من فُرسان البيان ، قد وقف كلٌّ منهما من صاحبه موقفَ اللاعبِ من اللاعب ، ووقف الشعبُ الرومانى بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين ، تعلو بها حينا ، وتسفلُ أحيانا ، فلا تثبت صاعدةً ، ولا تستقر هابطة ، فعلمتُ أن العامةَ عامةٌ فى كل عصر ، والشعبَ شعبٌ فى كلّ مصر ، وأن سوادالأمة تحت صَرْحِ فرعَون ، مثله تحت عرش قيصر ، وأنه فى رأس التاريخ اليسوعى ، مثله فى ذنب التاريخ المحمدى ، تدنو به كلمة ، وتنأى به أخرى ، وتجذبُه دمعةٌ ، وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشعريات

والخيالات طيرانَ الريح الهوجاء ، بذرّات الهباء

علم بروتسُ الشريفُ الرومانى أن يوليوس قيصر قد استعبد الشعبَ الرومانى وأذل نفسه ذلا ملك عليه حواسَّه ومشاعرَه حتى ما يكاد يشعر بمرارته ، وكذلك الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كلَّ شىء حتى الشعور بنزوله فيها ، وعلم أن حياة ذلك الشعب ، فى موت ذلك القيصر ، فهان عليه أن يقتلَ صديقه وسيده ، افتداء لأمته ووطنه ، فطعنه طعنةً نجلاءَ سلبته نفسَه فى لحظة واحدة ، فهاج الشعبُ الرومانى على القاتل وأعوانه هياجَ الأمواج الثائرة ، على السفن الماخرة ، فوقف الرجل خطيباً أمام ذلك الشعب الهائج المحتدم وقفةَ المستبسلِ المستميت ، وكان لا بد له فى هذا الموقف من أحد المصيرَين ، إما نصرٌ يعلو به الى مدار الافلاك ، أو خذلانٌ يهوِى به الى مقر الاسماك ، ومن أحد المخرجين ، إما مخرجه مرفوعاً على محفة الابطال ، أو محمولا على أعناق الرجال ، فبعد لأىٍ مّا استطاع بعضُ الزعماء أن يسكن

ثائرةَ الثائرين ، ويستدرَجهم إلى سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفكه بمنظره المضحكِ وهو يتامس فى هذه الظُّلمةِ الحالكةِ المخرجَ من جريمته

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة) — أيها الرومانيون . أتعدوننى بالصبر قليلا على سماع ما أقول من حُلو الكلام ومره ، إكراما لموقفى ، وإكراما للعدل ؟

أنا لا أريدُ أن أخدَعكم ، ولا أن أعبثَ بعقولكم وأهوائكم ، بل أريدُ منكم أن تنظروا إلى قضيتى نظر الحذِر المتيقظ الذى لا يعطى هوادة ولا يلقى قياداً ، لأنى لا أعتقد أن فى زاوية من زواياها كميناً أخاف أن تقعَ عليه العيون

أيها الرومانيون : ان كان بينكم صديقٌ لقيصر يُحبه ويذوبُ حزناً عليه فليسمحْ لى أن أقول له : أيها الصديقُ

الكريم ، إن بروتس قاتِل قيصر كان يحبهُ أكثر منك

أيها القومُ ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذَبْتُكم فاعلموا أنى ماقتلتُ قيصرَ لأنى كنتُ أبغَضُه ، بل لأنى كنتُ أحب روما أكثرَ منه

كان قيصر عظيما فأحببتهُ ، وكان شجاعاً فاحترمتهُ ، ولكنه كان طماعاً فقتلته ، ففى ساعة واحدة منحتهُ دمعى وقلبى وخنجرى

أنا لا أصدقُ أن بينكم من يحزنُ لموت قيصر ، فأنتم رومانيون ، والرومانى لايحب أن يعيش ذليلا

من منكم يكرهُ أن يكون رومانياً ؟ من منكم يكره أن يكون حراً ؟ من منكم يحتقرُ نفسَه ؟ من منكم يزدرِى مصلحةَ وطنِه ؟ إن كان بينكم واحدٌ من هؤلاء فليتكلم ، لأنه هو الذى يحقُّ له أن يثأرَ لنفسه منى ، لأنى لم أسئ إلى أحد سواه

الشعب — لا ، لا ، ليس فينا واحدٌ من هؤلاء

بروتس — إذن أنا لم أسئ إلى أحد منكم

وهنا دخل انطونيوسُ صديقُ قيصر ورأس الناقمين على قتلته والمطالبين بثأره هو وآخرون يحملون على أيديهم جُثّةَ قيصر لتأبينه فى هذا المجمعِ الحاشد ، فاستأنف بروتسُ الكلامَ وقال :

ها هى جثةُ قيصر ، وهاهو صديقه أنطونيوس قد جاء ليؤبنَه فاستمعوا له ، واعلموا أن قيصرَ المذنبَ ، غيرُ قيصر الماجد ، وقد سمعتم ماقيل عن الأول ، فاسمعوا ماقيل عن الثانى ، واسمحوا لى أن أقولَ كلمةً أختمُ بها خطابى :

أيها الرومانيون ، إن الخنجرَ الذى ذبحتُ به قيصر فى سبيل روما لايزال باقياً عندى لذبح بروتس فى سبيل قيصر إذا أرادتْ روما ذلك

تأثير الخطبة

الشعب — ليحي بروتسُ

أحد الناس — أنا أقترحُ أن نحملَه على الأكُفّ إلى منزله

آخر — انصبوا له تمثالا

آخر — امنحوه عرشَ قيصر

آخر — إنه أفضلُ من قيصر

آخر — إن قيصر كان ظالماً

آخر — إنه كان الظلم بعينه

آخر — لتهنأ روما بالخلاص منه

آخر — ألا نسمعُ تأبينَ انطونيوس ؟

آخر — نعم نسمعهُ لأن بروتس أمر بذلك

وهنا نزل بروتسُ والقلوبُ طائرةٌ حوله ، والعيونُ حائمةٌ عليه ، ثم وقف على أثره انطونيوس فرمقه الشعب بعين الغضب والحقد ، ولولا إشارةٌ من بروتس ما استطاع

أن يثبتَ فى موقفه لحظةً واحدة ، ثم أخذ يتلو كلمةَ التأبين المشهورةَ التى هى آياتُ الآيات فى اللغة الانكليزية فصاحةً وبياناً

القصيدة

انطونيوس — أيها الرومانيون :

أحد الناس — اسمعوا مايقول أنطونيوس

آخر — لا ، لانسمعهُ

أنطونيوس — اسمعوني إكراماً لبروتس

أحد الناس — ماذا يقولُ هذا الرجلُ عن بروتس ؟

آخر — لايقولُ شيئاً

آخر — إذن نسمعه

أنطونيوس — أيها الأصدقاء ، إنى ماجئتُ هنا الساعةَ لأرثىَ قيصر ، بل لأدفنَ جثّته

أيها القوم : مامن أحدٍ من الناس إلا وله فى حياته أعمالٌ حسنةٌ ، وأخرى سيئة

أما حسناتُه فتموتُ بموته ، وأما سيئاتُه فتبقى من بعده إلى يوم يُبعثون

كذلك كان قيصرُ فى حياته ومماته ، وكذلك كانت حسناتُه وسيئاته

أيها القومُ : ما كنتُ لأستطيعَ أن أقفَ موقفى هذا بينكم ، ولا أن أقول كلمةً مما أريدُ أن أقول ، لولا أن بروتس قاتلُ قيصر أمرنى بالوقوف ، وأمرنى بالكلام ، وها أنتم أولاء ترون أننى قد أطعتُه ، وأذعنتُ له ، لأنه رجلٌ شريف

أيها القومُ : يقول الشريفُ بروتسُ إن قيصرَ كان رجلا طماعاً ، وأنا لا أستطيعُ أن أخالفَه فيما يقول لأنه رجلٌ صادق لا يكذب

أنا لا أستطيعُ أن أقول إن قيصر كان رجلا قانعاً معتدلا ، لأن الشريفَ بروتسَ يقول غير هذا

كلّ ما أستطيعُ أن أقولَه إن الفِدْيَةَ التى افتدى بها

أعداؤنا أَسراهم الذين جاء بهم قيصرُ إلى روما قد ملأت الخزانةَ العامة حتى فاضتْ بها

كل ما أستطيعُ أن أقوله إنى رأيتُ قيصر بعينى يبكى لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم ، ويبيت الليالىَ ذواتَ العدد ساهراً لايغتمضُ له جفن ، حدَباً بهم ، وعطفاً عليهم

كل ما أستطيعُ أن أقوله إنى عرضتُ بنفسى تاجَ الملك على قيصر فى لوبركال عدةَ مرات فأباه زُهداً فيه ، وتعففا عنه

كنت أستطيع أن أقول إن الطمعَ لايسكُن قلباً مثلَ هذا القلب ، ولايخالطُ فؤاداًمثلَ هذا الفؤاد ، لولاأن بروتسَ يقولُ إن قيصر رجل طماع ، وأنا لا أستطيع مخالفته ، لأنه رجل شريف

أيها الرومانيون ، انكم أحببتم قيصرَ قبل اليوم حباً جماً ، فما الذى يمنعكم اليومَ من البكاء عليه ؟

إن لم تبكوه لصفاته الكريمة ، فابكوه لأنكم كنتم تحبونه ، إبكوه لأنه كان بالأمس ينطقُ بالكلمة فتدوى فى صدور العظماء ، دوىّ الرعد فى آفاق السماء ، فأصبح اليوم مطرّحاً مهيناً فى ظلّ هذا الحائط ، لايجدُ بين الناس من يأبه له ، ولا من يعطفُ إليه

أيها العقلُ الانسانى ، كيف حالتْ حالُك ، وتغيرت آيك ؛ وكيف انتقلتَ من الصدور الإنسية ، إلى الصدور الوحشية ؛ وكيف ضللتَ سبيلك ، وعَميَتْ عليك مذاهبُك ، فحسبتَ الخير شراً ، والشر خيراً ؛ واختلط عليك الأمرُ ، فلم تستطع أن تميزَ بين الحسنات والسيئات ، والمكارم والجرائم ؟

أيها الرومانيون : عفواً إن هذيتُ بينكم ، أو أسأتُ اليكم ، واعلموا أن الحزنَ قد قسم فؤادى قسمين ، قسم على هذا المنبر ، وقسم فى ذلك النعش

أيها الأصدقاء ، إن بين جنبى قلباً يخفق بحبكم ، والعطفِ عليكم ، والرأفةِ بكم ، ولولاَ مخافةَ أن تنفجرَ

صدوركم حزناً وجزعاً لقلتُ لكم إن قيصرَ قُتل مظلوماً

إنى أعتقدُ أن بروتس ورفاقه قومٌ شرفاء عظماء ،
لذلك أحب أن أسئ إلى نفسى وإلى قيصر وإليكم قبل أن أقولَ إنهم أخطؤا فى قتل قيصر

(وهنا صمتَ أنطونيوسُ وأرسل من جفنَيه بضعَ قطراتٍ من الدموع)

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه) يلوحُ لى أن فيما يقول الرجلُ شيئاً معقولا

آخر — إنك إن أنعمتَ النظرَ وجدت أن قيصر قد أُسىء إليه

آخر — لقد أثر فى نفسى زُهْدُه فى تاج الملك

آخر — لقد أحزننى عليه أنه كان يبكى رحمةً بالفقراء

آخر – ان الذى يرثى لبؤس البؤساء لا يكون طماعاً ولا ظالماً

آخر – إذاً فسيكون لمقتل قيصر شأنٌ غيرُ الشأن الأول

آخر – لا بدّ من عقاب القاتل

آخر – (يقول لجليسه) انظر إلى أنطونيوس فهو يبكى وينتحب

آخر – ليس فى رومة رجلٌ أشرف من انطونيوس

انطونيوس – أتأذنون لى أن أفارقَ موقفى هذا لحظة لأقفَ قليلا بجانب جثة القتيل ؟

الشعب – نعم نعم

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جُثّة قيصر وهو لايزالُ فى ملابسه التى قتِل فيها ولا تزال طعناتُ الخناجرِ ظاهرةً فى قبائه ثم قال)

انطونيوس – من كان يملكُ منكم دموعا فليعدَّها

لهذا الموقفِ العظيم ، فانه موقفٌ يحتاج إلى كل فى عيونكم من دموع

إنكم تعرفون جميعاً هذا القِباء ، ولكنكم لاتعرفون من تاريخه شيئاً ، أنا أعلمُ أن قيصرَ لبسه أول مالبسه فى مساء اليوم الذى انتصر فيه على (الدفى) ذلك الانتصار العظيمَ الذى نالتْ به روما فخرَ الأبد

(ثم وضع يدَه على أحد الثقوب التى فى القباء وقال)

فى هذا القباء الشريف مزقتْ جثةُ هذا الفاتحِ العظيم ، ومن هذا الثقبِ مرّ خنجرُ بروتسَ إلى صدر قيصر ، ومن هذا الثقبِ أطل دمُ قيصر ليرى بعينه وجهَ الضارب ، وأحسب أن جميع أفرادِ النوع الانسانى قد مروا بخاطر قيصر واحداً فواحداً قبل أن يمر بخاطره صديقهُ بروتس

عرف قيصرُ أن قاتله هو صديقهُ ، وصنيعةُ إحسانه ، ففترت همتهُ ، وعجز عن المقاومة ، لأن الطعنةَ التى أصابته فى جسمه ، لم تكن بأقلَّ من الطعنة التى أصابتْه فى قلبه ،

ولم يكن منظرُ المُدَى والخناجر، أبشعَ فى نظره من منظر الخيانة والغدر ، هنالك عجز قيصرُ عن أن يقولَ شيئاً غير الكلمة التى ودع بها قاتلَه الوداعَ الأخير :

(وأنت أيضاً يابروتس ؟)

وهنالك تحت تمثال « بومباى » وجد قيصر قتيلا وقد الَف وجهَه بقبائه حتى لاتتألم نفسُه مرة ثانية بمنظرِ كُفْرِ النعمة ، ونكران الجميل

هاءنتم تبكون على قيصر فشكراً لكم على هذه لدموع الكريمةِ التى طهرتم بها مالوثت به يدُ الظلم تربةَ هذه الأرض من الدماء

انكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق ، فكيف بكم لو شاهدتم ماتمزق من جثته

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه وقال)

إن فى كل جرح من هذه الجروحِ لساناً يشكو اليكم ، فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء

أحد الناس — ياله من منظرٍ فظيع !!

آخر — وارحمتاه لقيصر !

آخر — ان يوماً يقتل فيه قيصر لَيومٌ شرُّه مستطير

آخر — ياللدناءة والسفالة ! !

آخر — ياللغدر والخيانة ! !

آخر — الانتقام الانتقام

الشعب (وهو يضج ضجيجاً عظيما) أحرِقوا القتلة، مزقوهم، لاتبقوا على أحد منهم

أنطونيوس — مهلا مهلا، أنا لا أريد أن أشعلَ بينكم فتنـةً عمياء، ولا أريد أن تطالبوا القتلَة بالدماء التى أراقوها، فإننى لا أزال أعتقد أنهم قومٌ شرفاء، وربما كانوا يعرفون أسباباً لقتله لانعرفها، وانما أريد أن أقول لـكم أن قيصر كان يحبكم حباً جماً، فهو يستحقُّ رثاءكم له، وبكاءكم عليه

لولا أني أُوثِر الإِبقاءَ عليكم، ولولا أني أحب تخفيفَ

ما ألم بقلوبكم من الحزن على فقيدكم ، لتلوتُ عليكم وصيتهَ ، لتعلموا أن الرجلُ كان يحبكم ، وأنه ما كان خليقاً أن يقتل بينكم ، وفيكم عينٌ تطرِف ، وعرق ينبُض

الشعب — اقرأ الوصيةَ

أنطونيوس — إنى أخاف على صدوركم أن تنشقَّ حزناً على القتيل الشهيد

الشعب — نريد سماعَ الوصية

أنطونيوس — انه يعطى كلَّ فردٍ من أفراد الشعب الرومانى خمسةً وسبعين فرنكا ويوصى بجميع غاباته ومتنزّهاته للأمة

أحد الناس — ياله من رجلٍ كريم !

آخر — ياله من رجل شريف ! !

آخر — وَيل للقتلة !

آخر — الثورةَ ، الثورةَ

آخر — سنَحرِقُ منزلَ بروتس

ثم خرج الشعبُ يتدفقُ فى شوارع روما تدفقَ الأمواج الثائرةِ فى القاموس المحيط

أنطونيوس (فى موقفه وحده) — أيتها الفتنةُ العمياء، قد أيقظتُكِ من مرقدِكِ فارفعي رأسكِ، وامضى فى سبيلك، واشتعلى حتى يحرقَ لسانُك أديمَ السماء، ووجه الغبراء، اﻫ

وهكذا استطاع أنطونيوسُ فى موقفٍ واحد أن يستعبدَ الشعبَ الرومانى لنفسه قبل أن يفيق من استعباد قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لامفرَّ لها من إحدى العبوديتين، إما العبودية لحمَلَة التيجان، أو لحملة البيان

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل :

لى فى البلدةِ التى أسكنُها كرامةُ الحاكِم لأنى أشغل وظيفةً عالية فيها ، وقد بدا لى أن أختلفَ إلى المسجد لصلاة الجمعةِ فاختلفتُ حتى فاجأنى يوماً من الأيام ما لم يكن فى الحسبان

حدث أن صعلوكاً يعرفُنى ويعرفُ مقامى تمادى فى وقاحته وسوء أدبه حتى وقف بجانبى فى الصلاة، فاشمأزتْ نفسى من هذا الأمرِ اشمئزازاً عظيما ، وحاولتُ أن أحتملَه فلم أستطع ، وخفتُ إن انا طردتُه أن يؤاخذَنى الناسُ به، فهل تعرفُ مسوغاً شرعياً يفرقُ بين درجات الناسِ فى مواقف الصلوات ؟ ؟ (سائل)

يامولانا الحاكم :

رُحماك بهذا الصعلوكِ المِسكينِ الواقفِ بجانبك ، لاتضنَّ عليه بمذْقةٍ من ظِلك الظليل أن تمتدَّ إليه فتقيهَ أشعةَ التَّصعْلك الحارةِ التى يتلظى فيها ، ولا تحرمْه نفحةً من نفحاتك العطرةِ التى تهبّ من بين أردانك علّه يجد فيها رُوحَ الحياة ويتنسم منها نسيمَ السعادة والهناءة فيهدأ ساعة من الزمان عن الشعور بمصايبه ورزاياه ، وأحسنْ كما أحسن اللهُ إليك ، إن الله يُحِبُّ المحسنين

ليَفرخ رُوعك ، وليثلج صدرُك ، واعلم أن هذا المسكين الواقفَ بجانبك لايستطيعُ مهما نال منه العَدم ، وبرح به الشقاء ، أن يقتطع قطعةً من سعادتك ، أو يفتلذ فِلذة من شرفك ، فشرفُك كالمصباح تستمدّ منه المصابيح، ونورُه نورُه ، وبهاؤه بهاؤه

لاتظلم الرجلَ ولا تقل إنه وقاحُ الوجه ، أو سيء الأدب فانى بما أعلم من أخلاق هؤلاء البؤساء وطباعِهم وآمالِهم

التى تعتلجُ بها صدورهم ، وتهتف به أحلامُهم ، أعتقد أنه ما وقف بجانبك إلا طمعاً فى دورة الفلك التى علتْ بك ، وأنزلتك منازلَ العظماء ، أن تدورَ به كذلك ، فتنزله منزلتك ، وتعلو به إلى مقامك ، فاغفرْ له جهلَه وقصورَه ، فمثلك من يقيل العثرةَ ، ويستر الزلة .

إنك تريدُ منى أن ألتمس لك فى أبواب الشريعة الاسلامية بابا يسوغُ لك طردَ هذا الصعلوكِ المجترىء عليك من موقفه الذى اختاره لنفسه بجانبك فاسمعْ ما أُلقى عليك :

إن الذى وقفتَ بين يديه فى مصلاك أعظمُ شأناً ، وأجلّ خطراً ، من أن يحفلَ بثوبك اللامع ، وجبينِكَ الساطع ، وردائك المطرز ، وقميصِك المحبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف أكثر مما يعرفُ لصاحبك ، فما كان له أن يأمرك بالتقدم عليه فى موقف الصلاة ، ولا أن يأمره أن يقف منك موقفَ العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم

إن للجُمُعَةِ والجماعة فضائلَ كثيرة، وحكماً جمة، أرادها الشارع منهما، وإنك لن تجد بين هذه الحكم، وتلك الفضائل، حكمةً أغلى، ولا فضيلةً أنفس، من خُلق التواضع الذى يشعر به العظيمُ عند ما يرى أنه قد وقف من الفقير فى ذلك الموقفِ المقدسِ موقفَ الأخِ من أخيه، والكَفيء من كَفيئه

إن كنتَ تريدُ يامولانا الحاكمِ من اختلافك إلى المسجد ألا تترك للفقير موقفا من المواقف يملك فيه الخيارَ لنفسه، حتى موقفه بين يدى ربه، فخير لك أن تستصحب معك عند ذَهابك شرطتَك وأعوانَك، لتأمرَهم فيه بما يرضيك من طرده وإقصائه والتنكيلِ به جزاء له على وقاحته وسوء أدبه، فان تم لك من ذلك ما أردتَ فاحذرْ أن تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية، بعد ما نطقتَ بكلمة الألوهية، حتى لاتجمعَ على نفسك بين رذيلتَى الظلم والرياء

فان كنت تريد الصلاةَ للصلاة فاعلم أن الله لا يقبلُها منك،

ولا يجزل لك ثوابَها ، حتى تقف بين يديه موقفَ من خالطت الخشيةُ قلبَه ، وملكت عليه السكينةُ سمعه وبصرَه ، فلم يعد يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يعلم أواقفٌ هو فى صفوف الملوك ، أو فى زمرة الصعاليك

أيها العظماء :

ليست العظمةُ التى تعرفونها لأنفسكم إلا منحةً من الفقراء إليكم ، فلولا تواضُعُهم بين أيديكم ما علَوتُم ، ولولا تصاغرُهم فى حضراتكم ما استكبرتم ، فلا تجزوهم بالاحسانِ سُوءا ، ولا تجعلوا الكفرَ مكان الشكر ، تستدفعوا النقم ، وتستدعوا النعم

أيها العظماء :

ما هذه القصورُ التى تسكنونها ، ولا هذه الدُّورُ التى تعمرُونها ، ولا هذه الأردية التى تجرُّرون أذيالَها ، إلا ألوانا وأصباغاً لا علاقة بينها وبين حقائق نفوسكم ، ولا صلةَ لها بجواهر أفئدتكم وقلوبِكم ، وما هو

إلا أن تطلعَ عليها شمسُ الحقيقةِ حتى تذهبَ بها، ذَهابَها بألوان السحاب، وأصباغ الثياب، فاذا أنتم عُراةٌ مجردون، لا تشفعُ لكم إلا فضائلكم، ولا تنفعكم إلا مواهبُكم ومزاياكم أيها العظماء

لا عذر لكم فى الكبرياء فى جميع حالاتكم وشؤونكم، فان كنتم من أرباب الفضائل فحرِىٌّ بالفاضلِ أن لا يشوّهَ وجهَ فضيلته برذيلة الكبرياء، أوْلاَ، فما تحملُ الأرضُ على ظهرها أسمجَ وجهاً، ولا أصلبَ خداً، من جهلة المتكبرين، فانظروا أين تَنزلون، وفى أى مُقامٍ تُقيمون

الانتحار

قرأتُ في بعض الصحفِ أن رجلا من تجار المسلمين انتحر لا لضيقِ يدٍ ، أو شدةِ مرض ، أو بؤسِ حال ، بل لأنه حزِن على وفاة صديقٍ له فقتل نفسَه

إن الرجلَ مؤمنٌ يعتقدُ ولا شك بسوء عاقبةِ المنتحر ، فكيف هان عليه وهو فى آخرِ يوم من أيام حياتهِ أن يضُمّ إلى خسارةِ دنياه ، خسارةَ آخرتهِ ، وهى العزاء الباقى له عن كل مالاقاه فى حياته من شقاء وعناء

إن الانتحارَ نزعةٌ فاسدةٌ ، وعادةٌ مستهجَنة ، رمتْنا بها المدنيةُ الغربيةُ فيما رمتْنا به من مفاسدها وآفاتها

ولقد كنا نعجبُ قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حبّ تقليدِ الغربيين حتى فيما يؤذيهم فى شرفهم

وكرامتهم ، وكنا إذا أردنا المبالغةَ فى تمثيل هذا التهالكِ قلنا يوشِكُ أن يقتلَ الشرقىُّ نفسَهُ بنفسه إذا علم أن تلك عادةٌ من العادات الغربية ، فقد صار قريباً ما كان بعيداً ، وأصبح مألوفاً ما كنا نعدُّه فرضاً من الفروض

الانتحارُ منتهَى ماتصل اليه النفسُ من الجبن والخورَ ، وما يصل اليه العقلُ من الاضطراب والخبَل ، وأحسَبُ أن الانسان لايُقدِمُ على الانتحار وفى رأسه ذَرَّةٌ من العقل والشعور

حب النفس غريزةٌ ركّبها الله تعالى فى نفس الانسان لتكون ينبوعَ حياته ، وعمادَ وجودِه ، والمنتحرُ يبغض نفسَه أشدَّ مما يبغض العدوُّ عدوَّه ، فهو شاذ فى طبيعته ، غريبٌ فى خلقه ، معاندٌ لارادة الله تعالى فى بقاء الكون وعُمرانهِ ، ومن كان هذا شانه كان بلا قلبٍ ولا عقل

لاعذر للمنتحر فى انتحاره مهما امتلأ قلبُه بالهم ، ونفسُه بالأسى ، ومهما ألمتْ به كوارثُ الدهر ، وأزَمَتْ

به أزماتُ العيش ، فان ما أقدم عليه أشدُّ مما فرّ منه ، وما خسره أضعافُ ما كسبه

لو كان ذا عقل لعلم أن سكَراتِ الموت تجمعُ فى لحظة جميع ما تفرق من آلام الحياة وشدائدِها فى الأعوام الطوال ، وأن قضاء ساعةٍ واحدةٍ فيما أعدّ اللهُ لقاتل نفسِه من العذاب الأليم أشدُّ من جميع ما يشكو منه وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمّرُ ألف سنة

ما أكثرَ همومَ الدنيا وما أطولَ أحزانَها ، لا يفيق المرء فيها من همّ إلا إلى هم ، ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى مثلها ، ولا يزال بنوها يترجّحون فيها ما بين صحةٍ ومرض ، وفقرٍ وغنى ، وعز وذل ، وسعادة وشقاء ، فاذا صح لكل مهموم أن يمقتَ حياته ، ولكل محزونٍ أن يقتل نفسه ، خلت الدنيا من أهلها ، واستحال المقام فيها ، بل استحال الوفود اليها ، وتبدلتْ سنةُ الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا

ما سُمى القاتلُ مجرماً إلا لأنه قاسى القلب ، متحجرُ

الفؤاد، وأقسى منه قاتلُ نفسِه، لانه ليس بينه وبينها من الضغينة والمَوجِدة ما بين القاتل والمقتول فهو أكبرُ المجرمين، وأقسى القاتلين

يخدع المنتحرُ نفسَه إن ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة، وأنه إنما يفعلُ فَعلتَه عن روية وبصيرة، فانه لا يكاد يضعُ قدمَه فى المأزق الأول من مآزق الموت حتى يتوبَ اليه رشدُه وهداه، ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلا

إن ألقى نفسَه فى الماء تخبط وبسط يدَه إلى من يرجو الخلاصَ على يده وود لو يفتدى نفسَه بكل ما تملك يمينه، وان حبس نفسَه فى غرفته ليموتَ مختنقاً بالغاز ودّ لو سقط عليه سقفُ الغرفة ليستنشقَ نسمةً من نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسيرَ اليد والرجل، فاقد السمع والبصر

إنّ فكرةَ الانتحار نزغةٌ من نزغات الشيطان، وخطرةٌ من خطرات النفس الشريرة، فمن حدثتْه نفسُه بقتل نفسه فليتريثْ ريثما يتبين كيف يكون صبرُه على

احتمال سكراتِ الموت ، وآلام النزع ، وماذا يكونُ حديث الناس عنه بعد موته ، وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذر له ، أو مشفقٌ عليه ، أو مقتصد في النَّيل منه ، والسُّخرِية به ، وليَعْرِضْ على مخيلته قبل ذلك أشكال العذاب وأنواع العقاب ، التي أعدها الله في الدار الآخرة لأمثاله

إني لا أظنه بعد ذلك فاعلا إلا إذا كان وحشاً في ثوبْ إنسان ، أو بطلا من أبطال المارستان

الحياة الشعرية

لولا الحياةُ الشعرية التي يحياها الناسُ أحياناً لسمج في نظرهم وجهُ الحياة الحسية ، ومرَّ مذاقُها في أفواههم ، حتى ما يغتبط حيٌّ بنعمة العيش ، ولا يكره ميت طلعةَ الموت

لذلك نرى كلَّ حي يهرب من الحياة الحسية جِدَّ الهرب ، لاجئاً إلى الحياة الشعرية من أي باب من أبوابها ، لأنه يرى في هذه مالا يراه في تلك مما يريح فؤادَه ، ويثلج صدره ، وينفي عن نفسه السآمةَ والضجر ، من صنوف المناظر ، وأفانينِ المشاهد ، وغرائب المؤتلفات ، وعجائبِ المختلفات

لولا حبُّ الحياة الشعرية ما وُجد في الناس كثيرٌ من

المولعين بتخدير أعصابِهم كشاربى الخمر ومدخنى الحشيشة وآكلى الأفيون ، وهى وان كانت فى نظرهم حياةُ سعادةٍ يتخللها شقاء ، إلا أنها خيرٌ عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة ، ولولا حب الحياة الشعرية ماوُجد فى الناس هذا الجمُّ الغفير من الشعراء المتخيلين ، والعابدين المتبتلين

لا يجد السكيرُ لذةَ العيش وهناءته إلا إذا أسلم نفسهَ إلى كأس الشراب فنقلَته من هذا العالم البسيط المحدود إلى عالَم واسع النطاق ، شاسعِ الأطراف ، يرى فيه كلَّ ماتشتهى نفسه أن تراه ، فان كان قبيحَ الوجه مُشوّه الخلقةِ تخيل أنه شركُ الأبصار ، وفتنةُ النظار ، وأن القلوب مُحَلِّقةٌ على جمالهِ تحليقَ الأطيار على الأشجار ، وان كان فقيراً معدماً لا يملك فَلْساً واحداً توهم أنه جالس على عرش الملك والصولجانُ فى يمينه ، والتاجُ فوق رأسه ، واعتقدَ أن عبيد الله تعالى جميعاً عبيدُه ، وجنودَ المملكة بأسرهم جنودُه ، حتى ذلك الجندى الذى يسحبه على وجهه

إلى غرفة السجن ليقضىَ فيها ليلته ، وجملةُ القول أن عينه لاتقعُ على مايحزنه من المنظورات ، وأن أذنَه لاتسمعُ ماينفرهُ من المسموعات ، حتى ليرى الجمالَ الباهرَ فى وجه العجوزِ الشمطاء ، ويسمع فى صوت الرعد القاصف ألحان الغناء

ولا يشعر المتعبدُ بنعيم الحياة إلا إذا جن الليل ، وأوَى إلى معبدِه ، وخلا بنفسه ، فتخيل أن له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطيرُ بها فى جو السماء ، فيرى الجنةَ والنار ، والعرشَ والكرسى ، ويسمع صريرَ القلم فى اللوح ، ويقرأ فى أم الكتاب حديثَ ما كان وما يكون

ولا يستفيق الشاعرُ من هموم الحياةِ وأكدارها ، ومصايبها وأحزانها ، إلا إذا جلس إلى مِنضَدَتِهِ ، وأمسك بيراعه ، فطار به خيالُه بين الأزهار والأنوار ، وتنقل به بين مسارح الأفلاك ، ومسابح الأسماك ، ووقف به تارةً على الطلول الدوارس ، يبكى أهلَها النازحين ، وقطانها

المفارقين ، وأخرى على القبور الدوائر ، يندب جسومَها الباليات ، وأعظمَها النخِرات

ليس الأملُ إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية ، ولا يوجد بين قلوب البشر قلبٌ لايخفق بالآمال العظام ، والأمانى الحسان ، فالأملُ هو الحياةُ الشعريةُ العامة التى يعيش فى ظلها الناسُ جميعاً أذكياء وأغبياء ، فهماء وبلداء ، والأملُ هو السدُّ المنيع الذى يقف فى وجه اليأس ، ويعترضُ سبيلَه أن يتسرب إلى القلوب ، ولو تسرب اليها لضاقت بالناس هذه الحياةُ وثقل عِبئها على عواتقهم ، فطلبوا الخلاصَ منها ولو إلى الموت ، طلباً للتغير والانتقال ، وشغفاً بالتحول من حال إلى حال

يقولون أشقى الناسِ فى هذه الحياة العقلاء ، ويقولون مالذةُ العيشِ إلا للمجانين

أتدرى لماذا ؟

لأن نصيبَ الأولين من الحياة الشعرية أضعفُ من نصيب الآخرين ، وذلك أن عقل العاقل يَحُول بينه وبين استمرارِ الطيران فى فضاء الخيالات الذهنية ، والمغالطاتِ الشعرية ، فلا يرى سوى مابين يديه من الحقائق الملموسة ولا يسمح له عِلْمُهُ بأحوال الدنيا وشؤونها ، ومعرفتُه أن المصايبَ والآلام لازمٌ من لوازمها التى لاتفارقُها ، أن يؤمِّل منها ماليس فى طبيعتهامن دوام السرور ، واستمرار الهناءة ، فلا يطلب سَعَةَ العيش من وراء الأمل كبقية المؤمِّلين ، ولا يتلذذُ بتصديق مالايكون تلذذَ المجانين

والحقُّ أقول ، لولا الحياةُ الشعرية التى أحياها أحياناً فى هذه الكلمات التى أكتبُها لأحببتُ زُهداً فى هذه الحياة الحسية أن تطلعَ الشمسُ من مغربها إيذاناً بانقضاء العالم وفنائه ، ولتمنيتُ حباً فى الانتقال من حال إلى حال أن أنتقلَ ولو إلى رحمة الله

رباعيات الخيام

وقفتُ برباعيات عمر الخيام[1] يوماً من الأيام كما يقفُ مسافرٌ ضلّ به سبيله فى فلوات الأرض ومجاهلها بوادٍ مُعْشِبٍ أريض فى وسط فلاةٍ جرداء، عند منقطع العُمران، فما خطوتُ فيه بعضَ خطوات حتى رأيتُ ماشاء الله أن أرى من أنوار بيضاء، وورودٍ حمراء، وألوان من النبات، مشتبهات، وغير مشتبهات، وغُدران مطردة متسلسلة تنبسطُ فى تلك الديباجةِ الخضراء، تبسطَ النجوم البيضاء، فى الديباجة الزرقاء، وأسرابٍ من الحمائم والعصافير، والبلابلِ والشحارير، تتطاير من فرع إلى فرع، وتنتقلُ من غصن إلى غصن، وتجتمع لتفترقَ، وتفترقُ لتجتمعَ، وتتقاتلُ مرة،

(١) عمر الخيام شاعر فارسى كان فى القرن السادس من الهجرة ورباعياته هذه مترجمة الى أكثر لغات العالم

وتتلاثم أخرى ، وتصعدُ حتى تلامس بأجنحتها جلدةَ السماء ، ثم تهبط حتى تصافح صفحةَ الماء ، ولا تزال تغردُ فى صعودها وهبوطها تغريداً مختلفَ النغمات ، متنوعَ النبرات ، فيتألف من ذلك الاختلافِ والتنوعِ نَغَمٌ لذيذٌ لا أعرف له شبيهاً إلا تلك الصورةَ الخيالية التى أتخيلها فى نغم الحُور الحِسان ، فى فراديس الجنان

فلم أزل أتقلب فى أعطاف تلك الغلائلِ الخضراء ، وأجر ذيولَ تلك الجداول البيضاء ، وأقلب طرفى فلا أرى رائحاً ولا غادياً ، وأتسمّع فلا أسمع هاتفاً ولا داعياً ، حتى وقف بى الحظ على دوحة فرعاء ، ماثلةٍ على رأس بعض الجداول ، قد اضطجع فى ظلها على قطيفةٍ من ذلك العُشبِ الناعمِ رجلٌ هانئ باسمٌ ، يقرأ تارةً سورةَ الجمال فى وجه فتاةٍ جالسة بين يديه ، ويقبل أخرى ثغر الكأس التى تتلألأ فى يمينه ، ويترنم فيما بين هذا وذاك بمقطوعاتٍ شعرية بديعة ، يمثلُ فيها جمال الطبيعة وهدوءها ، وسعادةَ الوحدة وهناءتها ،

ويطير بأجنحة خياله فى عالم بديع من عوالم الغيب ، تاركا هذا العالم الحافلَ بالهموم والآلام ، طارداً عن نفسه كلَّ خاطرٍ من خواطر الشرور والآثام ، ليستكمَل لذته فى الحياة التى يحياها بين ظله ومائه ، وكأسه وفتاته

فإن مر بخاطره ذكرُ الملوك والأمراء وما ينعَمون به من عز وسلطان ، ولذةٍ واستمتاع ، قال مالى وللملك والسلطان ، والحاشية والجند ، والقصور الشماء ، والجنان الفيحاء ، هنالك المحنةُ والشقاء ، والفتنةُ الشعواء والهموم والارزاء ، والدماء والاشلاء ، والعويلُ والبكاء ، وهنا الراحةُ والسكونُ فى ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لاسيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، وبين هذين الثغرين ، ثغرِ الفتاة ، وثغرِ الكاس ، وذَينِكَ الصديقَيْن ، هذا الكتابِ المفتوح ، وذلك الغصنِ المطل ، كلُّ مايتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة فى الحياة وهناءة

وإن ذكر الآخرةَ وما أعدالله فيهامن العذاب للمسرِفين

على أنفسهم ، قال إن من العجز أن أبيعَ عاجلَ السعادة المعلومَ ، بآجلها المجهول، أنا اليوم موجودٌ ، فلابدأن أستمتعَ بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لى به ، ولا بما قُدر لى فيه ، وعسيرٌ على أن أتصور أننا معشر الأحياء الناطقين قِطعٌ من المعدن الصامت نُدفَن اليوم فى باطن الأرض ليَنْبشَ عنا النابشون غداً

ثم يعود إلى نفسه مستغفراً اللهَ من ذنبه فى شكه وارتيابه فيقول: اللهم إنك تعلمُ أنى ما كفرتُ بك مذ آمنتُ ، ولا أضمرتُ لك فى قلبى غيرما يُضمِرُ المؤمنون الموحِّدون ، فاغفر لى آثامى وذنوبى ، فإنى ما أذنبتُ عناداً لك ، ولا تمرداً عليك ، ولكنها الكأس غلبتنى على أمرى ، وحالتْ بينى وبين عقلى ، وأنتَ أجلُّ من أن تقاضيني مقاضاةَ الدائن غريمه ، لأنك كريم ، والكريمُ يمنحُ العطيةَ مَنحاً ، ولا يُقرِضُها قرضا ، ويُسبغ نعمته الوارفةَ الظليلة حتى على العُصاةِ والمجرمين

وأحياناً يستشعر قلبُه الرحمةَ بالعباد فيَبكى أحياءَهم وأمواتهم ، ويقول مخاطباً فتاته : رُوَيْداً أيتها الفتاة في خُطاك على هذه الأعشاب النابتة ، فلعل جذورَها ممتدةٌ إلى كبد فتاة مثلكِ كان لها قلبٌ مثلُ قلبِك ، ووجدانٌ مثل وجدانِك ، وجمال ورُواء مثل جمالكِ ورُوائك ، ثم ضرب الدهرُ ضرباته فإذا أنتِ فى غِلالة هذه الأشعة البيضاء ، وإذا هى فى دُجنةِ تلك الأعماق السوداء ، فارفقى بها ، واسكبى هذه الفضلةَ من كأسك على تربتها ، علها تتسربُ إليها فتطفئ ذلك اللاعجَ الذى يعتلجُ بين جوانحها

ثم يتخيل أحيانا كأنه واقفٌ بين يدى رجل خزّاف يحرق حمأته فى تنوره فيقول له : رحمة أيها الخزاف بهذه الحمأة التى تقلبها فى هذه النار ، فقد كانت بالأمس إنساناً مثلك ، وستكونُ أنت فى مستقبل الأيام حمأة مثلها ، وربما ساقك القدرُ إلى يد خزاف تحتاج إلى رحمته ورفقه ، فارفِق بها اليوم يرفقْ بك خزافُك غداً

وآونة يلبس ثوبَ الواعظِ المنذرِ فينعَى على السعداء

سعادتَهم ، ويذكرهم بما آلتْ إليه حالُ الملوك السالفين ، والأقيال الماضين ، من خراب دُورِهم ، وعُمْرانِ قبورهم ، وغروبِ شموسهم ، وعفاء آثارهم

ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه وترقب ذلك اليوم الذى تصوح فيه زهرتُه ، وتنطفئ جذوتُه ، وتضعف مُنّته ، ويمحو نهارُ مشيبه ليلَ شبابه ، فيزحف إلى قبره خطوةً خطوةً حتى يتردّى فيه ، فيعود كما كان سراً مكتوماً فى ضمائر الأقدار ، وذَرَّةً هائمة فى مجاهل الأكوان

وهكذا مازال ينتقلُ من عبرة بليغة ، إلى عِظة بديعة ، ومن خيال جميل ، إلى تشبيه رقيق ، ومن وصفٍ ناطق ، إلى تمثيل صادق ، حتى أصبحتُ أعتقد أن هذه النفسَ التى تشتملُ عليها بُردةُ هذا الشاعر الجليل مرآةً صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضه وسمائه ، وليله ونهارهِ وناطقهِ وصامته ، وصادحه وباغمه ، وأن نخارَ الاعرابِ بِمُتَنَبِّيها ومعَرّيها ، والفرنسةِ بلا مَرْتينها وفكتورِها ،

والسكسون بشكسبيرِها وملتونها ، والطليان بدانتها ، والالمان بجيتها ، والرومان بڤرجيلها ، واليونان بهوميرِها ، ومصر القديمة ببنتاؤورِها ، ومصر الحديثة بأحمدِها ، لا يقل عن فخار فارسَ بخيَّامِها

الى تولستوي [١]

قف ساعةً واحدة نُوَدِّعْكَ فيها قبل أن ترحلَ لِطيّتك، وتتخذَ السبيل إلى دار عزلتِك، فقد عشنا في كَنَفِك على ما بيننا و بينك من بعد الدار، وشط المَزار، عهداً طويلا كنا فيه أصدقاءك وإن لم نرك، وأبناءك وان كان لنا آباءٌ من دونك، وعزيزٌ علينا أن تفارقَنا قبل أن نقضيَ حقّ عشرتك بدمعةٍ نذرفُها بين يديك فى موقفِ الوَداع

حدّثَنا الناسُ عنك أنك ضِقْتَ بهذا المجتمعِ الانسانى ذَرْعاً، بعد أن أعجزك إصلاحُه وتقويمُه، فأبغضته، وعفت النظرَ اليه، وأبغضتَ لبغضه كلَّ شىء حتى زوجَك

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ماجاء فى الاخبار أن تولستوى الفيلسوف الروسى المشهور ترك منزلة هائماً على وجهه ليعتزل الناس فى أحد الاديرة أو فى احدى الغابات

وولدكِ، ففررتَ بنفسك منه إلى غاب تسمع زئيرَ سباعِه، أو دَيرٍ تأنس برنّةِ ناقوسِه، وأسجلت أن لاتعود إليه، وأن تقطع كلَّ صلةٍ بينك وبينه إلى الأبد، فعذرناك ولم نعتبْ عليك، ولم نسمعك جباناً ولا رِعديداً، ولا مولياً ولا مُدْبِراً، لأنك قاتلتَ فأبليت، حتى لم يبق فى غِمْدِكَ سيفٌ، ولا فوق عاتقِكَ رُمحٌ، ولا فى كِنانتِك سهم، والعدوّ كثيرٌ عَدَدُه، صعبٌ مراسُه، وافرةٌ قوتُه، والشجاعةُ فى غير موضعها جنون، والوقوف أكثر من ثمانين عاماً أمام عدو لاأمل فى بَرَاحه، ولا مطمع فى زياله، عناد، وهل يكون مصيرُكَ إن أنت ثَبتَّ فى موقفك حتى سقطتَ قتيلا فى المعركةِ إلا مصيرَ أولئك الفلاسفةِ العظماء من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا فهُدِرَتْ دماؤهم، واغتمضتْ عيونُهم قبل أن يروا منظراً من مناظرِ الصلاحِ والاستقامة فى المجتمع البشرى يُعَزُّونَ به أنفسهم عن أنفسِهم، ويروِّحون به مايجدون بين جوانحِهم من ألم النزعِ، وفى أفواههم من مرارةِ الموت؟

ماذا لقيتَ من الدنيا ؟ وماذا أفدتَ منها ؟ وأين وقعَ علمُك وفضلُك ؟ ولسانك وقلمك ؟ وقوةُ عارضتِك، ومضاء حجتك ، من آثام الناس وشرورهِم ، وقسوةِ قلوبهم وأفئدتهم ، وظلمِ ألسنتهم وأيديهم ؟

قلتَ للقيصر أيها الملك إنك صنيعةُ الشعب وأجيره ، لا إلهه ومعبودُه ، وإنك فى مَقعدك فوقَ عرشِكَ لافرق بينك وبين ذلك الأكّار فى المزرعة ، وذلك العاملِ فى المصنع كلا كما مأجورٌ على عملٍ يعملُه ، وكلا كما مأخوذ باتقان مايعمل ، فكما أن صاحبَ المصنع يسأل العاملَ هل وفى عمله ليوفى له أجره ، كذلك يسألك الشعبُ هل قمتَ بحماية القانون الذى وَكل إليك حراستَه فأنفذتَه كما هو من غير تبديل ولا تأويل ؟ وهل عدلتَ بين الناس وآسيتَ بين قويهم وضعيفِهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وقريبهم وبعيدهم ؟ وهل استطعتَ أن تستخلصَ عقلك من يدى هواك فلم تدعْ للحب ولا للبغض سلطاناً على نفسك يعدلُ بك عن

منهج العدل ومحجته ؟ وهل أصممت أذنك عن سماع كلمات الملق والدهان ، والمدح والثناء ؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم ، ولم تقتل عزة نفوسهم ، ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك ، أو الطمع فى ضعفك ، مذهب الزلفى إليك بالكذب والنميمة ، والتجسس ، والتسقط ، وذلة الأعناق ، وضرع الخدود ، فان وجدك الشعب عند ظنه ، ورآك أميناً على العهد الذى عهد إليك به ، أبقى عليك ، وأبقى لك عرشك وتاجك ، وحفظ لك يدك التى اصطنعتها عنده ، وأحسن إليك كما أحسنت إليه ، أولا ، كان له معك شأن غير هذا الشأن ، ورأى غير ذلك الرأى

فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها ، لأنه لم يجد بين الكثير الذين يعاشرونه من يسمعه مثلها ، فحقد عليك ، وأضمر لك من الشر ما يضمر أمثاله لأمثالك ، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل ليعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته فى مواقف خوفه وقلقه

وقلت للغرندوق الروسى ليس من العدل أن تملك وحدك وأنت نائم فى سريرك ، بين روضك ونسيمك ، وظلك ومائك ، هذه الارضَ التى تضم بين أقطارها مليونَ فدان ، ولا يملك واحدٌ من هؤلاء الملايين الذين يفلحونها ويحرثونها ، ويبذرون بذورَها ، ويستنبتون نباتَها ، ويسوقون ماشيتَها ، ويتقلبون بين حرّها وبردِها ، وأجيجها وثلْجها ، شبراً واحداً فيها ، فاعرفْ لهم حقّهم ، وأحسن القسمةَ بينك وبينهم ، وأشعِر قلبك الخجلَ من منظرِ شقائهم فى سبيل سعادتِك ، وموتِهم فى سبيل حياتِك ، واعلم أن الأرضَ لله يُورِثُها من يشاء

ثم لم تقنعْ بما بذلتَ له من العِظَةِ والنصيحةِ حتى ضربت له مثلا من نفسك فعَمدتَ إلى أرضك فجعلتها قسمةً بينك وبين القائمين عليها من الزارعين ، ثم عَمدت إلى فأسِك فحملتَها ، وماشيتِك فأخذتَ بزمامها ، ولم تزل سائراً حتى بلغت مزرعتك الصغيرةَ التى استبقيتها لنفسك ، فضربتَ مع

الضاربين ، وخضت مع الخائضين ، لتعلِّم ذلك الجبارَ بفعلك ، مالم تستطعْ أن تعلمه إياه بقولك ، فسخرَ منك ، ورثى لعقلك ، وألف من حادثتك رواية غريبة يروِّحُ بها عن نفسه ، فى مجتمعات أنسه ولهوِه ، مايساورُه من السآمة والضجر

وقلتَ للكاهن إن المسيح عاش معذَّباً مضطهداً لأنه لم يرض أن يُقرَّ الظالمين على ظلمهم ، وإنه أبى أن يخفىَ المصباحَ الذى فى يده تحتَ ثوبهِ ، بل رفعه فوق رأسِه ، غير مبالٍ بنِقْمة الملوك على ذلك النورِ الذى يكشفُ سوآتهم ، ويهتك أستارَهم ، وأنت تزعمُ أنك خليفتُه ، وحاملُ أمانتهِ ، والقائمُ بنشر آياته ، والمترسمُ مواقع أقدامه فى خطواته ، فما هذه الجلسة الذليلةُ التى أراك تجلسها تحت عروش الظالمين ؟ وما هذه اليدُ التى تبسُطها اليهم بالمودة والاخاء كأنما تريدُ أن تعقد بينك وبينهم عهداً أن يظلموا ماشاءوا ويسلبوا ما أرادوا ، باسمك وباسم الكتابِ الذى تحملهُ فى يدك ؟ وما هذه السلطةُ التى تزعمها لنفسكَ أن تُدخلَ

الجنةَ من تشاء ، وتُخرجَ منها من تشاء ؟ وماهذه القصورُ التى تسكنُها ، والديباجُ الذى تلبسُه ، والعيشُ الباردُ الذى تنعم به ؟ وأنت الراهبُ المتبتّل الذى كتب على نفسه الانقطاعَ عن الدنيا وزُخْرُفِها إلى عبادة الله والانكماش فى طاعته

ذلك ماقلتَ للكاهن ، فكان جوابه أن أرسل اليك كتابَ الحرمان ، وهو يعلمُ أنك لاتعترفُ له بالقدرة على إعطاء ولا منع ، ولكنه أراد تشويهَ سُمعتِك ، والغضّ من كرامتك ، واغراء العامة بك ، فكان ذلك كلّ ما أفدت من نصيحتك وعظتك

وأبكاك منظرُ المنفيين فى سيبريا ، وما يلاقون من صنوف العذاب ، ويعالجون من أنواع الآلام ، فصرختَ صرخةً دوى بها الملاَنِ الأعلى والأدنى ، وقلتَ أيها الناسُ إن الشرَّ لايدفعُ الشر ، وإن الأشقياء مرضى فعالجوهم ، ولاتنتقموا منهم ، فالتربيةُ الصالحة تمحو الجرائم ، والانتقامُ يلهب نارها ، واجعلوا المدارسَ مكان السجونِ ، والمعلمين

مكان السجانين ، فلم يسمعْ صرخَتك سامعٌ ، ولا بكى لبكائك باكٍ ، ومازال القضاة يحكمون ، والجندُ يصادرون ، والسجانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون

وأزعجك منظرُ الدماء المتدفقةِ فى معارك الحروب ، وبكاء النساء المعولاتِ خلف أزواجهن وأولادهن واخوتهن وهم سائرون إلى حربٍ لا يعرفون لها مصدَراً ولا مَورِداً ، وقد حَمل بعضُهم لبعض ضغائنَ وسخائم لا سبب لها إلا ذلك الوهم الذى غرسه فى قلوبهم قساةُ السياسة ، نخيل إليهم أنهم أعداء ، وهم أصدقاء ، نخلعوا ثوبَ الانسان ، ولبسوا فروةَ السَّبُع ، وأنشب كلٌّ منهم ظُفرَه فى صدر أخيه كانه يفتشُ عن قلبه لينتزَعه من مكانه ، ذلك القلب الذى لو شُق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً ، لولا جَورُ السياسةِ وضلالُها

فما أغنى عنك بكاؤك وحنينُك ، ولا أجدى عليك

عويلك وأنينك ، فالحربُ لم تزل باقيةً ، ومصانع الموتِ لم تكتفِ بما أعدتْ من المهلكات لمعارك الارض ، حتى أصبحت تُعد مثلها لمعارك السماء

فهنيئاً لك أيها الرجلُ العظيمُ مااخترتَ لنفسك من تلك العزلةِ الهادئة المطمئنةِ ، فقد نجوتَ بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها إلا أن يسكت فيهلك غيظاً ، أو ينطقَ فيموت كمداً

ربما الحكيمُ استطاع أن يحيل الجهلَ علماً ، والظلمةَ نوراً ، والسواد بياضاً ، والبحرَ براً ، والبر بحراً ، وأن يتخذ نَفَقاً فى الأرض ، أو سُلّماً فى السماء ، ولكنه لايستطيعُ أن يحيل رذيلةَ المجتمع الانسانى فضيلةً ، وفسادَه صلاحاً

مادام الانسان لاينتهى عن ظلم الانسانِ حتى يخافه ، وما دام لايحسن اليه إلا إذا أراد أن يتخذَه عبداً يعبده من دون الله ، وما دام للأثرة هذا السلطانُ الأكبرُ على أفراد

المجتمع من أكبرِ كبارِه ، إلى أصغر صغاره ، فانسان اليوم هو بعينه إنسانُ الغابات والأحراشِ بالأمس ، لافرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشروره ومفاسدِه الى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجاج شفاف لا يكتمُ ماوراءه

وارحمتاه [1]

في ذلك الاقليمِ القاحلِ في تلك الصحراء المحرقةِ طائفةٌ من فقراء المسلمين وبؤسائهم لا يملكون من الحول غيرَ قلوبٍ يملؤها اليقينُ بالله، والثقة به، ولا من الحيلة غيرَ ألسنةٍ تهتفُ في صباحها ومسائها، وبكورِها وأصائلها، بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرَها، ويسددَ خطاها، وييسر لها السبيلَ إلى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل بها في دار أمنها وسكونها نزولَ القضاء النافذ، يريد أن يسلبها ما أبقت الأيامُ في يدها، وما أبقت في يدها سوى لقيمات غيرِ سائغة، وجرعاتٍ غير هنيئة، وظلٍّ غير ظليل

وارحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس، انهم عاجزون عن أن يُعدوا لعدوهم الزاحفِ عليهم بقنابله وقذائفه غير

(١) كتبت أثناء الحرب بين ايطاليا وطرابلس الغرب

أجسام ستُصبحُ عما قليل أشلاء مبعثرةً تحت كل كوكب ، وقلوبٍ لاتزال تنبضُ حتى تسمع طلقاتِ المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطيرُ فى آفاق السماء ، طيرانَ ذلك الدُّخان فى أجواز الفضاء

وارحمتاه لهم إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ، ويستصرخون فلايسمعون مجيباً ، قد تقطعتْ بهم الاسباب ، وأعوزتْهم الوسائل ، وسدت فى وجوههم السبُل ، فلم يبق لهم منها الا سبيلُ الموت ، وفى الموت راحةُ البائسين والمنكوبين من شقاء الحياء وبلائها ، لولاأنهم يتركون من بعدهم بين يدى ذلك العدو الظالم أراملَ ضعفاء ، وأيتاماً صغاراً ، وشيوخاً كباراً ، لايعلمون ماذا أضمر لهم القدرُ فى صدره من نعيم أوشقاء

كأنى أراهم وقد غلتْ فى صدورهم حميةُ الدين والوطن ، ودارتْ فى رءوسهم سكرةُ العزّة العربية ، فأبوا إلا أن يزحفوا الى الموت الأحمر زحفَ المستقتلِ المستبسل

الذى يعلمُ أن بابَ الحياةِ السعيدةِ الأبدية لا يُفتح إلا بين يدى الأرواح التى احتقرت أجسادها وازدرتها ، فتجردت من أثوابها الرثةِ البالية وألقتها من ورائها ، وكأنى أرى الرجلَ منهم وقد دخل إلى بيته ليُعدعدته ، ويودعَ أهله الوداعَ الأخير ، فبكت أمه ، وناحت زوجُه ، وصاح ولدُه ، فبكى لبكائهم ، ورن لرنينهم ، لا جزعاً من الفراق ، لأنهُ فراق يعزيه عنهُ لقاء الله تعالى ، ولا خشيةً من الموت ، لأنه يعلم أن الحياة الذليلةَ أحقرُ من أن يضن بها صاحبها ، بل مخافةَ أن تستبد بأعراض بيتهِ وحرماتهِ تلك الأيدى الظالمةُ التى لا ترحم صغيراً ، ولا تعطفُ على كبير ، أو أن يهلكوا من بعده جوعاً وفقرا ، لأنهُ لم يترك لهم قوتاً يتبلّغون به ، ولا عماداً يعتمدون عليه ، فاذا علم أن موقفَه بين أهله موقفٌ جَلَلٌ يكادُ يُغلَبُ فيه على صبره نظر نظرةً فى السماء أرسل فيها إلى ربه جميعَ ما تهتفُ به نفسُه القريحةُ من وجد ورحمة ، وبكاء وحنين ، وأملٍ ورجاء ، ثم انفتل من بين أيديهم ،

ومضى لسبيله لايلوى على شىء مما وراءه ، حتى يبلغَ ساحةَ الحرب ، فلا يزال يقرعُ بابَ الحياة الأخرى حتى يُفتَحَ له

هنالك تنوحُ النائحاتُ ، وتبكى الباكيات ، وتطيرُ النفوس ، وتصعق القلوب ، وترن المنازل والدُّور بالنحيب والتعداد ، وهنالك ترى المرأةَ المسلمةَ المخبأة التى لم تر فى حياتها وجهَ الشمس الا من كوة بيتها بَرْزَةَ الوجهِ ، عاريةَ الرأس ، حَيْرَى مولهة ، هائمةً فى الطرق والمذاهب ، تسائلُ الغادين والرائحين مافعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها ، فإما بقيتْ فى حيرها بياضَ يومها وسواد ليلها ، وإما عادتْ إلى بيتها بالثكل القاتل ، والحزنِ الدائم ، وهنالك ترى الشيوخَ الكبار ، والأطفالَ الصغار ، والعاجزين والضعفاء ، لائذين بالتلال والآكام ، يحاولون أن يتقوا بهاصواعقَ الحرب وشُهُبها ، فلاتقيهم ، أوعائذين بالمضايق والشعاب يفرون اليهامن وجوه الخيلِ وسنا بكها

فلا تحميهم ، وهنالك ترى أولئك القومَ الذين يُسمون أنفسَهم مجاهدين ، أو فاتحين ، أوقُوَّاداً عِظاما ، أو سواساً كباراً ، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مِشيةَ الفرح المختال ، وينظرون إلى أولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم واستقلالَهم ، وانتهبوا أرواحهم وأموالَهم ، نظرَ السيد إلى مولاه الذى ملك ولاءه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ، وربما رَمَوا إليهم فى تلك الساعة بلقيمات كتلك التى يلقيها سيدُ الكلبِ إلى كلبه أو الراعى إلى ماشيته ، ليشهدوا العالم الانسانى أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفِهم ورحمتهم ، وأنهم ماسفكوا الدماء ، ولا قطّعوا الأوصالَ ، ولا أيَّمُوا النساء ، ولا يتموا الأطفالَ ، ولا انتهكوا الحرماتِ ، إلا خدمةً للانسانية العامة ، وإجلالا لشأنها

لا أحسَب أن مسلماً دخل الايمانُ قلبه فملأه رحمةً وإحساناً ، وعطفاً وحناناً ، يستطيعُ أن يتخذَ لجنبه فى ظُلمة الليلِ مضجعاً ، أو يجدَ لنفسه فى ضحوة النهارِ قراراً ، حزناً

على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدرون بأعينهم فى مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون ناصراً يعينهم على أمرهم ، أو مُنجداً يدفع عنهم عادية البلاء ، فلا يجدون إلا أمماً إسلامية قد أصابها مثلُ ما أصابهم من قبل ، فهى تعجز عن النظر لنفسها ، فأحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمةُ التى يعتقدون أنها باقية لهم فى قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القُوت يستعينون به على جهاد عدوّهم ، ويعودون بما بقى منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم

أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقربُ إلى الله ، وأدنى إلى رحمته وإحسانه ، وأجابُ لمغفرته ، ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين ، تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسلحون أعزلهم ، وتعالجون جريحهم ، وتخلفون قتيلهم فى أهله وولده

إنكم إن تُحسِنوا إليهم تُحسنوا إلى أنفسكم ، وإن تنقذوهم من كربتهم ، تنقذوا جامعَتكم وملتكم ، فان بينكم وبينهم لُحمةً أقوى من لحمة النسب ، ووشيجةً أوثقَ من وشيجة القربى ، وإنكم جميعاً تصلون إلى قبلةٍ واحدة ، وتهتفون فى الغداة والعشىّ بذكرٍ واحد ، وتتوجهون بقلوبكم فى نعمائكم وبأسائكم إلى إلهٍ واحد ، وتقفون فى بيت الله وحرمهِ بين الركن والمقام موقفاً واحداً

أيها المسلمون

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غداً ، وإن هُديتم لرشدكم فى موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبداً ، وإنكم إن قدّمتم بين أيديكم هذا العملَ الصالح أحسن الله جزاءكم ، وأعانكم على أمركم ، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومَعونتهِ ، وإن تَنْصُروا الله ينْصُرْكم ، ويُثبِّتْ أقدامَكم

خطبة الحرب

يا أبطالَ بَرْقَةَ ، وليوثَ طرابلس وحُماةَ الثغور ، وذادةَ المعاقلِ والحصون ، صبراً قليلاً في مجال الموت ، فهاهي نجمةُ النصرِ تلمعُ في آفاق السماء ، فاستنيروا بنورها ، واهتدوا بِهَدْيِها ، حتى يفتحَ الله عليكم

إن الله وعدكم النصرَ ، ووعدتموه الصبر ، فأنجِزُوا وعدَكم ، ينْجِزْ لكم وعدَه

لاتحدثوا أنفسكم بالفِرار ، فوالله إن فررتم لاتفرون إلا عنْ عِرْض لايجد له حامياً ، وشرفٍ لايجد له ذائدا ، ودِينٍ يشكو إلى الله قوماً أضاعوه ، وأنصاراً خذلوه

إنكم لاتحاربون رجالا أشداء ، بل أشباحاً تتراءى في ظلال الأساطيل ، وخيالاتٍ تلوذ بأكناف الأسوار والجُدران ، فاحملوا عليهم حملةً صادقةً تطير بما بقي من

ألبابهم ، فلا يجدون لبنادقهم كفًا ، ولا لأسيافهم ساعدا

إنهم يطلبون الحياةَ ، وأنتم تطلبون الموت ، ويطلبون القوتَ ، وتطلبونَ الشرفَ ، ويطلبون غنيمةً يملأون بها فراغَ بطونهم ، وتطلبون جنةً عرْضُهَا السمواتُ والأرض ، فلا تجزعوا من لقائهم ، فالموت لا يكون مُرّ المذاقِ في أفواه المؤمنين

إنكم تعتمدون على الله ، وتثقون بعدله ورحمتِه ، فتقدَّمُوا إلى الموتِ غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله لِيخذِلَكم ، ويكلَكم إلى أنفسكم ، وأنتم من القوم الصادقين

إن هذه القطراتِ من الدماء التي تسيلُ من أجسامكم ستستحيلُ غداً إلى شُهُبٍ نارية حمراءَ تهوِى فوق رءوس أعدائكم فتحرقُهم ، وإن هذه الأنّاتِ المتصاعدة من صدوركم ليستْ إلا أنفاسَ الدعاء صاعدةً إلى إله السماء أن يأخذ لكم بحقكم ، ويُعْدِيَكم على عدوكم ، والله سميعُ الدعاء

إن أعداءكم قتلوا أطفالكم ، وبقروا بطونَ نسائكم وأخذوا بِلحى شيوخِكم الأجلاء ، فساقوهم إلى حفائر الموت سوقاً ، فماذا تنتظرون بأنفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخَيلكم ورَجلكم ، وأصدقوا حملَتكم عليهم ، وجعجعوا بهم ، واقتلوهم حيثُ ثَقِفْتُموهم ، واطلبوهم بكل سبيل ، وتحت كلِّ أرض ، وفوق كلِّ سماء ، وأزعجوهم حتى عن طعامهم وشرابِهم ، ويقظتِهم ومنامِهم ، فما أعذب الموتَ فى سبيل تنغيصِ الظالمين

أُحفروا لأنفسكم بسيوفكم قبوراً ، فالقبرُ الذى يُحفر بالسيف لا يكون حُفرَةً من حُفَر النار

لا تطلبوا المنزلةَ بين المنزلتين ، ولا الواسطةَ بين الطرفَين ، ولا العيشَ الذى هو بالموت أشبهُ منه بالحياة ، بل اطلبوا إمَّا الحياة أبداً ، وإمّا الموت أبداً

غداً ينتهك أعداؤكم حرمةَ أرضكم ودياركم ، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم ، ويطأُون بحوافر خيولهم مساجدَكم

ومعابدكم ، ويَنظمون فى ثقوب آنافكم مقاودَ يقودونكم بها إلى مواقفَ الذل والهوان ، كما تقادُ الإبل المخشوشةُ إلى معاطنها ، فافتدوا أنفسكم من هذا المصيرِ المهين بجولة تجولونها فى سبيل الله ثم تموتون

موتُ الجبانِ فى حياتهِ ، وحياةُ الشجاع فى موته ، فموتوا لتعيشوا ، فوالله ما عاش ذليلٌ ، ولا مات كريم

إن هذه الأساطيلَ الرابضةَ على شواطئكم ؛ والمدافعَ الفاغرةَ أفواهها إليكم ، والبنادقَ المسدّدةَ إلى صدوركم ونحوركم ، لا يمكن أن يتألفَ منها سورٌ مَنيع يعترضُ سبيلَكم فى رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار ، فسيروا فى طريقكم إلى آخرتكم ، فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريقَ الحياة ، لا يملكون عليكم الموت

المستميتُ لا يموت ، والمستقتلُ لا يُقتل ، ومن يَهلكُ فى الإدبار ، أكثرُ ممن يهلك فى الاقدام ، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياةَ فانتزعوها من بين ماضغَى الموت

إن كتّاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم ، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تُملون عليهم من حسنات أو سيئات ، فأمْلُوا عليهم من أعمالكم مايترك فى نفوسهم مثلَ ذلك الأثر الذى تركْته فى نفوسكم تلك الصحائفُ البيضاء التى سجلها التاريخُ لأولئك الأبطال العظام

موتوا اليوم أعزاء ، قبل أن تموتوا غداً أذلاء

موتوا قبل أن تطلبوا الموتَ فيعوزِكم ، وتَنشدوه فيعجزكم

موتوا اليومَ شهداء فى ساحة الحربِ تُكفنكم ثيابكم ، وتغسلكم دماؤكم ، وتصلى عليكم ملائكةُ الرحمن ، قبل أن يسبقَ قضاءُ اللهِ اليكم فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلماً يصلى عليه صلاة الجنازة ثم يمشى وراء نعشه إلى قبره حتى يودعَه حفرته ، ويخلى بينه وبين ربه

إن الشيخَين أبا بكرٍ وعمر ، والفارسين خالداً وعلياً ،

والاسدَين حمزةَ والزُّبير ، والفاتحَين سعداً ، وأبا عُبَيدة ، والبطلَين طارقَ بن زياد وعقبةَ بن نافع ، وجميع حُماةِ الإسلام وذادته ، من السابقين الأولين ، والمجاهدين الصابرين ، يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذى تركوه فى أيديكم ، فامضوا لسبيلكم ، واهتكوا بأسيافكم حجابَ الموتِ القائم بينكم وبينهم ، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون ، وإنا على آثاركم لمهتدون

إن هذا اليومَ له ما بعده ، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم ، فانكم إن فعلتم لن يُعبدَ اللهُ بعد اليوم على ظهر الأرض أبداً

الانسانية العامة

الجامعةُ الإنسانيةُ هي الكليةَ العامة التي يلجأ إلى كَنَفِها هذا المجتمعُ الانساني كلما أزمَتْهُ أزمةٌ، أو نزلت به نازلة، وهي المطلع الذي تشرُق منه شمسُ الرحمةِ الالهية على هذا الكونِ فتنير ظلماءه، وتكشفُ غمّاءه، وهي الحكَم العدلُ الذي يفصلُ في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عُرْوتُها، ويدبّ دبيبُ العداوةِ والبغضاء بين أحيائها، وهي السلطانُ المطلقُ الذي يجلس على كرسيّ عظمتِه وجلاله فتخر له الجباهُ سجداً، وتبتَدرُ يديه الأفواهُ لثماً وتقبيلا

الجامعة الانسانيةُ هي الجامعة الأساسيةُ الثابتة التي رأت طينةَ آدم أولا، وسترى نفخةَ إسرافيلَ آخراً، والتي

تسيرُ مع الانسان حيث سار في بَرّه وبحره، وسهله وَحزنه وحياته وموته، وتدورُ معه حيث دار في إيمانه وكفره، وصلاحه وفساده، واستقامته واعوجاجه، لا يتغير لونها، ولا يتحول ظلُّها، ولا تستحيل مادّتُها، ولا تَبتلى جِدّتها على كرّ الليالى ومرّ الأيام

ما من جامعةٍ من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينيةِ أو العائلية إلا وهى تعتمدُ على الجامعة الانسانية فى سيرها، وتستظلُّ بظلها، وتهتدى بهديها، فالمجاهدُ الوطنىّ يقول إني أدافعُ عن وطنى، وأحمِى حوزتَه، وأقوم على ثغوره وعوراته مقامَ الذائدِ المناضل، لأنى أعتقد أننى إن أغفلتُ ذلك وأغفله فى وطنه كلٌّ ممنوّ بمثل ما أنا ممنوٌّ به فى وطنى تساقطت الحواجزُ القائمة فى وجه المطامع البشرية فجرى سيلُها متدفعًا لا يقوم له شيء حتى يأتى عليه، والمجاهدُ الدينى يقول إنى أعتقدُ أن الانسانيةَ لا تزال معذبةً يأكل قويُّها ضعيفها، ويغتال كبيرُها صغيرَها، ويستضعفُ حاكمها

محكومها ، حتى تدين بالدين الذى أدين به ، فأنا إن حاربتُ البلاد ، وقاتلت العباد ، فانما أريد بخَوض هذا البحرِ الاحمر من الدماء أن أصلَ إلى سفينة الإنسانية المُشرِفة على الغرق فأستخلصها من يد الموت الذى يحيطُ بها

هكذا يقول دعاةُ الدين ، ودعاةُ الوطنِ ، ودعاة كلّ جامعة ، وهكذا يجبُ أن يقولوا ، فان لم يفعلوا ، وأبوا إلا أن يُغفلوا ذكرَ الجامعة الانسانية فى دعائهم الى جامعاتهم التى يدعون اليها فسد عليهم أمرُهم فى كل مايقولون ومايفعلون

ليس لصاحب وطنٍ من الأوطان ، أو صاحبِ دين من الاديان ، أن يقولَ لغيره ممن يسكنُ وطناً غيرَ وطنه ، أو يدينُ بدين غير دينه ، أناغيرك ، فيجب أن أكون عدوّك ، لان الانسانيةَ وحدة لاتَكَثُّرَ فيها ولاغيريةَ ، ولأن هذه الفروقَ التى توجد بين الناس فى آرائهم ، ومذاهبهم ، ومواطن إقامتهم ، وألوانِ أجسادهم ، وأطوالهم وأعراضهم ، انما هى اعتباراتٌ ومصطلحات ، أومصادفاتٌ واتفاقات ، تَعرضُ

لجوهر الانسانيةِ بعدتكوينه ، واستتمامِ خَلقه ، وتتواردُ عليه توارُدَ الأعراض على الاجسام ، ففى كلّ بلد ، وفى كل عصر ، يستعجمُ العربى ، ويستعربُ الأعجمى ، ويسلمُ المسيحى ، ويتمسح المسلم ، ويلحدُ المؤمن ، ويؤمن الجاحد ، ويستشرقُ المغربى ، ويستغربُ المشرقى ، ولو شئتُ أن أقول لقلتُ إنه لايوجد فوق رقعة الأرض من لايزال يمسك حتى اليوم بطرَف سلسلةٍ ، ينتهى طرَفُها الآخرُ بوطن غيرِ وطنه ، ودينٍ غير دينه ، وأمة غيرِ أمته

اذا جاز لكل اقليم أن يتنكر لغيره من الاقاليم ، جاز لكل بلد أن يتنكر لغيره من البلاد ، بل جاز لكل بيتٍ أن ينظر تلك النظرةَ الشزراء إلى البيت الذى يجاورُه ، بل جاز للأب أن يقول لولده ، وللولد أن يقولَ لأبيه ، إليك عنى لاتمدّ عينيك إلى شىء مما فى يدى ، ولاتطمعْ أن أُوثِرَك على نفسى بشىء مما اختصصتها به ، لاننى غيرك ، فيجب أن أكون عدوّك المحاربَ لك ، وهنالك تنحلُّ

كلُّ عُقدةٍ ، وتنفصمُ كلُّ عُروةٍ ، ويحمل كلُّ إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغضِ والمقت ما يرنقُ عيشَه ، ويطيل سهدَه ، ويقلقُ مضجعَه ، ويحببُ اليه صورةَ الموت ، ويبغض اليه وجهَ الحياة ، وهنالك يُصبح الانسانُ أشبه شيء بذلك الانسانِ الأول فى وحشته وانفراده ، يقلبُ وجهَه فى آفاق السماء وينبشُ بيديه طبقاتِ الأرض فلا يجد له فى الوحشة مؤنساً ، ولا على الهموم مُعيناً

الجامعةُ الانسانية أقربُ الجامعات إلى قلب الانسان ، وأعلقُها بفؤاده ، وألصقُها بنفسه ، لأنه يبكى لمصاب من لا يعرف وإن كان ذلك المصابُ تاريخاً من التواريخ ، أو اسطورة من الأساطير ، ولأنه لا يرى غريقاً يتخبطُ فى الماء ، أو حريقاً يتلظى فى النار ، حتى تحدثَه نفسُه بالمخاطرة فى سبيله ، فيقف وقفةَ الحزين المتلهفِ ، إن كان ضعيفاً ، ويندفعُ اندفاعَ الشجاعِ المستقتلِ ، إن كان قوياً ، ويسمعُ وهو بالمشرق ، حديثَ النكبات

بالمغرب ، فيخفقُ قلبُه ، وتطير نفسُه ، لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانُه فى الانسانية ، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة فى أمر سواها ، ولولا أن ستاراً من الجهل والعصبية يُسبله كلَّ يوم غلاةُ الوطنيةِ والدين أو تِجارُهما على قلوب الضعفاء السذَّج لما عاش منكوبٌ فى هذه الحياةِ بلا راحم ، ولا ضعيفٌ بلا معين

لابأس بالفكرة الوطنية ، ولا بأس بالحَميّة الدينية ، ولا بأس بالعصبية لهما ، والذّود عنهما ، ولكن يجب أن يكونَ ذلك فى سبيل الانسانيةِ وتحت ظلالها ، أى أن تكون دوائرُ الجامعات كلُّها داخلةً فى دائرة الانسانية العامة غير خارجة عنها ، والوطنيةُ لاتزال عملا من الأعمال الشريفةِ المقدسة حتى تخرجَ عن حدود الانسانية فاذا هى خيالاتٌ باطلةٌ وأوهامٌ كاذبة ، والدين لايزال غريزةً من غرائز الخيرِ المؤثرةِ فى صلاح النفوس وهداها حتى يتمردَ على الانسانية ويُنابذَها فاذا هو شُعْبَةٌ من شُعب الجنون

فإن كان لابدَّ للانسان من أن يحاربَ أخاه أو يقاتله فليحاربه مدافعاً لا مهاجماً، وليقاتله مؤدبا لا منتقما، وليكن موقفه أمامه في جميع ذلك موقفَ العادلِ المنصف، والشفيق الرحيم، فيدفنه قتيلا، ويعالجه جريحاً، ويكرمه أسيراً، ويَخلفه على أهله وولده بأفضل مايَخلف الرجلُ الكريمُ أخاه الشقيقَ على ولده من بعده، وليكن شأنهُ معه شأنَ تلك الفئةِ المتحاربة التي وصفها الشاعرُ في قوله :

إذا احتربتْ يوماً ففاضت دماؤُها

تذكّرت القرْبَى ففاضت دموعُها

ادوار الشعر العربى

كانت العرب فى جاهليتها أمةً هائمةً متبدّية على الفِطرةِ النقيةِ البيضاء لا تعبثُ الحضارةُ بجمالها ، ولا تَعبث المدنيةُ فى صورتها ، تطلعُ شمسُها فى آفاقها فتنبسط أشعتُها على سهولها وحزونها ، ونجادِها ووهادِها ، من حيثُ لا يعترض سبيلَها من الظُّلل سحبٌ ، ولا من السقوف حُجُب ، وينبتُ نباتها حيثُ يجرى ماؤها ، لا تعبثُ فيه الأيدى بتربيعٍ ولا تدوير ، ولا تقويس ولا تعريج ، ويجرى ماؤها فى سبيله حيث ينسابُ به تَسَلْسُلُهُ واطّرادُه ، لا تلوى به عن قصده الحفائر ، ولا تنتصبُ فى وجهه القناطر ، ويهيم وحشُها فى جبالها ، وطيرُها فى أجوائها ، من حيث لا يحبس الأول عرينٌ موصود ، ولا الآخرَ قفصٌ محدود ؛ والشعر

من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وفطرتها

ينطق العربى بما يعلم، ويقول ما يفهم، ويصور ما يرى، ويحدث عما تمثل فى نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل، لأن كل ما هو محيط به من هواء وماء، وأرض وسماء، وطعام وشراب، ومرافق وأدوات، على الفطرة السليمة الخالصة، فأحرى أن يكون شعره كذلك

ذلك كان شأن الشعر العربى والعرب على فطرتهم، وذلك معنى قولهم: الشعر ديوان العرب، لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية، ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية، فان ظن ظان أن التماثيل والنصب، والصور والتهاويل، وبقايا الآثار، وقطع الأحجار، التى نراها فى خرائب اليونان والرومان، والفينيقين والفراعنة، أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربى على تاريخ العرب قلنا له

ما من ديوانٍ من دواوين الأمم الماضيةِ الا وقد تحدث المؤرخون يعبث الأيدى به ، ولعبها بسطوره وسجلاته ، أما الديوانُ العربىّ فصورةٌ صحيحة ، وآيةٌ ثابتة ، لا تغيير فيها ولا تبديل

ثم جرتْ بعد ذلك جوارٍ بالسعد والنحس فانتقلت الامةُ العربية من بداوتها إلى حضارتها ، وهاجر معها شعرُها بهجرتها ، فطلع جيشُ المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان ، بشارٌ وأبو نواس ، فطرقوا معانىَ لم تكن مطروقة ، ونهجوا مناهجَ لم تكن معروفة ، فقلنا لا بأس ، فالشعرُ العربىّ أوسعُ من أن يضيق بحاجات أمتِه وضروراتها ، فى جميع شؤونها وحالاتِها ، حتى جاء أبو تمام شيخُ الصناعةِ اللفظية فسلك إلى كثير من معانيه البديعةِ طريقَ اللفظِ المصنوع ، والأسلوبِ المتكلّفِ ، فثغر فى الشعر العربى ثغرةً ألحّ عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابِهم حتى صيروها فُوّهةً واسعةً لا تمنعُ ماوراءها ، ولا تدفعُ إما أمامها ، فأصبح الشعرُ على عهد

ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدى والسراج الوراق وأبى الحسن الجزار والصفى الحلى وأمثالهم أشبه شيء بتلك الآنية الفضية أو الصينية التى يضعها المترفون فى زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ، ظهراً زاهياً ، وبطناً خاوياً ، لا تشفى غُلّةً ، ولا نبض بقطرة ، ولا تُسمن ولا تُغنى من جوع ، ثم جاء على أثر هؤلاء مَن تدلى إلى منزلةٍ أدونَ من هذه المنزلة ، فجاءوا بشيء هو أشبهُ الاشياء بتلك التفاعيل التى وضعها الخليلُ ميزانا للشعر ، لا يروقُ لفظُها ، ولا يُفهم معناها

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعرُ العربىُّ بضعةَ قرون وقفةً لا يتزحزحُ عنها ولا يتحلحل ، حتى أنزل الله اليه من ملائكة البيان رُسُلا فى هذا العهد الأخير أخذوا بيده ، ونشروه من قبره ، ونفضوا عنه غبارَه ، فأصبحنا نرى فى أبراد الكثير منهم أجسام امرىء القيس والنابغة ومسلم وأبى نُواس وأبى عبادة والشريف ومهيار ، لا فرق بينهم وبينهم سوى أن هؤلاء مقلدون يتّبعون الآثار ، وأولئك مبتدعون يفترعون الابكار

حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيعُ أن أتصورَ الفرقَ بين رجلٍ يمدُّ يدَه إلى خِزانة بيتى فيسرق مالى ، وبين آخرَ يمد لسانه أو قلمه إلى شرفى فيستلبه ، كلاهما مجرمٌ فاتك ، وكلاهما لصٌ مغتال، وإن كان أولُهما فى نظر القانونِ وفى عرف الناسِ أكبرَهما إثما ، وأسوأهما أثراً

المال خادمٌ من خدام الشرفِ ، وحاجبٌ من حجابه الوقوف على بابه ، ولولا مكانُ الشرف، والكلفُ بصيانته، والضن به أن يعبثَ بجوهره عابث ، ما كان لامرئ فى هذا المعدنِ الصامت أربٌ أكثر من أن يقيم به صُلْبَه ، ويمسك به حوباءه ، فان كان سارقُ المال مجرماً من حيثُ كونُه هاتكاً لذلك الحجابِ المسبل دون الشرف، فجديرٌ بمن يسرق

الشرفَ نفسه أن يكون رأسَ الجانين وأكبرَ المجرمين

يكون للرجل من الصحيفين مثلا عند الرجل من كرام الناس وسَراتهم وذوى السيرةِ الصالحة فيهم مأربٌ من المآرب التى لا يَعرف لنفسه فيها حقًّا ولا يَمُتُّ إليها بسبب من الأسباب الظاهرةِ أو الباطنة ، فما هو إلا أن يمتنعَ عليه حتى يَرميَه بسهمٍ جارح من سهامه النافذاتِ يصيبُ به مقتلا من شرفه وكرامته ، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يُمكنْه من لحيته يلف عُثنونَها على يده ، ثم يقودُه بها إلى حيثُ يشاء ، كما تقاد السائمة إلى مصرعها

يحب الرجلُ المجدَ حبًّا يملأ ما بين جوانحه ، ويَكلَف بهِ حتى يُصبحَ آثرَ عنده من نفسه التى بين جنبيه ، ويقضى لكلفه به وحرصه عليه سوادَ ليله يساهرُ الكوكبَ حتى ينحدرَ إلى مغربه ، وبياضَ نهاره يساير الشمسَ حتى تغرب فى حمأتها ، ويقيم بينه وبين شهوات نفسِه ونزعاتِ قلبه حرباً عَواناً يحملُ فى سبيلها مالا يستطيعُ أن يحمله بشَر ،

حتى إذا أمكنهُ المقدارُ منه وبدأ ينهل أول نَهلة من مورده البارد العذبِ رآها ممزوجةً بذلك العلقم المرّ الذى صبه له فى إنائه ذلك المجرمُ الأثيم

إن بين جدران بعض تلك القاعات التى يسمونها «إدارات» قوماً مفاليك قد دارتْ عليهم الأيامُ دورتَها ، وسلبتهم المواهبَ التى يعيشُ بها أمثالهُم ، ممن ولد مولدهم ، ونشأ منشأهم ، فضاقت بهم سبلُ العيش التى ما كانت تضيق بهم لو أن الله أبقى لهم بعد أن سلبهم فضيلةَ الفهمِ والعلم فضيلةَ العملِ الصالح والسيرةِ المستقيمة ، فلما لم يجدوا بين أيديهم منفذا ينفذون منه إلى القوت ، فتحوا حوانيتَ للاتجار بأعراض الناس وكرامتهم سموها صحفاً ، وأكثر مشتملاتها أعراض الأشرافِ والعظماء ، وأرباب الجدّ والعمل ، الذين سبقوهم إلى فرْدَوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم يتأكّلون غيظاً لحرمانهم مما أفاض الله عليهم ، فهم إن فتشتَ عنهم ، وكشفت عن دخائلِ نفوسهم ، علمتَ ألّا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين

الذين يدينون بقتل الملوك والأمراء ، وأستغفرُ الله فللفوضويين رأى فى تلك الجرائم يرونه ، وفكرةٌ خاصة يعتقدون صحتها ، بل هم كقطاع الطريقِ الذين يهاجمون الغادين والرائحين ، ولاذنب لهم عندهم إلا أنهم مزوَّدون ، وهم مقفرو الأيدى من الزاد

ولقد كان يكونُ خطبهُم سهلا ، ومصابُهم محتملا ، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم ، وأبدوا للناس صفحاتِ وجوهِهم ، وطلبوا قوتَهم من طريق الكدية الواضحةِ البينة ، ولكنهم مراءون مخادعون ، يشتمون باسم الموعظة ، ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الابرياء باسم الغيرةِ الدينية أو الأدبية ، ووالله مابهم من أدبٍ ولا دِينٍ ، ولا عظةٍ ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محدودون ، قد بلغت الفلاكةُ منهم مبلغَها ، وضاقت بهم الأرضُ الفضاء على رحبها ، فهم يروِّحون عن نفوسهم بالنَّيل من شرف الشرفاء ، وتنغيصِ لذةِ السعداء ، ويطلبون قوتَهم فيما بين

هذا وذاك من يد تلك الفئةِ الساذَجةِ التى لاتستطيعُ أن تفرقَ بين الكاتبِ الذى يكتبُ ليقوّمَ معوجاً ، أو يصلحَ مختلا ، أو يرفعَ بدعة باطلة ، أو يكشفَ عن حقيقةٍ خافية ، وبين الآخر الذى يدورُ مع الدينارِ دَوْرَةَ الحرباء مع الشمس ، لايفارقهُ حتى تفارقَها ، والذى لايلذه شربُ الماء إلا ممزوجاً بدم ، ووالله ما أدرى من الذى أقامهم هذا المقام ، وعهد إليهم هذا العهدَ ، ومن الذى وكل اليهم النظرَ فى شؤون الناس ، والفصل فى قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم ، وماهم بالبررة الأتقياء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلةً حسنة فى منازلهم ، فيكونوا قدوةً صالحة فى أمتهم ، ولا بالعلماء الفضلاء فنهدىَ بهداهم ، ونستنّ بسنتهم ، ولا بالصادقين المخلصين فنتعبّدَ بإجلالهم وإعظامهم ، بل ليس لواحد منهم فضلُ الصانع فى مَصنعه ، أو التاجرِ فى حانوته ، أو العاملِ فى معمله ، فيصلحَ أن يكون حكماً فى قضايا الأشراف والنبلاء ، وميزاناً لحسناتهم وسيئاتهم ،

وعندى أن لو جُمعتْ عيوبُ الناس جميعُها فى كفة ميزان ، ووضعت فى الكفة الأخرى عيوبُهم الجامعةُ للسفاهة والكذبِ والنميمة والتجسس ، وهتكِ الأعراض ، واتهام الأبرياء ، واستهواء الضعفاء ، لثقلتْ كفتُهم أمام كفة الذين يزعمون أنهم يقوّمون معوجهم ، ويثقفون مُنآدَهم ، ويصلحون مافسد من شؤونهم

الرثاء

ما أنس لا أنسى رجلا كان خيرَ من لقيتُ من الرجال، وكان يعجبني منه أدبُه وفضلهُ، وعفته وحياؤه، وشرفُ نفسهِ، وطهارة قلبه، وأنه كان صبوراً محتملا، تقرعُ الخطوبُ صفاةَ قلبه فترتدعنها نابية، كما ترتد الكرةُ عن الحائط إذا قرعتها

كان فقيراً لا يملك من الدنيا أكثر مما يقيم صُلبَه، ويمسك حوباءه، ويستر سوءته، فزوجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها فى دمامتها، وسوء خُلقِها، وجفاء طبعها، ممن يطمع فى مثله فى جمال خَلقه، ولين حاشيتِه، وانسجام طبعهِ، فكبرتْ نفسهُ عن مخالفة أبيه، لأنه كان برّاً به، مطيعاً له، نازلا عند أمرهِ ونهيه، وعن مجافاة زوجه واطّراحِها

والانقباض عنها لأنه كان واسعَ الصدر ، فسيحَ رقعةِ الحلم ، رفيقاً بالضعفاء والعاجزين ، فتزوجها وفى نفسه من المضض والألم مايلهبُ الجوانحَ ، ويذيبُ لفائفَ القلوب

وأذكر أنى على طول عشرتى له ، ولصوقِ نفسى بنفسه ، ماسمعتُه يشكو إلىّ يوماً من الأيام ما كان يعالجه من سوء عشرتها ، ويكابدُه من شرورها التى لا تغبُّه ليلها ونهارها ، ثقةً بالله ورحمته ، وإيثاراً لفضيلة الصبرِ والجلد ، وسكوناً إلى ماجرتْ به الأقلامُ فى ألواح المقادير ، فكنتُ أرحمُ صمتَه وسكونه ، وأرثى لجمود عينيه عن البكاء ، لأني أعلم أن نيرانَ الأحزانِ لايسكن اضطرامُها ، ولا يهدأ اعتلاجُها ، إلا باطراد العبرات ، وتصاعدِ الزفرات

وكان كل مايَنعَم به من لذائذ هذه الحياةِ وأطايبها أنه كان يسافر فى كل شهر مرة أو مرتين إلى أحد أصدقائه فى الريف فيقضى عنده يومين أو ثلاثة ثم يعودُ وفى ثغره

ابتسامة تتلألأ تلألؤَ نجمةِ الصبح قبل انحدارِها إلى مغربها ، ثم لا تلبث أن تتلاشى ، ولا يلبث أن يعودَ إلى جموده الأول ، لا يحزن فيبكى ، ولا يفرح فيبتسمَ ، حتى يُخيلَ للناظر إليه أنه يعيشُ فى عالمٍ غيرِ هذا العالم ، لا يظله ليل ، ولا يضيئه نهار

قضيتُ فى صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلمُ من دخيلةِ نفسه ما يحسَبُ أنى أجهلُه فأ كاتمه ذلك العلمَ جهدى رِفقاً به وإشفاقاً عليه ، حتى زرته فى منزله ذات يوم فرأيته جاثماً فى مقعده الذى كان يقتعدُه من غرفته وقد أطرق إطراقاً طويلا ذهل فيه عن نفسه ، فلم يشعر بدخولى حتى أخذتُ مكانى ، فرفع رأسَه فأدهشنى من منظره اصفرارُ وجهِه ، وذبولُ عينيه ، وما كان يُغشِّي جبينه من دُخَان تلك النارِ التى تشتعل بين جوانحه ، ثم نظر إلىَّ نظرة طويله لا عهد لى بمثلها من قبل وقال :

أتعتقد أن الله موجود ؟

قلتُ نعم ، معالجاً نفسى على كتمان ما كاد يذهبُ

بلُبِّى من تنكّرِ حاله ، وتغيرِ أطواره

فقال وتعتقدُ أنه عادل ؟

قلتُ نعم

قال وراحم ؟

قلتُ نعم

فبسط يدَه إلىّ فعلَ الضارع المستصرخ وقال :

هل لك أن تحدثني أيها الصديقُ عن نزول الصواعقِ ، وثورةِ البراكين ، وطغيان البحورِ ، وغرْقِ السفن ، وانتشار الأوباء ، وفتكِ الادواء ، ونكباتِ الفقر والجوع ، وتلك العيونِ التى لاتزال منهلةً بالبكاء ، والضلوع التى لاتزال ملتهبةً بنيران الهموم والأحزان ؟ هل تعتقدُ أن ذلك كلَّه عدلٌ من الله ورحمة ؟

قلتُ نعم ، ان الله يمتحنُ عبادَه ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم فى دار نعيمِه من المثوبة والأجر أضعافَ ما كانوا يقدّرون لانفسهم من سعادة الحياة وهناءتها

قال إن الله أكرمُ من أن يجعل الشرَّ طريقاً الى الخير، وألا يحسنَ إلى عباده إلا بعد أن يُسْلِفهم الاساءة

قلتُ ذلك ما كَتب على نفسه أن يجازىَ كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وان شراً فشر

قال إنه كتب على نفسِه الرحمةَ

قلت نعم إنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء

قال حدثنى اذاً عن الولد الصغير الذى لم يخالطْ نفسهَ شر، ولم يتسربْ إلى قلبه كيد، مالى أراه مفترشاً حِجرَ أمه وقد تولى الليل إلا أقلّه يتقلبُ على مثل جمر الغضى مما يساوره من الآلام، فينتفضُ تارة، ويختلج أخرى، ويصرخُ صرخاتٍ تستمطرُ الدموعَ، وتحول بين العين وبين الهجوع، ومالى أرى أمّة باكيةً مولهة، ذاهلةَ اللّب، موجعةَ القلب، تفزعُ لفزعاته، وتصرخ لصرخاته، وقد اختبل عقلُها، والتاثَ أمرُها، وعظم يأسها، وفنيتْ حيلتُها، وقل مساعدُها، وضعف ناصرها، فأنشأتْ

تقلبُ وجهَها فى السماء ضارعة إلى الله تعالى أن يأخذَ بيدها، ويرحم نفسَها برحمة ولدِها ، وبيناهى تنتظرُ صوتَ الاجابة يرن فى آفاق السماء إذا بها تسمعُ حشرجةَ الموت فى صدر ولدها ، وإذا به يَنزعُ نزعاً مؤلماً يطيرُ باللب، ويذهبُ ببقية الصبر ، حتى تفيضَ نفسه ، فماذا جنى هذا الولدُ الصغير حتى أصبح لا يستحق رحمةً من الله ولا رأفة ؟

قلتُ وما يدريك لعل الله أراد به خيراً فرحمه بالموت المعجلِ من حياةٍ علم أنه سيلقى فيها مثلما تلقى أنت اليوم من الشقاء الممِضّ ، والعذابِ الأليم .

فنالت هذه الكلمةُ من نفسه ، وجمد أمامها جموداً طويلا ، ثم قال أحسنتَ أيها الصديقُ ، ليت الذين يشقَون فى هذه الحياةِ يشعرون بصغر هذه الدنيا وحقارةِ شأنها ، فيتمنون لو لم تلدهم أمهاتُهم ، ولم يكتب لهم سطرٌ واحد فى لوح الوجود ، وبعد فهل لك فى سفرةٍ معى إلى ذلك الصديقِ الريفى نقضى عنده يوماً واحداً ثم نعود ؟ على أن

تكون معى كما كان فتى موسى مع مولاه ، لاتسألنى عن شىء حتى احْدِثَ لك منه ذكراً

فوافيتُ رغبتـه ، وقبلتُ شرطَه ، ثم قام وقمت ، ولو أننى ملكتُ فى هذه اللحظة الدنيا بحذافيرها لوهبتُها لمن يكشفُ لى سرَّ صديقى ، ويدلنى على مكان نكبته التى زعزعتْ نفسَه ، وصهرتْ قلبه ، وملكتْ عليـه لبه ، وكادتْ تعبثُ بيقينـه ، وما هى إلا ساعاتٌ حتى بلغنا المنزل الذى أردناه ، وقد أظل الليـلُ بجناحيه ، فقضينا واجبَ التحية والسلام ، ثم خلا الصديقُ بصديقه خلوةً طويلة لاأعلم مادار فيها بينهما ، ثم خرجا إلىّ فجلسنا ساعة نتحدث ، ثم قمنا إلى فراشنا ، فنمتُ نوماً متقطعاً مملوءاً بالوساوس والهواجس ، فما انتصف الليلُ حتى شعرتُ أن صديقى يتحرك فى فراشه ، ويطيلُ النظر إلىّ ليعلم أنائم أنا أم مستيقظ ، فتناومتُ حتى رأيتُه قد قام من مكانه يختلسُ الخطى اختلاساً حتى وصل إلى المِشْجَب فلبس أثوابَه ، ثم

تسللَ من الغرفة ، فخفق قلبي خفقةَ الرُّعبِ والفزع ، وقلتُ لابدَّ أن الرجلَ يريدُ بنفسه شراً ، وإني أكون ألأمَ الناسِ إن أنا تركتهُ يصنعُ بنفسه ما يشاء ، فقمت على أثره أتتبعُ خطواته ، وأسيرُ وراءه من مَدرجة الى أخرى ، حتى بلغ مقبرةَ البلد ، فوقف هُنيهةً يشرفُ على تلك النواويسِ العظام التي جثمت في أمكنتها جثومَ الآبال في معاطنها ، ثم مشى يتصفحُ القبورَ قبراً قبراً فخيلَ الى أنه شبحٌ من أشباح الموتي يهيمُ في أرجاء تلك المقبَرةِ الموحشة ، فملكني من الخوف والرُّعبِ ما كاد يحلُّ عُقدةَ لساني لولا إجلالي لهذا الموقفِ الرهيب ، وشعوري أنني واقفٌ على أبواب تلك الدُّورِ التي سَلَب خوفُها العاقلين عقولَهم ، وأطار طائرَ الغمض عن أجفانهم ، ونغَّص عليهم ما يتمنون أن يصفوَ لهم من طعامهم وشرابهم ، والتي يفدُ إليها كلَّ يوم وُفودُ البشرِ محمولين على أيدي أهليهم ، وذوي أرحامِهم ،

ليقدموهم بأنفسهم هديةً إلى الحشرات والديدانِ لتأكلَ لحومَهم، وتمتصَّ دماءَهم، وتتخذَ من سواد عيونهم، وبياضِ ثغورهم، مراتعَ ترتعُ فيها كما تشاء، من حيث لا يملك مالكٌ منهم عن نفسه دفعاً، ولا يعرفُ إلى النجاة سبيلاً

مرتْ بخاطرى تلك الذكرى فملكتْ علىَّ نفسى حتى ذَهِلتُ عن موقفى، وأنستْنى الحيرةُ فى أمر نفسى الحيرةَ فى أمر صديقى، وفيما يعالجه منذُ الليلة من غرائب الشؤون وعجائبها، ثم استفقتُ فرأيته جاثياً أمام قبرٍ من تلك القبورِ جُثِىَّ العابد بين يدَى معبودِه، فدَلِفتُ اليه حتى دنوت منه فسمعتُه يقول:

اللهمّ إنك تعلمُ أنى ما كفرتُ نعمتك، ولا خفرتُ ذمتك، ولا هتكت حرمةً من حرماتك، ولا نزلتُ عند سخطِك وغضبِك، ولا تبرمتُ بقضائك وقدرِك، وأنك أحسنتَ إلىّ بتلك الطفلةِ إحساناً عظيماً، لأنك أنقذتَ بها حياتى من همومها وآلامها، ثم لم تلبثْ أن سلبتَنيها وشيكا

أهنأ ما كنتُ بها ، وأرجى ما كنتُ إلى قضاء ساعات العمرِ بجانبها ، فاغفرْ لى جزعى وحزنى ، فكثيرٌ علىّ أن لا أجزعَ ولا أحزن

لقد تبدلت الارضُ غيرَ الأرض والسموات ، وكأنما استحالتْ فى نظرى حقائقُ الاشياء ، فأصبحتُ لا أرى فى النجمة لألاءَها ، ولا فى الزهرة جمالَها ، ولا فى السماء صفاءها ، فهل كانتْ فتاتى سرَّ هذا الوجود حتى إذا ذهبتْ ذَهبَ بذَهابها كلُّ شىء

لقد ذهبتْ بى الايامُ فيمامضى كلّ مذهب ، وجرعتني من كؤوس الشقاء جُرَعاً ما احتملَ فمٌ قبل فمى مرارتَها ، فاغتفرتُ لها كلّ ذنوبها عندى حينما أسدتْ إلىّ تلك اليدَ التى أنستنى جميعَ همومِ الحياة وآلامها ، أما اليوم وقد صَفِرتْ منها يدى ، وأقفر بفراقها رَبعى ، وحالت تلك الصفائحُ بينى وبينها ، فلا عزاء ولا سلوى

مَن لى بضربةٍ من ضربات الدهرِ تذهبُ بذاكرتى

جملةً واحدة، فلا أعود أذكرُ أيام حياتها معى، ومَقعدها بجانبى، وصوتها الرقيق، وحديثها العذب، وصفاء عينيها، ورونق وجهها، وصورة قَوْمتها وقعدتها، وجيئتها وذهوبِها، وضَحِكها وبكائها، ويقظتها ومنامها، وحزنها لفراقى، وسرورها بلقائى، فانى كلما ذكرتُ ذلك شعَرتُ كأن قلبى المحموع قد استحال إلى أفلاذٍ صغيرة تتطايرُ فى أجواز الفضاء

اللهم إنى أعلم أن الدنيا ليستْ بدار قرار، فلا أمل فى البقاء فيها، والركونِ إليها، والاستمتاعِ بلذة العيش فيها، وأنها الجسرُ الذى يمرّ به الأحياء إلى دارهم الأخرى، وكل ما كنتُ أطمعُ فيه منها أن يكون لى كما للناس جميعاً رفيقٌ يعيننى على قطع تلك الشُّقة البعيدة، ويهون علىّ آلامَ وحشتِها وكآبتها، فحرمْتنى ذلك الرفيقَ المعين، فكيف أسيرُ؟ وأين أعيش؟

اللهم إنك سلبتَنى كلَّ شىء حتى الدموع التى يربح بها الباكون أنفسَهم، ويطفئ بها المحزونون لواعجَ قلوبِهم،

فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليانَ الماء في القِدر المُحكَمَةِ الغِطاء ، فامنن عليَّ بدمعةٍ واحدة أطفئ بها غليلي ، ولا أحسب أنك تَمنَعُنيها ، فالدموع هي الرحمةُ العامة التي كتبتَ على نفسك أن تعالجَ بها نكباتِ المنكوبين ، وبؤسَ البائسين

اللهمّ لا ريبةَ في عدلك ، ولا ظِنةَ في كرمك ، ولا اعتراض على قضائك وقدَرك ، ولا سخطَ في ابتلائك ومحنتِك ، ولكنك سلبتَني عقلي ، بعد ما سلبتَني راحتي وهناءتي ، فخرج أمرُ نفسي من يدي ، وأصبحتُ لا أستطيع أن أُبصِر ما بين يديَّ ، فاغفرْ لي سقطي وزللي

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة ، فلا تمنعْني حظي من الموت ، فاستردَّ إليك عاريتك التي أعرتَنيها ، فقد عجزت عن حملها ، وضِقت ذَرعاً بأمرها ، إنك بعبادك رؤوف رحيم

وما أتم كلمته حتى صاح صيحةً عظمى ، ثم سقط على صفائح القبر ، فعلمتُ أن المرجل قد انفجر ، وأن الله قد استرد وديعتَه إليه ، واختار للرجل ما عنده ، فذُعِرتُ وارتعت

والتفتُّ حولى فاذا صديقهُ واقفٌ ورأى يشهد المنظرَ الذى أَشهدُه ، ويذرفُ من الدموع أضعافَ ماأذرف،فدنونامنه معاً وحركناه فاذا هو ميت ، فنقلناه إلى المنزل ، وبتنا حول سريره نقضى حقَّ صحبتِه تارةً بالدموع ، وأخرى بالاِطراق والخشوع،وهنالك قص علىَّ ذلك الصديقُ قصته ، وكشف لى عن خبيئة أمره ، فقال إنه قضى زمناً طويلا يشكو إلى آلامِ نفسِه التى يعالجها من سوء عشرة زواجه وخشونةِ طبعها ، وجفاء خُلقِها ، ثم اقترح على يوماً من الأَيام أن أزوجَه من أختى ، ففعلتُ رحمة به وإشفاقاً عليه ، من حيثُ لايعلم أبوه ولا أحدٌ من أهله بذلك ، فكان يزورُنا فى كل شهر مرة أو مرتين ، وظل على ذلك عدة سنين ، حتى وَعكَتْ تلك المسكينة وَعكةً ذهبتْ بها إلى ربها ، وتركتْ له فتاةً فى الخامسة من عمرها ، فكانت هى عزاءه الوحيد عن كل ما فاته من نعيم الحياة وهناءتها ، وكان يختلفُ إليها كما كان يختلفُ إلى أمها،وشغفَ بها شغفاً بلغ به حد الجنون ، وكان كثيراً ما يقولُ لى إننى أشعر أن

حياتينا أنا وهذه الطفلة حياةٌ واحدة ، وأنَّا إما أن نعيش معاً ، أو نموت معاً ، وكأنه أُلهم بما سيكون ، فقضى الله أن تمرضَ الفتاةُ مرضةً شديدة لم تمهلها أكثر من خمسة أيام ثم لحقتْ بأمها ولما تسلخ الثامنة من عمرها ، فنعيتُها اليه بكتابٍ أرسلتهُ اليه بالامس ، فجاءوجئتَ معه ، ثم كان بعد ذلك ماقدر الله أن يكون

دفنتُ صديقي بيدي ، وألحدته بجانب ابنتِه التى قطع جسرَ الحياة الطويلَ في لحظةٍ واحدة شوقا اليها ، ووجداً عليها ، ثم عدتُ إلى بلدتي صِفرَ الكفّ من ذلك الانسانِ الذى كنت مالئاً منه يدى ، والذى كنت أُجلّه وأُعْظمه حياً ، ولا أزال أبكيه ، وأذكرهُ ميتاً ، وأتخذ حياتَه الشريفةَ الحافلةَ بمواقفِ الصبر والجلَد ، والوفاء والكرم ، عبرةً أعتبرُ بها حتى يجمعَ الله بيني وبينه

كفى حزناً بموتك ثم أنى
نفضتُ ترابَ قبركَ من يديّا
وكانتْ فى حياتك لى عِظاتٌ
وأنت اليوم أوعظُ منك حيّاً

الشعر

كتب إلىّ كاتبٌ يقول عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكاد تكتبُ سطراً ، ثم رأيناك بعد ذلك كاتباً ما تكاد تنظِمُ بيتاً، فلمَ لمْ تكتبْ فى عهدك الأول، ولمَ لمْ تنظم فى عهدك الثانى؟

كأنما ظنّ عافاه الله أنى أكتبُ اليوم بقلم غير قلم الامس، أو أهيمُ فى وادٍ غير ذلك الوادى، وهل الشعرُ إلاّ نثارةٌ (١) من الدّر ينظمُها الناظمُ إن شاء شعراً، وينثرها الكاتبُ إن شاء نثراً، أو نغمةٌ من نغمات الموسيقى يسمعُها السامعُ مرةً من أفواه البلابلِ والحمائم، وأُخرى من أوتار العيدان والمزاهر، أو عالمٌ من عوالم الخيالِ يطيرُ فيه الطائر بقادمتَين (٢) من عروض وقافية، أو خافيتَين (٣) من فِقر وأسجاع

(١) النثارة ما تناثر من الشىء (٢) القادمة مفرد قوادم وهى عشر ريشات في جناح الطائر (٣) الخوافى ريشات اذا ضم الطائر جناحيه اختفت

الكاتب الخيالى شاعرٌ بلا قافية ولا بحر ، وما القافيةُ والبحرُ إلا ألوانٌ وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض لهُ من شؤونه وأطواره التى لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا أن غريزةً فى النفس أن يردّدَ القائل مايقول ، ويتغنى بما يردّد ، ترويحاً عن نفسه ، وتطريباً لعاطفته ، مانظم ناظمٌ شعراً ، ولا روى عَروضىٌّ بحراً

ما كان الرجلُ العربى فى مبدأ عهده ينظم الشعر ، ولا يعرفُ ماقوافيه وأعاريضه ، وما عِلَلُه وزحافاتُه ، ولكنه سمع أصواتَ النواعير ، وحفيفَ الاوراق ، وخرير المياه ، وبكاء الحمائم ، فلذَّ له صوتُ تلك الطبيعةِ المترنمة ، ولذَّ له أن يبكى لبكائها ، ويَنشِجَ لنشيجها ، وأن يكون صداها الحاكىَ لرناتها ونغماتها ، فاذا هو ينظمُ الشعرَ من حيث لايفهمُ من شؤونه سوى أنه تلك النغمةُ الموسيقيةُ العذبةُ الخالبة ، ولا من أبحره وضروبِه سوى أنها صورةٌ من صُوَرِه ، ولون من ألوانه

ذلك منتهى نظرِ العربىّ إلى الشعر ، وذلك مادعاه إلى أن يسمىَ النبىّ الذى بعثه الله اليه شاعراً ، وهو يعلم أنه ماقَصَدَ فى حياته قصيدةً ، ولا رجز أرجوزةً ، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلاتِ أبلغَ الكلام وأفصحه، وأعلقَه بالنفوس ، وآخذَه بالألباب ، وأملكه للعواطف والمشاعر ،وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة، والاستعاراتِ الدقيقة ، والمجازات الرائعة ، والكنايات المستطرَفة ، وأمثال تيك مما لاينطق به الناطقُ فى أكثر مناحيه ومنازعه إلا عند ذَهابِه مذهبِ الخيالِ الشعرى ، فشُبِّه له فسَمَّى ماسمعه شعراً ، وسَمَّى الناطقَ به شاعراً ، وما هو بشاعرٍ ولا ساحر، ولا كاهن ولا مجنون

ما كلُّ موزون شعراً ، ولا كل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تعلق بالنفس من طول ترديدِ المنظوم والتغنى به مقطّعاً تقطيعاً يوازن تفاعيله ، فهو نغمةٌ موسيقية ، ولحنٌ

خاص من ألحان الغناء ، يتمثل في قول الملك الضليل (١)
(قِفَا نَبكِ من ذكرَى حبيبٍ ومنزل) كما يتمثلُ في قول
الخليل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) ويتراءى في أوتار
الحلق الناطق ، كما يتراءى في أوتار العود الصامت

أما الشعرُ فأمرٌ وراء الأنغام والأوزان ، وما النظمُ
بالاضافة اليه إلا كالحلي في جيدِ الغانيةِ الحسناء ، أو الوشي
في ثوب الديباج المُعلم ، فكما أن الغانيةَ لايَحزُنها عطلُ
جيدها ، والديباجَ لايزرى به أنه غيرُ معلَم ، كذلك الشعر
لايذهبُ بحسنه ورُوائه أنه غيرُ منظور ولا موزون

ذلك هو الفرقُ بين الشعرِ والنظم ، وهاءنت ترى
ألا صلة بينهما غير تلك الصلةِ الاصطلاحية التي لامنشأ لها
سوى مااعتاده الناسُ من أنهم ينظمون مايشعرون به ، وتلك
الصلة هي التي خلطت بينهما ، وعمّت على كثير من الناس أمرَهما ،
وهي التي أدخلتْ النظامين في عداد الشعراء ، وألقتْ عليهم

(١) هو لقب امرئ القيس

جميعاً رداءً واحداً لايستطاع معه التمييزُ بينهما الا للقليل من الناقدين ، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائةِ بيت فلا نجد بيتاً ، ونتصفحُ الديوان ذا المائة قصيدة ، فلا نعثر بقصيدة ، وأصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر ، لأنه لايوجد بين الناس من يُعجزُه تصور تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين

ولقد كتب الكاتبون فى تعريف الشعر وأمعنوا فى ذلك إمعانا بعُدَ به عن مكانه،وضل به عن قصده،وعندى أن أفضلَ تعريف له أنه (تصوير ناطق) لان قاعدةَ الشعر المطردة هى التأثير ، وميزانَ جودته مايترك فى النفس من أثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكنُ ببراعة أسلوبه ، وقوةِ خياله ، ودقةِ مسلكه ، وسعة حيلته ، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع ، فيريه نفسَه على حقيقتها حتى يكاد يلمسها ببنانه ، فيُصبحُ شريكه فى حسه ووجدانه،

يبكي لبكائه، ويضحكُ لضحكه، ويغضبُ لغضبه، ويطرب لطربه، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها، وشموسها وأقمارها، ورياضها وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وباغمها [1]، وناطقها وصامتها، من حيثُ لا ينقل إلى ذلك قدماً، أو يلاقي في سبيله نصباً

فان سمع قولَ القائل:

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ
سقاهُ مضاعَفُ الغيثِ العميمِ
نزلنا دوْحَه فحنا علينا
حنوَّ المرضِعاتِ على الفطيمِ
وأرشفنا على ظمأ زُلالاً
ألذَّ من المدامة للنديمِ
يصدّ الشمسَ أنى واجهتنا
فيَحجُبُها ويأذنُ للنسيمِ

(١) يقال بغم الغزال اذا صوت بارخم صوته فهو باغم

يروعُ حصاه حاليةَ (١) العذارى

فتلمسُ جانبَ العِقدِ النظيم

خيل إليه أنه يخطرُ فى ذلك الروضِ البليل بين أنواره وأزهارِه ، خَطَرانَ النسيم بينَ ظِلاله وأشجاره ، وأنه يرى بعينه أولئك العذارى السانحاتِ وقد راعهنَّ منظرُ الحصباء اللامعُ فوق تلك الديباجة الخضراء فتَوَلَّهْنَ وفزِعنَ الى جوانب عقودهن يلمسنها بأطراف بنانهن يحسبن أن قد وهتَ فانتثرتْ جواهرُها على بساط ذلك الروضِ الأريض

وإن سمع قول الآخر :

ودارِ ندامى عطلوها وأدلجوا

بها أثر منهم جديد ودارس

حبستُ بها صحبى وجمّعتُ شملهم

وإنى على أمثالِ تلك لحابس

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً

ويوماً له يوم الترحلِ خامس

(١) الحالية لابسة الحلى

تدار علينا الراحُ فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها
مهاً تدَّريها [1] بالقسيّ الفوارس
فللراح مازرت عليه جيوبها
وللماء ما دارتْ عليه القلانس

تمثل له كأنه مر فى ضاحية من ضواحى بغداد بدار موحشةٍ فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويَقصِفون [2]، ويقرعون الكؤوس بأمثالها، فاقترب منها، وأطلّ من خصائص [3] بابها، فرأى أولئك القومَ مجتمعين حول دَنّ من الخمر قد تكاملت سنه، وشيب الدهرُ فَوْديه [4]، ففصدوه فسال دمُه الأحمر فى كؤوس من الذهب منقوشة نقوشاً فارسية قد صُورت فى قرارتها صورة كسرى فارسَ ودارتْ فى جوانبها صورُ فرسانه متنكبى قسيّهم

(١) ادّرى الصيد ختله (٢) قصف اقام فى أكل وشرب ولهو (٣) الخصاص كل خلل وخرق فى باب أو غيره (٤) الفودان ناحيتا الرأس

يطاردون بقرَ الوحشِ الهارب من بين أيديهم، ورآهم يملئون الكؤوس خمراً الى ما يوازى أعناق أولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء الى ما يغطى رءوسهم ، فتسلل من مكانه مغتبطاً بمجتمعهم ، وبما هي لهم من الهناءة والنعمة فيه ، ثم مر بتلك الدار بعد أيام فرآها مقفرةَ من أهلها لا تُسمع بها نغمةٌ ولا نأمة (١) فدخلها فلم ير فيها إلا أعوادَ ريحان قد يبس أكثرها ، مبعثرة فى جوانبها ، وخطوطاً كانت رسمتها زِقاق الخمر فوق تربتها فى غُدوها ورواحها بين أولئك الندماء ، فانصرف حزيناً مكتئباً يسمعُ صفير الريح الضاربة فى جوانبها ، فيردد قول القائل :

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا
يشربون الخمرَ بالماء الزُّلال
عصف الدهرُ بهم فانقرضوا
وكذاك الدهرُ حالا بعد حال

(١) النأمة النغمة والصوت

وإن سمع قولَ الآخر :

ويوم كتنُّورِ الاماء سَجرنَه (١)

وأوقدن فيه الجزْلَ حتى تضرَّما

رميتُ بنفسى فى أجيج سمومِهِ

وبالعِيس حتى بَضَّ مِنخرها دما

شعَرَ كأن لهيبَ تلك الهاجرةِ يهبّ فى وجهه فيُشيح عنه فِراراً من لفحاته ، ويكاد يبكى رحمةً بذلك الشبح المصهور الذى ملكت عليه تلك التنُوفةُ الحمراء سبيلَه ، وحالتْ بينه وبين نفسه ، فلا هو بصابرٍ إن دام صبراً ، ولا بناجٍ إن أراد نجاء

وإن سمع قولَ الآخر :

وارحمتا للغريبِ فى البلدِ النا

زحِ ماذا بنفسه صنَعا

(١) سجر الرجل التنور ملأه وقوداً

فارق أحبابَه فما انتفعوا

بالعَيش من بعدِه ولا انتفعا

هملتْ عيناه حزنا على ذلك الغريبِ الحائر، وتمنى أن لو التقى به فى بعض مذاهبِه فعطف عليه، وآنس وحشتَه، ثم أخذ بيده فأنزله من بيته منزلا كريمًا، وأبدله أهلا بأهل، وجيرانًا بجيران

وان سمع قولَ الآخر:

وإن الذى بينى وبين بنى أبى

وبين بنى عمّى لمختلفٌ جِدّا

فإن أكلوا لحمى وفَرتُ لحومَهم

وان هدَمُوا مجدِى بنيتُ لهم مجدا

وإن ضيّعوا غيبى حفِظتُ غيوبَهم

وإن همُ هووا غيّى هويتُ لهم رُشدا

وإن زجَروا طيراً بنحْسٍ تمرُّ بى

زجرتُ لهم طيراً تمرُّ بهم سعدا

ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهمُ
وليس رئيسُ القوم من يحملُ الحقدا
لهم جُلُّ مالى إن تَتابع لى غِنىً
وإن قلّ مالى لم أكلفهم رِفْدا
وإنى لَعبدُ الضيفِ ما دام ثاوياً
وما شيمة لى غيرَها تُشبِهُ العبدا

أَكبرَ تلك المَكرُمةَ وأجلّها، ونظر اليها وهى فى علياء سمائها ، نظرَ الفلكى إلى كوكبه السارى ، وشعر كأن نورَها قد لمع فامتد شعاعُه إلى نفسه فأضاءها

ولا غرو أن يبلغ الشعرُ من نفسه هذا المبلغَ فلطالما كان للشعر السلطانُ الاكبرُ على النفوس العظيمة ، فقد نَـكب الرشيدُ البرامكة عند ماداس له أعداؤُهم ذلك المغنى الذى غناه هذا الصوت :

ليت هنداً أنجزتنْا ما تعد
وشفتْ أنفسَنا مما تجـد

واستبدت مرةً واحدةً

إنما العاجزُ من لايستبد

وأمر السفاحُ بقتل وجوه بنى أمية بعدما قرَّبهم وأدناهم عند ما دخل عليه سديف مولاه وأغراه بهم فى قوله :

لا تُقيلَنّ عبدَ شمس عثارا

واقطعنْ كلَّ رَقْلةٍ (١) وغراس

أنزِلوها بحيثُ أنزلها اللـ

ـهُ بدار الهوان والإتعاسِ

خوفُهم أظهر التوددَ فيهم

وبهم منكم كحزّ المواسى

أقصِهم أيها الخليفةُ واحسم

عنك بالسيف شأفةَ الارجاسِ

فلقد ساءنى وساء سِوائى

قربُهم من نمارق وكراس

(١) الرقله النخلة التى تفوت اليد

بل عطف عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه على الحُطيئة وأطلقه من سجنِه حين سمعه يقول:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مرخ
حمر الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم فى قعر مظلمةٍ
فاغفر عليك سلامُ اللهِ ياعمرُ

بل سمع النبىُّ صلى الله عليه وسلم قولَ قُتيلة بنتِ الحرث تعاتبه فى قتله أخاها النضرَ بنَ الحرثِ على ما بينه وبينه من صلة القرابة:

أمحمدُ ياخيرَ ضِنْءِ كريمةٍ
فى قومها والفحل فحل مُعرق
ما كان ضرّكَ لو مننتَ وربما
منَّ الفتى وهو المَغيظُ المحنَق
والنضر أقربُ من أصبت وسيلة
وأحقّهم إن كان عتق يعتق

ظلتْ سيوفُ بني أبيهِ تنوشه
لله أرحام هناك تَشقق

فبكى وقال وهو من لا ظِنّة (١) في عدله ، ولا ريبة في حكمه ، لو سمعتُها قبل اليوم ما قتلتهُ

لا مؤثرَ في نفس الانسان مثل الشعر ، وما خضع الانسانُ لشيء في جميع أدوار حياتهِ إلاّ للشعر ، وللشعر الفضلُ الأولُ في نبوغ الانسانِ وارتقائه، وبلوغِه هذا المبلغ الباهرَ من التفوقِ والكمال، ولقد أحب الانسانُ الشعرَ ناطقاً وصامتاً ، أما الناطقُ فقد عرفتهُ، وأما الصامتُ فالتماثيلُ التي يراد بنصبها تمثيلُ حياةِ عظماء الرجال شعرٌ ، وهذه النغماتُ الموسيقيةُ التي تصوّر خواطرَ القلوب ووجداناتها فتَهيج عاطفةَ الحب في نفس العاشقِ وعاطفةَ الحماسةِ في نفس الجنديّ شعرٌ ، وهديرُ الأمواج شعرٌ ، لأنه يمثلُ عظمةَ الجبارين ، وظلامُ الليل شعر ، لأنه يطلق دموعَ الباكين،

(١) الظنة التهمة

وحفيفُ الاوراق شعر ، لانه يمثل تناجيَ العشاق ، وبكاءُ الحمائم شعر ، لانه يمثل فجعةَ البين ولوعةَ الفراق ، تلك النغماتُ الشعرية التى نسمعها من فم الانسان مرة ، وفم الطبيعةِ أخرى ، هى التى زخرفتْ لنا هذه الحياة ، وألبستْها ذلك الثوبَ الناعمَ الابيضَ حتى أحببناها ، وولعنا بها ، وحرصْنا عليها ، وأعددنا العُدةَ للبقاء فيها ، والسكونِ اليها ، فكتبنا ودونّا ، وألّفنا واخترعنْا ، وتعلمّنا فعلّمنا ، وبنينا فشيّدنا ، وغرسْنا فجنينا ، وعمِلنا فربحنا ، واجتهدنا فأثرينا ، وأمّلنا فسعينا ، وسعينا فبلغنا ، فكأنّ الشعرَ سرُّ هذه الحياة ، وعلةُ هذا الوجود ، لاتطير الينا الحقائقُ الا على جناحه ، ولا يطيبُ لنا العيشُ إلا فى جواره ، فلنمجدْ الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل الاكبار ، فهم مشارقُ شموسِ الحكمة ، ومطالعُ كواكبِ الفضل ، وهم الينابيعُ الصافية التى يترقرق ماؤها ، ثم يتسربُ الى الافئدة فيملؤها سعادة وهناءة

الشهيدتان

لم تغتمضْ عيناى ليلة أمسِ لأنى بتُّ أسمعُ فى الدار الملاصقة لبيتى أنينَ امرأة متوجعةٍ، تعالجهما ثقيلا، وتشكو مرضاً أليماً، ويخيل إلى أنى لا أسمعُ بجانبها معللاً يعللها، ولا جليساً يتوجعُ لها، فلما أصبح الصباحُ ذهبتُ اليها فاذا قاعةٌ صغيرة مظلمة لا تشتملُ على أكثرَ من سرير بال يتراءى فوقه شبَحٌ ماثل من أشباح الموتى، فترفقت فى مِشيتى حتى دنوت منها، وكأنها شعَرتْ بمكانى، فحركتْ شفتيها تطلب جرعةَ ماء، فأسعفتها بها، فاستفاقتْ قليلا، فوقفت بجانبها أسائلها عن خطبها، فانشأتْ تقص علىّ قصتَها بصوتٍ خافت متقطع كنتُ كأنى أنتزعه من بين ماضغيها انتزاعا وتقول :

زوجنى أبى منذُ سنوات من رجل مِزْواج مِطلاق لايكاد يصبرُ على امرأةٍ واحدة عاماً واحداً، ولو كان للفتاة رأىٌ فى نفسها من دون رأى أوليائها لعرفتُ كيف أُحسن الاختيار لنفسى بل لو لم يكن فى الأمر إلا أن أتبتّل كما يتبتل الراهبات ، أو أتزوج زواجاً ينتهى بى الى هذا المصير ، لكان لى فى الرهبانية رأى غير ماتراه النساء جميعاً ، ولكننى عجزتُ فأذعنت ، وحُملتُ اليه فاستقبلنى بأحسن ما يَستقبل به الزوجُ الكريم أحظى نسائه لديه ، وأكرمهن عليه ، فكان يَريبنى من ذلك مايريبُ الفريسةَ من ابتسامة الأسد ، وكنت أنتظرُ يوم الفراق كما ينتظر المجرمُ يوم القصاص ، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب فتزوج فبَنى ، وأننى أصبحتُ فى المنزل وحيدةً منقطعة لامؤنس لى الا طفلتى الصغيرة ، فجزعت عند الصدمة الأولى، ثم نزلتُ على حكم القضاء الذى لاأملك ردّه ، ولا أعرف وجهَ الحيلة فيه ، واحتملتُ طفلتى الى بيت أبى ،

فوجدتُه مريضاً مشرِفاً ، فبكى رحمةً بى ، واستغفرنى من ذنبه إلىّ فغفرته له ، وماهى الا أيامٌ قلائلُ حتى مضى لسبيله مفجوعاً برزئى الذى نزل بى ، فعلمت أن الدهر قد سجل على فى جريدة الشقاء أياما طوالا لا أعلم متى يكون انقضاؤها، ولا أدرى ماالله صانعٌ فيها ، فظللت أستكتبُ الناسَ الكتبَ إلى ذلك الرجلِ أسأله القوت ، لأستعينَ به على تربية طفلته ، أوالتسريحَ . عسى أن يُبْدلنى الله خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحماً ، فضن بالأولى ، واستعظم الأخرى،فلم أرلى سبيلا غيرَ سبيل العمل فلبثتُ بضع سنين ساهرةَ الليل ، قائمةَ النهار ، أستقطرُ الرزقَ من سَمّ الخِياط ، فلا أبلغ منه الكفاف ، حتى نال منى الجهد ، فذهبتُ بمعضلة من الأدواء خرجتُ لها عن كل ماأملك من حلية وذخيرة ، وكسوة وآنية ، وأصبحت لاأملك درهماً أبتاعُ به قارورةَ الدواء ، ولاأجد مِزْقةأمسك بهاقوامُ هذا السرير المتداعى، ولم يقنع الدهرُ منى بذلك حتى رماني بالداهية الدّهياء التى يصغرُ بجانبها كلُّ عظيم من خطوبه ونكباته ، فقد

كتبتُ إلى ذلك الرجل منذُ شهرٍ أصف له حالتى ، وأُفضى اليه بذات نفسى ، وأسأله أن يُمدنى وابنتى بقليل من القوت نمسك به تلك الصُبابةَ التى أبقتْها خطوبُ الايام وأرزاؤها من أعظمنا وجلودِنا ، ولبثت أترقب رجعَ الكتاب كما يترقب الغريقُ سوادَ السفينة ، فاني لجالسة منذ أيام على هذا المقعد أعُدُّ على الدهر ذنوبَه إلىّ ، وسيئاتِه عندى فلا أفرغ من عَقد الا الى عَقد ، ولا أنتهى إلا الى حيث أبتدىء ، وقد جلستْ طفلتى بين يدىّ أتطلع إلى وجهها الساطع فى ظلمات تلك الخطوب ، كما يتطلع الملاحُ فى ظلمات بحره الى نجمة القطب ، اذ هجم علىّ ذلك الظالمُ الجبار فاختطف ابنتى من بين يدىّ من حيثُ لا أملك دفعاً لما نابنى ، ولا أجد ما أذود به عن نفسى ، إلا زفراتٍ لا يسمعها سامع ، وعبرات لا يرحمها راحم ، فشعرتُ كأن سهم الدهر الذى كان يروغُ قبل اليوم ههنا وههنا ، قد أصاب فى هذه المرة المقتل ، فبت ليلتى تلك كما يجب أن تبيتَ امرأة بائسة مُعدمة قد فجعها الدهرُ بكل ما تملك يدها ؛ وبكل ما تتعلق به آمالُها ، فأصبحتْ لا تجد

أمامها يداً تنبسط اليها، ولا عيناً تبكي عليها ، وقد مر بى على ذلك نيف وعشرون ليلة لا يرقأ لى دمع ، ولا يهدأ بي مضجع ، حتى اذا اختلستُ من يد الظلام نعسةً تراءت لى تلك الفتاةُ فى نومى كأنها صارخة باكية تهتف باسمى ، وكأن أباها يُوسعها ضرباً وتعذيباً ، وكأنني أحاول استنقاذها مما هى فيه فلا أجد إليها سبيلا ، وها أنذا أشعر أن سحابة الموت تُغَشِّى على بصرى ، وأنني مفارقةٌ هذا العالم قبل أن أُلقى على ابنتى نظرةً أتزود بها منها قبل أن أفارق هذه الدار

وما وصلتْ من حديثها الى هذا الحد حتى جَرِضتْ بريقها ، وتتابعت أنفاسُها ، وَشَطَرَ بصرُها ، فجثوت عند سريرها أدعو لها الله أن يعينها على أمرها ، ويُمِدَّها برحمته وإحسانه ، فانى لكذلك وقد استغرقتُ فى هذا المشهد الذى بين يدى استغراقَ العابد فى هيكله ، اذ رأيتُ من خلال الدموع التى كانت تزدحم فى عينىّ شبحاً منتصبا عند باب الغرفة فتأملته فاذا رجل يمسك بيده فتاةً صغيرة ،

فتقدمتُ نحوه فرأيته خاشعاً مستكيناً ينظر الى فتاته نظراتِ الوجد والرحمة ، والفتاةُ كأنها خرقةٌ بالية لا يتحرّك لها عضو ، ولا يَنبِض بها عِرق ، فقلتُ من أنتَ وماذا تريد ؟ قال أنا زوج هذه المرأة ، ووالد هذه الفتاة ، قلتُ لعلك جئتَ تستغفرُها من ذنبك إليها فى التفريق بينها وبين ابنتها ، قال ياسيدى مازالت الفتاةُ مذ فارقتْ أمها تبكى عليها بكاءً مراً ، وتهتف باسمها فى يقظتها ومنامها ، حتى سقطتْ مريضةً لا ينفعها طب ، ولا ينجعُ فيها دواء ، فلما رأيتُ أن الأمر قد وصل بها الى هذا الحد جئتُ بها الى أمها أرجو أن تجدَ بين ذراعيها شفاء من دائها ، قلتُ ذلك موكول إلى القضاء ، ولا يعلم الغيبَ إلا الله ، ثم تقدمتُ نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها ، فاحتملتُها برفق حتى وضعتها بين ذراعى أمها ، فما هو إلا أن هتفت الفتاةُ بأمها ، والأمُّ بفتاتها ، حتى فاضتْ نفساهما معاً ، كأنما كانتا من الردَى على ميعاد ! !

الآن وقد عدتُ من دفن تَينك الشهيدتين ، وجلستُ

لكتابة هذه السطورِ أشعر أن نفسى تسيلُ من بين جنبى حزناً على تلك المرأةِ المسكينة ، لا بلْ حزناً على جميع البائسات من النساء اللواتى يقتلُهنّ الرجالُ كل يوم صبراً بسيف الطلاقِ الماضى ، من حيثُ لايجدْن راحماً يرحمُهنْ ، ولا ثائراً يثأرُ لهن

الدعاء

وهى خلاصة قصيدة لفيكتور هيجو :

قومى يابنيةُ إلى الصلاة ، فقد نزل ستارُ الليل ، ودب الشفقُ الأحمرُ فى حاشيةالأفق ،وأطلت عيونُ الكواكب من فروج السحُب ، وأجرى البدرُ المنير لِيقتَه الفضيةَ البيضاء على صفحة النهر ، ومسحتْ أيدى النسائمِ المبتلةِ بندَى الليلِ عن أوراق الاشجار ، غبارَ النهار

قومى يابنيةُ الى الصلاة ، فقدمات النهار ، وماتت بموته الآلامُ والاحزان ، والأحقادُ والاضغان ، والمظالم والمآثم ، ولم يبق من تلك الاعاصير والزوابع مايعترضُ وفدَ الدعاء ، فى طريقه الى أبواب السماء

قومى يابنيةُ الى الصلاة ، فقد أوى الناسُ إلى منازلهم والطيورُ إلى وكناتها ، والوحوشُ الى أوجرتها ، وأخذت

الطبيعةُ مكانها من مَرقدِها ، ولم يبق من أصواتها إلا أنينُ الراحة المتمثلُ فى جعجعة هذه المركبة المقبلة ، وجؤار هذه السائمة العائدةِ من حقولها ، ودمدمةِ تلك الرياحِ الضاربة فى ذوائبِ الأشجار ، وأعالى الابراج

قومى يابنيةُ الى الصلاة ، فقد جاءت الساعةُ التى يجثو فيها الأطفالُ حول أسرتهم حفاةَ الاقدام ، عراة الرءوس ، شواخص الابصار ، يطلبون الرحمةَ من الله تعالى لآبائهم وأمهاتهم وللناس أجمعين ، فترنُّ أصواتُهم فى علياء السماء ، رنينَ نغماتِ الموسيقى فى أجواز الفضاء ، فيرددها الملائكة طائرين بها الى عرش الرحمن ، فاذا فرغوا من دعائهم ، وقضوا حق الله عندهم ، وحقَّهم عند أنفسهم ، ذهبوا إلى مضاجعهم ، وناموا نوماً هادئاً مطمئناً تتطايرُ فيه الاحلامُ الجميلة حول أفواههم الباسمة ، كما تتطايرُ أسرابُ النحل حول أحواض الأزهار

قومى يابنيةُ الى الصلاة ، واطلبى الرحمةَ لتلك التى التقطت

ذرّتكِ الاولى من عالمها ، ثم اتخذتْ لك من حنايا ضلوعها سريراً قبل سريرِك ، ومن أحشائها مِهاداً قبل مهادك ، والتى قَدّم لها الدهرُ كأسَى شقائه ونعيمه ، فشربتْ الاولى وآثرتك بالاخرى

اطلبى لها الرحمةَ فانها كانتْ طيبةَ القلب ، طاهرةَ النفس ، تحبُّ حتى من لايحبها ، وترحمُ حتى من لا يرحمها ، وتبتسمُ ابتسامةً عذْبةً صافية لايُمازِجُها ذلك الريبُ الذى يمازج ابتساماتِ النساء ، وتمد يدَها الى اجتناء كل ثمرة إلا ثمرةَ الشجرة المَنهىّ عنها ، وكانت تقف أمام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفةَ المتريث المتمهلِ الذى يتهم سمعَه وبصره ، وتنظرُ اليه نظرة الحكيم العاقل الذى يعلم أن السعادة الكاذبة أمرٌ مذاقا فى الافواه من الشقاءِ الصادق ، وأن الذين يضحكون سروراً بهذه الصُّوَرِ الخيالية إنما يبكون من حيثُ لايشعرون ،

وأن الجالسين حول مائدةِ الشهوات واللذائذِ انما يقامرون بأنفسهم ولابد أنهم خاسرون ، فتحوّل بصرَها، وتُشيح بوجهها ، وتعود أدراجها ، بقلبٍ غيرِ مخدوع،وفؤادٍ غير مصدوع

اذكرى يابنية أن تطلبى الرحمةَ لأبيك كما تَطلُبينها لأُمك ، فهو أحوجُ اليها منها ، لأن الخطايا قد أثقلتْ ظهرَهُ فأصبح لايستطيع أن يرفعَ رأسه إلى السماء ، وغُلّتْ يدُه ، فلا يستطيعُ أن يمدها الى الله بالدعاء

إننى أشعرُ يابنية حينما أسمعُ نشيدَ دعائك أننى أسمع صوتَ انفصام القيود عن قدمى ، وأن تلك السحابةَ السوداء التى تُغشّى على عينى تنقشعُ عنها قليلا قليلا ، وكأن جناحى المهيضَ قد نبت له ريشٌ ناعمٌ جميلٌ أحاول أن أطيرَ به فى أعالى السماء

أطلبى الرحمةَ للآباء العائدين الى منازلهم تحت جنح الظلام بدموعٍ منهلّة ،وقلوبٍ واجمة ،بعد أن سايروا الشمسَ

من مشرقها الى مغربها ، فلم يجدوا ما يمسحون به دموعَ أبنائهم الذين ينتظرونهم فى منازلهم

أطلبى الرحمة للأمهات الجالساتِ حول أسرةِ أبنائهن المرضى وقد رَجفَت قلوبُهن ، وحارت أبصارُهن ، مخافةَ أن يذقْنَ مرارةَ الثكل ، والثكلُ كثيرٌ على قلوب الامهات

أطلبى الرحمةَ للبخيل الذى يجيعُ بطنَه ، ويشبعُ صُندوقَه ، والأحمقِ الذى يبتسمُ لِلَمعان الحرير فى صدره ، والذهبِ فى أصابعه ، والملِكِ الذى يشعلُ نارَ الحرب فى أمته ، ليطفئَ نارَ غضبه ، والزوجِ الذى لايحاسبُ نفسَه على ليلة سوء يقضيها خارجَ بيته ، ويحاسبُ زوجَه على ابتسامة رحمة تبسمُها لرجلٍ غيرِه ، وسائر البؤساء الذين لايشعرون ببؤسهم ، والأشقياء الذين يظنون أنهم سعداء

أطلبى الرحمةَ لأولئك الذين عَمَروا الارض ، وبنوا دُورَها ، وشادوا قصورَها ، وزخرفوا سهولَها وجبالها ،

وأغوارَها وأنجادها ، فجازتهم سوءا بما عمِلوا ، وابتلعتهم في أعماق جوفها ، فأصبحوا في تلك الحفرة المظلمةِ الموحشةِ التي تختلط فيها الرءوسُ بالأقدام ، والنعالُ بالتيجان ، والتي ينطوي فيها كلُّ قديم ، تحت كل حديث ، انطواءَ اللّجة تحت اللجة في البحرِ المحيط ، يتألمون ولا ينطقون ، ويستصرخون فلا يجدون من يسمعُ نداءهم ، أو يلبي دعاءهم

أطلبي الرحمةَ لهم ، فان الدعاء الخالصَ يستحيلُ في نظرهم إلى روضةٍ غناء تزهرُ فوق أجداثهم ، واركعي فوق التربة التي يئنون تحتها ، واسقيها من دموعِكِ قطراتٍ باردةً تَبُل غلتَهم ، وتطفئ جذوةَ الحزن الملتهبةَ في أحشائهم ، إنهم الى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون

اطلبي الرحمةَ للأبرار والفُجار ، والعُصاة والطائعين ، والملحدين والمؤمنين ، وكلّ دارجةٍ في الارض ، وكل سابحةٍ في السماء ، ولا تيأسي أن يستجيبَ اللهُ دعاءَكِ ،

فلكلٍّ بداية نهايةٌ ، ولكل سائلةٍ قرار

كما أن النهرَ يصبُّ فى البحر ، والطائرَ يقعُ على الغصن ، والشمسَ تجرى لمستقرها ، والنفسَ تصعدُ الى عالمها ، كذلك أبوابُ السماء ، مفتحةٌ لخالص الدعاء

الكوخ والقصر

أنا إن كنتُ حاسداً أحداً على نعمة فانى أحسدُ صاحبَ الكُوخ على كوخه ، قبل أن أحسد صاحب القصر على قَصره ، ولولا أن للأوهام سلطانا على النفوس لما تضاءل الفقراء بين أيدى الاغنياء ، ولا وَرِمَ أنفُ الاغنياءَ أن يتخذَهم الفقراءَ أرباباً من دون الله

أنا لا أغبطُ الغنىَّ الا فى موطن واحدٍ من مواطنه ، إن رأيتُه يشبعُ الجائعَ ، ويواسى الفقير ، ويعودُ بالفضل من ماله على اليتيم الذى سلبه الدهرُ أباه ، والارملةِ التى فجعها القدرُ فى عائلها ، ويمسح بيده دمعةَ البائس والمحزون ، ثم أرثِى له بعد ذلك فى جميع مواطنه الأخرى

أرثى له إن رأيتُه يتربص وقوعَ الضائقة بالفقير ليَدخلَ عليه مدخل الشيطان من قلبِ الانسانِ فيمتص

الثمالةَ الباقية له من ماله ليسدَّ في وجهه باب الامل ، وأرثي له إن رأيته يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الانسانى ، فلا يطمعُ فى فضيلة ، ولا يحاسبِ نفسَه على رذيلة ، وأرثى له وأبكى على عقله إن مشى الخيَلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بإيماء الطرف ، وإشارةِ الكف ، ومشى فى طريقه يَخزُر بعينيه خزْراً ليرى هل سجد الناسُ لمشيتهِ ، أو صعقوا من هيبته ، وأرحمه الرحمةَ كلها ان عاش شحيحاً جَعْدا مقتراً على نفسه وعياله ، بغيضاً إلى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعةَ حتْفِهِ

أما الفقيرُ فهو أسعدُ الناس عيشاً ، وأروحُهم بالا ، إلا اذا كان جاهلا مخدوعاً يظن أن الغنيَّ أسعدُ منه حظاً ، وأرغد عيشاً ، وأثلجُ صدراً ، فيحسده على النعمة التى أسبغها الله عليه ، ويجلس فى كِسر بيته جلسة الكئيب المحزون ، يُصعِّد الزفرةَ فالزفرةَ ، ويرسل العبرةَ فالعبرةَ ، ولولا جهله وبلاهةُ عقله لعلم أنّ رُب

صاحبِ قصر يتمنى كوخَ الفقير وعيشَه ، ويرى أن ذلك السراجَ الضعيف الذى لا يكاد ينيرُ نفسه أسطعُ ذبالا ، وأكثرُ لألآء ، من تلك الشموع الباهراتِ التى تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحَشيّةَ من الشعر أو الوبر أنعمُ ملمساً ، وألين مضجعاً ، من وسائدِ الحرير ، ونضائد الديباج)

لقد بلغ الضعفُ وصغرُ النفسِ بكثير من الناس أنهم يحفلون بالاغنياء لأنهم أغنياء ، ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يَبل غُلة ، أو يُسيغ غصة ، وليت شعرى ان كان لا بد لهم من إجلال المالِ وإعظامه حيث وُجد فلمَ لا يقبلون أيدى الصيارفةَ ولا ينهضون إجلالا للكلاب المطوقة بالذهب ، وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء

(لو عامل الفقرآء بخلاءَ الأغنيآء بما يجب أن يعامَلوا به لوجدوا أنفسَهم فى وحشةٍ من أنفسهم ، ولشعروا أن بدرات الذهب التى يكنزونها إنما هى أساودُ ملتفةٌ على

أقدامهم ، وأغلالٌ آخذة بأعناقهم ، ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب ، لا في رنينِ الذهب ، وفي جلائل الأعمال ، لا في أحمال المال

فليعظم الناسُ الكرماء ، وليحتقروا الاغنياء ، وليعلموا أن الشرفَ شيء وراء الغنى والفقرِ ، وأن السعادةَ أمرٌ وراء الكوخِ والقصر

على سرير الموت

مررتُ يوما من الأيام على باب منزلٍ صغير فى أحد الازقةِ الضيقة فرأيتُ حوله مجمعاً حافلا تصطك فيه الاقدامُ بالأقدام ، وتمتزج فيه الأنفاسُ بالانفاس ، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة ، وسمعتُ قائلا يقول «قبحَ اللهُ الانتحار» وآخرَ يقول «أحسبه شابا غريبا لأنى لم أرعيناً تدمعُ عليه» فعلمتُ أن هناك شابا منتحراً ، وأن هذا الحادثَ سببُ هذا الاجتماع

لم أقنعْ بالاجمال ، فأحببتُ معرفةَ التفصيلِ ، فحاولت الدخولَ الى المنزل فما استطعتُ إلى ذلك سبيلا ، فتريثتُ حتى لمحت رجـلا من رجال الشرطة أعرفه فدخلت معه وهنالك رأيت على سرير الموتِ فتىً فى نحو العشرين من عمره ، رقيقَ الجسم ، أصفرَ اللون ، لم تستطع يد

الموتِ أن تمحوَ كل آثار جماله ، بل بقيت منه بقيةٌ كتلك البقية من الطيب التى يشتنشقها الانسان فى الزهرة الذابلة

اهتم الضابطُ بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه ، واهتم الطبيبُ بجُثّته ليعرفَ علةَ موته ، أما أنا فجلستُ بجانبه جلسةَ الكئيب المحزون أفكر فى مصيبته ، وأندبُ شبابَه وجمالَه ، فلمحت حول سريره أوراقاً منثورةً فجمعتُها ووضعتُها فى محفظتى من حيثُ لا يشعر الضابط ولا الطبيبُ بما أفعل ، علنى أجد فيها عبرةً من العبر

وما هى الا ساعةٌ حتى قرر الطبيبُ أنه منتحرٌ بشرب مادةِ الزرنيخ ، وقرر الضابطُ نقلَ جثته الى المستشفى ، فنُقِلَتْ الجثةُ ، وانفض الجمعُ المزدحمُ ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئاً

خلوتُ بنفسى والأوراقِ فنثرتُها فرأيتها مجموعةَ خواطرِ عاشق تناول كأسَ الحب بيده فارتشف منها الرشفةَ الأولى ، فوجدها حُلوةَ المذاقِ ، فألصق الكأسَ

بفمه ، واستمر يشرب لا يرفعها ، ولا يشعرُ بالمرارة المتجددةِ في جرعاتها ، حتى أتى على الجرعة الأخيرة ، فاذا هى السمُّ الناقع الذى قتله وذهب بحياته

قرأتُ تلك المذكراتِ فبكيت بكاءً رحمتُ نفسى منه، ثم طويتها وألقيتُ بها بين أوراقى ، وظلتْ على ذلك أعواماً طوالا

وبينا أنا أقلب أوراقي ليلة أمسِ اذ عثرتُ بها فى سَفَط صغير قد اصفر لونه لتقادمِ العهد عليه ، كما يصفرُّ الكفنُ حول الجثةِ البالية ، فشعرت برِعدةٍ تتمشى فى أعضائى ، وتخيلتُ أنها فى هذا السفَط ، شبَحُ كاتِبها فى ذلك القبر

ثم عدت الى نفسى فنشرتها للمرة الثانية وأعدتُ قراءتها ، فرأيت قلبَ العاشق مرسوماً فيها رسما صحيحاً فى حالى سعادته وشقائه ، وهأنذا أنشرها فى الناس لتكونَ عبرةً يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم فى هذا السبيل ، سبيلِ الحب القاتل : —

١

رأيتها فأحببتُها وما كنت أعرفُ الحب من قبلها

كان قلبي فى ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق فيه الحبُّ أشرقت فيه شمسٌ ساطعة منيرة لها من الشمس نورُها وجمالها ، وليس لها منها حرارتُها ولذاعتها

كنت أشعرُ قبل اليوم كأن قلبي فى صحراء هذه الحياة وحيدٌ موحشٌ لا يعرف القلوب ، أو يعرفها ثم ينكرها ، فلما أحببتُ رأيت بجانبه قلباً يؤنسه ويزيل وحشته ، فوجدت بين جوانحي من اللذة والغبطة مالو قُسم على القلوب جميعها ماخالطها حزنٌ ، ولا مسها ألم

كنت أسمع باسم السعادة ولا أفهم معناها ، غير أني كنت أسمعهم اذا ذكروها ذكروا بجانبها القصرَ والحديقة ، والفضةَ والذهب ، والسلطةَ والجاه ، والشهرة والصيت ، فلما أحببتُ اعتقدت ألا سعادة فى الدنيا غيرُ سعادة الحب ، وأيقنت أن الناس جميعاً انما يطلبون سعادة الا جسام ،

لاسعادة النفوس ، فمثلهم كمثل الدفين المكفّنِ بالحرير والديباج، وباطنهُ مسرحُ الدود ، ومرتعُ الهوام والحشرات

٣

أحببتها قبل أن أعرف عنها شأناً من الشؤون سوى أنها تحبنى ، فكأننى مامنحتُها قلبى إلا لأنها منحتنى قلبها ، وهو ثمنٌ قليل فى جانب هذه المنحةِ الغالية التى ما كنت أحدثُ نفسى بها ، ولا كانت تستطيع أن تمثلها فى عينى خواطرُ الأمانى ، ولاسوانحُ الأحلام

عشتُ دهراً بين أقوام لا يَعنيهم أمرى ، ولا يهمهم شأنى ، وذقتُ من آلام الحياة وشقاء العيش مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، فسمعت من يسألنى كيف حالُك ، ومن يقول لى ماأشدّ جزعى لمصابِك ، ومن يتبا كى رحمةً بى وإشفاقاً علىّ ، ولكنى لم أر بجانبى يوماً من الأيام عيناً تدمع ، ولا قلباً يخفق

رأيتُ من يحب جمالى كما يُحبُّ تمثالا مُتْقَنَ الصنع ، ومن يحبّ مالى كما يحبه فى كيسه أو خزانته ، ومن يعجب

بحديثي إعجابه بروايةٍ بديعة ، ولكني لم أرَ في حياتي من يحبني

أما اليوم فقد وجدتُ بجانبي القلبَ الذي يخفق لأجلي ، والعينَ التي تبكي في سبيلي ، والنفسَ التي تحبني لا لشيء سواي ، فقليلٌ لها مني أن أمنحها حياتي ، فكيف أبخل عليها بقلبي ؟

٣

جلستُ إليها للمرة الأولى فحدثتني نفسي أن أمدّ يدي إلى يدها فأضعها على صدري لأطفئَ بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرتْ إليّ نظرةَ العاتبِ اللائم ، وقالت كن رجلا في حبك ، واترك الطفولةَ لغيركَ

إن كنتَ تُحِبُّني لنفسي فهاءنت قد ملكتَها عليّ وأحرزتها من دوني ، وإن كنتَ تحبني لهذه الصورة الجثمانية فما أضعف همتَك ، وما أصغر نفسك

أتذرفُ دمعَك ، وتسهرُ ليلك ، وتذيبُ حبةَ قلبِك ، من أجل عَظمةٍ تلمسها ، أو جلدة تلثمها ؟ ؟

أنت شريف في نفسك ، فكن شريفاً في حبك ، واعلم

أنى ما أحببتُ غيرَ نفسِك ، فلا تحبّ غير نفسى

وما وصلتْ من حديثها إلى هذا الحد حتى رأيتنى قد صغرتُ فى عينِ نفسى ، وتمنيتُ أن لو عَجِلَ إلىّ أجلى قبل أن يمرّ هذا الخاطرُ الفاسدُ فى ذهنى ، ثم استوهبتها ذنبى فوهبَتْه لى ، وما عدتُ من بعدها إلى مثلها

٤

الآن عرفتُ مبلغَ عِظتها ، وفضلَ هدايتها ، ومقدار ما يبلغه الحبُّ الشريف من النفس ، فها أنذا أشعر كأن نفسى مرآةٌ يغشاها الصدأ ، وكأن الحبَّ صَيْقلٌ يصقلُها فيجلو صفحتها شيئاً فشيئاً

كنت أحمـلُ بين جوانحى لأعـدائى ضغناً وحقداً ، فأصبحتُ لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل ، لأن الحب ملك علىّ قلبى ، واستخلصه لنفسه ، فلم يترك فيـه مجالا لشىء سواه

كنتُ ضيّقَ الصدر ان مسنى ألم ، سريعَ الغضبِ إن فاتنى مأرب ، فأصبحتُ فسيحَ رقعةِ الحلم ، لا يستفزّنى

غضبٌ ، ولا يحرجُني مُحرجٌ ، لأني قنِعتُ بسعادة الحب ، فلم أحفِلْ بعدها بشيء سواها

كنتُ شديدَ القسوةِ ، متحجرَ القلب ، لا أعطفُ على بائس ، ولا أحنو على ضعيف ، فأصبحتُ أشعر بالمصيبة أراها تصيبُ غيري ولا تصيبني ، وأتألم لبؤس كلِّ بائس ، وحزنِ كل محزون ، لأن الحبَّ أشرق في قلبي فملأه نوراً ، فارتفع ذلك الستارُ الذي كان مُسبَلا بينهُ وبين القلوب

وجملةُ القولِ أنني كنتُ وحشاً ضارياً أعيا العالمين رياضتَه وتذليلَه ، فصرتُ بين يدَي الحبِّ الشريفِ إنساناً شريفاً ، وملكاً كريماً

٥

خرجتُ بها الليلة إلى ضفة النهر وكان الماء رائقاً ، والسماء صافية ، وفي كل منهما نجومٌ وكواكبُ تتلألأ في صفحته ، فاختلط علينا الامرُ حتى ما نفرقَ بين الأصل

والمرآة ، ولا ندرى أين مكانُ الماء ، مِن مكان السماء ، فمشينا طويلا لا ينبس أحدُنا بكلمة كأن سكونَ الليل قد سرى الى أفئدتنا ، وملأ ما بين جوانحِنا ، فأمسكنا عن الحديث هيبةً واجلالا

وكنت أشعر فى تلك الساعةِ بخفةٍ فى جسمى ، وصفاء فى نفسى ، حتى كان يخيَّلُ إلى أنى لو شئت أن أطير لطرتُ بغير جناح ، وأن فى استطاعتى أن اخترقَ بنظرى حُجُبَ السماء وأنفذ إلى الملأ الأعلى ، فأرى هنالك ما هو محجوب عن نظر الناس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن يَضِلَّ النجمُ سبيلَه فلا يهتدى إلى مغربه ، وأن يختبئ الليل فى بُردته فلا يعثرُ به فجرُه ، وأن تستمر مِشيتُنا هذه ماضل النجم ، وما دام الظلام

فالتفتُ اليها وسألتها هل تشعرُ بالسعادةِ التى أشعرُ بها ؟

قالتْ لا ، لاني أعرفُ من شؤون الأيامِ وأحوالها

غيرَ ماتعرفُ ، ولانى لاأنظرُ الى الدنيا بالعين التى تنظرُ بها إليها

أنت سعيدٌ بالامل ، وأنا شقيةٌ بالحقيقة الواقعة

إنك سعيدٌ لأنك تظن أن سعادتك دائمةٌ لاانقطاع لها ، وأنا شقيةٌ لانى أتوقعُ فى كل لحظة زوالَها وفناءها

إن استطعتَ أن تقفَ الشمسَ فى كبد السماء ، وأن تحولَ بين الارض ودورتِها ، وأن تمنع الساكنَ أن يتحركَ ، والمتحركَ أن يسكُن ، فاضمن لنفسك استمرارَ السعادة وبقاءها

وهنا أمسكتْ عن الكلام وأطرقتْ برأسها طويلا ، فرأيتُ مدامعَها تنحدر على خديها بيضاء صافيةً كاللؤلؤ المكنون ، فبكيتُ لبكائها ، وقلت لم تبكين ؟ قالتْ خوف الفراق ، قلتُ فراق الحياة ؟ أوفراق الموت ؟ قالت أمافراقُ الحياة فاننى لاأخافه ، لأنه لاتوجد قوةٌ فى العالم تستطيعُ أن تحولَ بينى وبينك ، إنما أخاف فراقَ الموت ، لانه

الفراقُ الذى لاحيلة لى فيه ، ولا مُنتدَح عنه ، قلتُ هل لكِ أن نتعاهد على أن نعيشَ معاً ونموت معاً ؟ قالتْ ذلك ما يهون عليّ أملى ، فتعاهدْنا ، ثم رجعنا أدراجنا ، والليلُ يشمِّر أذياله للفِرار ، من وجه النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كلٌّ منا لسبيله

٦

ألا يستطيعُ هذا الدهرُ الغادرُ أن ينام ساعةً واحدة عن هذا الانسان ؟

ألا يستطيعُ أن يسقيَه كأساً واحدة لايخالطُها كدر ، ولا يمازُجها شقاء ؟

الا يستطيعُ أن يحرِمَه السعادةَ بتاتاً فلا يذيقه من كأسها قطرةً واحدة مادام يريدُ أن يمنحه اليوم ليسلبه غداً ؟

إن الانسانَ لايعجزُ عن احتمال الشقاء الدائم، ولكنه يعجزُ عن احتمال السعادةِ المتقطعة

يقولون إن الاملَ حياةُ الانسانِ ، وما قتل الانسانَ ومزق شملَ حياته إلا الاملُ

ليتني ماسعدتُ ، لانني ماشقيتُ إلا بسعادتي، وليتني ما أمّلت ، لان اليأس القاتلَ ، ماجاءني إلا من طريق الأملِ الباطل

ماتت الفتاةُ التي كانت شمسَ حياتي ، وأشعةَ آمالي، وينبوعَ سعادتي وهناءتي

ماتت الفتاةُ التي كانت ملء الدنيا جمالا وبهاء ، فمات بموتها كلُّ حيّ في هذا الوجود

أرى الأرضَ غيرَ الأرضِ، والسماء غير السماء ، وأرى الطيرَ صامتةً لاتغرّد ، والغصونَ ساكنة لاتتحرك ، وأرى النجوم آفلة ، والازهارَ ذابلة ، والطبيعةَ واجمة حزينة، لايفترّ ثغرها ، ولا يتلألأ جمالُها ، وأرى الدنيا كانما عادت الي عهدها الاول ، لايسكنُها إنسان ، ولا يخطرُ بها حيوان ، وكانني فيها آدمُها الوحيدُ المِسكين يندب جنتَه ، ويشكو وحدته

أيها الدهرُ الغادر ، ان غلبتَني عليها ، فإنك لن تستطيعَ

أن تغلبَنى على نفسى ، لك أن تُخرِجَ من الدنيا من تشاء ، ولكن ليس لك أن تردّ اليها من يخرجُ منها

ويأيتها النفسُ الهائمةُ فى سمائها ، لاتجزعى ولاتعجَلى ، فوالله لأفِيَنَّ بعهدكِ ، ولأُذهبن عما قليل وحشتك ، وليكونن عهدُنا فى مستقبلنا ، كعهدنا فى ماضينا ، فما تعارفنْا فى العالم الأولِ إلا بأرواحنا ، فلنكنْ كذلك فى العالم الثانى

غدر المرأة

يَقُصّون في بعض الأُساطيرِ القديمةِ أن حكيما من حكماء اليونان كان يحب زوجته حبا ملك عليه عقلَه وقلبه ، وأحاط به إحاطةَ الشعاع بالمصباح المتقد، وكان يمازج هناءَته الحاضرةَ شقاءُ مستقبل يسوقه الى نفسه الخوفُ من أن تدور الايام دورتها فيموت ويُفلت من يده ذلك القلبُ الذي كان مغتبطاً باعتلاقه إلى صائد آخر يعتلقُه من بعده ، وكان كلما أبث زوجتَه سره ، وشكا اليها ما يساورُ قلبه من ذلك الهم ، حنَتْ عليه ، وعللته بمعسول الاماني ، وأقسمتْ له بكل مُحرِجة من الايمان أنها لاتستردُ هبةَ قلبِها منه حياً وميتاً ، فكان يسكنُ الى ذلك الوعد سكونَ الجرح الذرِب تحت الماء البارد ، ثم لايلبثُ أن يعود الى هواجسه ووساوسه ، حتى مر في بعض رَوحاته إلى منزله في إحدى

الليالى المقمرةِ بمقبرة المدينة ، فبدا له أن يدخلَها ليروّح عن نفسه همومَ الموت بوقفةٍ بين قبور الموتى ، وكثيراً ما يتداوى شاربُ الخمر بالخمر ، ويلذ للجبان وهو يرتعدُ فرَقا الاصغاءُ إلى حديث المردةِ والجان ، فرأى فى بعض مذاهبه بين تلك القبورِ امرأةً متسلّية جالسة أمام قبرٍ جديد لم يجفَّ ترابُه ، وبيدها مِروحةٌ من الحرير الابيض مطرزةٌ بأسلاك الذهب ، تحركها يَمنة ويَسرة لتجففَ بها بللَ ذلك التراب ، فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعتْ لمرآه ، ثم أنِستْ به حينما عرفتْه ، فسألها ما شأنها ، وما مقامها هنا ؟ ومن هذا الدفين ، وما هذا الذى تفعل ؟ فأبت أن تجيبَه عما سأل حتى تفرغَ من شأنها ، فجلس اليها وتناول المِروحةَ منها ، وظل يساعدُها فى عملها حتى جف التراب ، فحدّثَتْه أن هذا الدفينَ زوجُها ، وأنه مات منذ ثلاثة أيام ، وأنها جالسةٌ منذُ الصباح مجلسَها هذا لتجففَ ترابَ قبرِه وفاءً بيمين كانت قد أقسمتْها له فى مرض موته ألا تتزوجَ من غيره حتى يجفّ

ترابُ قبرِه وأن هذه الليلةَ هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فأبى لها وفاؤها لهذا الدفينِ الذي كان يحبها ويحسن اليها أن تحنثَ بيمين أقسمتْها له ، أو تخيسَ بما عاهدتْه عليه ، ثم قالت له هل لك ياسيدى أن تقبل هذه المِروحةَ هدية مني اليك ، وجزاء لك على حسن صنيعك معى ؟ فتقبلها منها شاكراً بعد أن هنأها بزواجها الجديد ! ! ثم انصرف وليس وراء مابه من الهم غاية ، ومشى فى طريقه مشيةَ الرائح النشوان يحدثُ نفسه ويقول : إنه أحبها وأحسن اليها ، فلما مات جلستْ فوق قبره لا لتبكيَه ، ولا لتذكرَ عهدَه ، بل لتتحللَ من يمين الوفاء التى أقسمتْها له ، فكأنها وهى جالسة أمام زوجها الاول تُعد عدد الزواج من زوجها الثانى ، وكأنما اتخذتْ من صفائح قبره مرآةً تصقلُ أمامها جبينَها ، وتصففُ طرتَها ، وتلبس حليتها ، للزفاف الى غيره

ومازال يحدثُ نفسه بمثل هذا الحديثِ حتى رأى نفسه

فى منزله من حيث لا يشعر، ورأى زوجه مائلةً أمامه مرتاعة لمنظره المؤلم المحزن، فقال لها إن امرأةً خائنة غادرة أهدت إلىَّ هذه المروحة فقبلتها منها لأهديها إليك، لأنها أداةٌ من أدوات الغدر والخيانة، وأنتِ أولى بها منى، ثم أنشأ يقص عليها قصةَ المرأة حتى أتى عليها، فغضبت وانتزعت المروحةَ من يده ومزقتها إربا إربا، وأنشأت تسبُّ تلك المرأة وتشتمها، وتَنعَى عليها غدرَها وخيانتها وسفالتها ودناءتها، ثم قالت ألا يزالُ هذا الوسواس عالقاً بصدرك مادمت حيا؟ وهل تحسَب أن امرأةً فى العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأةُ الغادرة؟ فقال لها إنك أقسمتِ لى ألا تتزوجى من بعدى فهل تفين بعهدك، قالت نعم ورمانى الله بكل ما يُرمى به الغادر إن أنا فعلت، فاطمأن لقسمها وعاد إلى هدوئه وسكونه

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى أشرف على الموت، فدعا

زوجته وذكرها بما عاهدتْه عليه فادّكرت ، فما غربت شمسُ ذلك اليوم حتى غربت شمسُه ، فأمرت أن يسجّى بردائه ويُترك وحده فى قاعته حتى يحتفلَ بدفنه فى اليوم الثانى ، ثم خلت بنفسها فى غرفتها تبكيه وتندبه ماشاء الله أن تفعل ، وإنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادمُ وأخبرتها أن فتىً من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعودَه حينما سمع بخبر مرضه ، فلما سمع حديثَ موته ذُعر ذعراً شديداً وخرّ فى مكانه صَعِقاً وأنه لايزال صريعاً عند باب المنزل لاتدرى ماتصنع فى أمره ، فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف ، وأن تتولى شأنه حتى يستفيقَ ، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها ، فلما مر الهزيعُ الثانى من الليل دخلت عليها الخادمُ مرة أخرى مذعورةً مرتاعة وهى تقول : رحمتك وإحسانك ياسيدتى ، فان ضيفَنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذاباً أليما ، وقد حرتُ فى أمره ، وما أحسبَه إن نحن أغفلنا أمرَه إلا هالكا ، فأهمها الأمر ، وقامتْ تتحاملُ على نفسها حتى

وصلتْ إلى غرفة الضيف ، فرأته مسجًّى على سريره ، والمصباحُ عند رأسه ، فاقتربتْ منه ونظرت فى وجهه ، فرأت أبدعَ سطرٍ خطته يدُ القدرةِ الالهية فى لوح الوجود ، فخيل إليها أن المصباحَ الذى أمامها قبسٌ من ذلك النور المتلألئ فى ذلك الوجهِ المنير ، وأن أنينه المنبعثَ من صدره نغمةٌ موسيقية محزنة ترن فى جوف الليل البهيم ، فانساها الحزنُ على المريض المشرفِ الحزنَ على الفقيد الهالك ، وعناها أمره ، فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج إلا توسلتْ بها إليه حتى استفاق ، ونظر إلى طبيبته الراكعةِ بجانب سريره نظرةَ الشكر والثناء ، ثم أنشأ يقص عليها تاريخَ حياته ، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعرفَه ، فعرفت مسقطَ رأسِه ، وسيرة حياته ، وصلته بزوجها ، وأنه فتى غريبٌ فى قومه ، لا أب له ولا أم ، ولا زوجة ولا ولد ، وهنا أطرقتْ برأسها ساعةً طويلة عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعتْ رأسَها وأمسكتْ بيده ، وقالت له إنك قد ثكلتَ أستاذك ،

وأنا ثكلت ُزوجى ، فأصبح همنا واحداً ، فهل لك أن تكون عوناً لى وأن أَكون عوناً لك على هذا الدهرِ الذى لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً ، فألمَّ بخبيئة فى نفسها ، فابتسم لها ابتسامةَ الحزن والمضض ، وقال لها من لى ياسيدتى أن أظفر بهذه الأمنيةِ العظمى ، وهذا المرضُ الذى يساورنى ولا يكاد يهدأ عنى قد نغص علىَّ عيشى ، وأفسد علىَّ شأن حياتي ، وقد أنذرنى الطبيبُ باقتراب ساعة أجلى ان لم تدركنى رحمةُ الله ، فاطلبى سعادتك عند غيرى ، فأنتِ من بنات الحياة ، وأنا من أبناء الموت ، فقالت له إنك ستعيشُ ، وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سَحرى ونحرى ، قال لاتصدقى مالا يكون ياسيدتى ، فأنا عالم بدوائى ، وعالم بأنى لا أجدُ السبيلَ إليه ، قالت وما دواؤك ؟ قال حدثنى طبيبى أن شفائى فى أكل دماغ ميت ليومه ، وما دام ذلك يعجزنى فلا دواء لى ولاشفاء ، فارتعدتْ وَشَحِبَ لونُها وأطرقت إطراقةً طويلة لايعلم إلا الله ماذا كانت تحدثها نفسُها فيها ثم رفعت رأسها وقالت كن مطمئنا فدواؤك

لا يعجزني ، ثم أمرته أن يعودَ إلى راحتهِ وسكونه، وخرجتْ من الغرفة متسللةً حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها ، فأخذتْ منها فأساً قاطعة ، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاسا حتى وصلتْ إلى غرفة الميت ، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريراً مزعجاً ، فجمدتْ في مكانها رعباً وخوفاً ، ثم دارتْ بعينيها حولها فلم تر شيئاً ، فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضربَ بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوجَ من بعده ، ولم تكد تهوى بها حتى رأت الميتَ فاتحاً عينيه ينظر اليها ، فسقطت الفأس من يدها ، وسمعت حركةً وراءها فالتفتت فرأت الضيفَ والخادم واقفَين يتضاحكان ففهمتْ كلّ شيء

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المِروحة في يد تلك المرأةِ أجملَ من هذه الفأس في يدك ! أليست التي تجفف ترابَ قبرِ زوجها بعد دفنه أفضلُ من التي تكسر دماغه قبل نعيه ! فصارت تنظر إليه نظراً غريباً ، ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسُها

الضاد (١)

كان العربُ الاولون أحراراً في لغتهم ، يضعون لكل مايخطرُ ببالهم من المعاني ، مايريدون من الالفاظ ، لا يتقيدون بقاعدة ولاشرط ، ونحن عربٌ مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم ، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسهمُنا في الضاد سهمُهم ، وحقنا فيها حقهم ، فلم يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا ، وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم ، ومرافقُنا أوفرُ عدداً من مرافقهم ، وأوسع فصولا وأنواعا

أين باديتُهم الخلاء المقفرة التي لا يعمُرُها الا القليل من الخيام المبعثرةِ بين معاطنِ الابل ومرابضِ الشاء ، من مدائننا الفاخرةِ الزاخرة ، الحافلة بصنوف الموجودات؟

(١) الضاد عنوان اللغة العربية

وأنواع الآلات ، وغرائب المصنوعات ، وأكثرها مستحدث مستطرَف لم تتداوله السنون والايام ، ولم تعصف به عواصفُ القرون والأعوام

أليس من الظلم المبين ، والغبن الفاحش ، أن تضيق حاجاتهم عن لغتهم ، فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسم للأسد ، وأربعمائة للداهية ، وثلثمائة للسيف ، ومائتين للحية ، وخمسين للناقة ، وتضيق لغتنا عن حاجاتنا ، فلا نعرفُ لأداةواحدة من آلاف الادوات التى يضمها المعمل الواحد اسما عربياً واحداً ، اللهم إلا القليل التافه من أمثال المسبر والمبرد ، والمنشار والمسمار ؟

أيكون لسفينة البر وهى لاتحمل إلا الرجل أو الرجلَ ورديفه مائتا اسم لها ، ومئين من الاسماء لاعضائها وأوصالها ، ورحلها وكورها ، ولايكون لسفينة البحروهى المدينةُ المتنقلة فى الدأماء القليلُ من ذلك الحظ الكثير

كان لعرب الجاهلية الاولى مؤتمرٌ لغوى يعقدونه

[redacted]
المنفلوطى ،مصطفى لطفى
النظرات
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039790